النقائض في الشعر الجاهلي

تأليف

الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي

أستاذ الأدب العربي المساعد

كلية التربية - جامعة المنصورة

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا. القاهرة. ت: ٣٩٠٠٨٦٨

البريد الإلكتروني: adabook @ hotmail. com

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد خضع الشعر الجاهلي لمسلمات كثيرة نتوارثها ونرددها[1] جيلاً بعد جيل، وأعتقد أن هذه المسلّمات نشأتْ منذ القِدم ولم تكن وليدة العصر الحديث، ونضرب لذلك مثالاً وهو قول ابن سلاَّم الجُمحى (١٣٩-٢٣١هـ) بأن امرأ القيس من الشعراء الذين يستبهرون بالفواحش ويتعهرون في شعرهم[2]، والمفترض لمن يقرأُ قولَ ابن سلاّم أن يُكلف نفسه عناء البحث في شعر امرئ القيس ليتحقق من صحة حكم ابن سلاّم عليه، لكن الأسهل من هذا هو اعتبار قول ابن سلام السابق حُجة غير قابلة للنقاش، يُسلَّمُ بصحتها، وعلى ذلك نرى جميع الدارسين في العصر الحديث يعتمدون على هذا الرأى مثل إيليا حاوى، والدكتور أحمد الحوفي، والدكتور طه حسين، والدكتور شوقي ضيف وغيرهم[3].

وأظن أن الذين تناولوا الشعر الجاهلي بالدرس والتحليل والتنظير إنّما اعتمدوا على القصائد الطويلة المشهورة كالمعلقات والمجمهرات وغيرها، ومن ثمّ كانت هذه القصائد هي المعيار الذي يبنون أحكامهم عليه، فلا بد أن تبدأ القصيدة بمقدمة طللية مثل هذه القصائد، وإن لم نجد مقدمة طللية كان الجواب جاهزًا، فقد ضاعت وضلّتْ طريقها إلينا ووصلت إلينا القصيدة مبتورة. ونسينا أو تناسينا

(١) انظر: امرؤ القيس حياته وشعره، الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٩٦.

(٢) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلاّم الجمحي، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، (د.ت) ص٤٨٣.

(٣) انظر ذلك تفصيلاً في: العفة في غزل امرئ القيس، الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، مجلة كلية دار العلوم، العدد ٢٨، ربيع الأول ١٤٢٢هـ، يونية ٢٠٠١م، ص١٨٥.

أن القصائد الطويلة في الشعر الجاهلي تمثل نسبة ضئيلة إذا قورنت بالقصائد الأخرى، ويمكن للقصيدة الطويلة أن تكون بلا مقدمة طللية، أضف إلى ذلك أن هناك دواوين لشعراء كبار في العصر الجاهلي خلَتْ تمامًا من أية مقدمة طللية مثل ديوان عامر بن الطفيل، كما أن ديوان لبيد بن ربيعة لم ترد المقدمة الطللية فيه إلا في أربع قصائد فقط، وهي القصائد رقم (١١، ١٢، ١٥، ١٦) في ديوانه الذي حققه الدكتور إحسان عباس بينما بقية قصائد الديوان وعددها سبع قصائد قد خلت من المقدمة الطللية فالحكم إذن بأن القصيدة الجاهلية لا بد وأن تبدأ بالطلل أمر يحتاج إلى إعادة نظر.

والنقائض في العصر الجاهلي شأنها شأن ما سبق، فهى تخضع لأحكام عامة تنقصها الدقة والبحث الهادئ، وأعتقد أن معظم الاتجاهات التي ظهرت في الشعر الأموي والعباسي لم تظهر من العدم أو الفراغ وإنّما شبّت عن جذور عميقة في الحقبة الجاهلية.

وشعر النقائض أقرب إلى الحياة الجاهلية من أي عصر آخر وذلك لكثرة الحروب والمعارك والمنافرات التي ينشأ عنها عادة شعر النقائض الحقيقي لأنّه يعبر عن حالة عداء حقيقي بين خصمين، أما النقائض الأموية والتي اعتبرها كثير من الباحثين اتجاهًا جديدًا لم يألفه الشعر العربي قبل ذلك، فإنني أعتقد أنها نقائض فنية، أي تعبر عن صراع فني بين شاعرين ربما لا تكون بينهما خصومة وإنّما هو صراع مهنى إن جاز لنا التعبير.

أضف إلى ذلك فإن الذين درسوا نقائض العصر الأموي - في الغالب - ركّزوا على نقائض جرير، والأخطل، والفرزدق، وكأن العصر الأموي خلا من النقائض الحقيقية التي تنشأ نتيجة خصومة حقيقية وعداء بين طرفين، وشعر النقائض هذا أكثر من حيث الكم من شعر الشعراء الثلاثة المشهورين - جرير، والفرزدق،

والأخطل - وهو الامتداد الطبيعي لشعر النقائض في العصر الجاهلي. لأنه كما قلنا - سابقًا - كان نتاجًا لعداء حقيقي.

وعندما فكرت في دراسة نقائض العصر الجاهلي - لم يكن الأمر سهلاً، بل كان لزامًا عليَّ أن أقرأ أشعار القبائل العربية والمصادر التي اهتمت بأخبار الحروب والصراعات بين هذه القبائل، وليس معنى هذا أننا أحصينا كل النقائض في العصر الجاهلي، وإنّما أحصينا ما توصلنا إلى معرفته منه فقط، وربما غاب عنّا قصيدة هنا أو هناك وهذا أمر طبيعي لأنه لا يستطيع أحدٌ أن يَدَّعى أنه قرأ الشعر الجاهلي كله ولم تفته شاردة أو واردة فهذا كلام يخالف الدقة العلمية لكن الصحيح هو القول بأنا قرأنا كل المُتَاح منه، لذلك نأمل من زملائنا وأساتذتنا أن يمدونا بالعون والنصيحة إذا ما وجدوا قصيدة في مصدر لم يُتحَ لنا الإطلاع عليه.

وبعد

فقد بذلت جهدي في هذا الكتاب آملاً أن أكون قد وضعت لبنة مهمة في دراسة الشعر الجاهلي والله تعالى من وراء القصد فهو نعم المولى ونعم النصير،،،

دكتور

عبدالرحمن محمد الوصيفي

القاهرة منيل الروضة

الثلاثاء في ١٦ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ

١٥ يوليو ٢٠٠٣م

تمهيد

حول مفهوم النقائض

النَّقضُ في اللغة هو: إفسادُ ما أبرمْتَ من عقدٍ أو بناء، ونقضُ البناء، هدمُه، وناقضَهُ في الشيء مُنَاقضةً ونقاضًا: خالفه، والمُنَاقَضَـةُ في القـول: أن يُتَكَلَّم بما يتناقَضُ معناه. والنَّقيضةُ في الشِّعر: ما يُنْقَضُ به. وكذلك المُناقضةُ في الشِّعْر ينقضُ الشاعرُ الآخر ما قاله الأول[1].

«أمّا الصورة الاصطلاحية التي انتهى إليهـا هذا الفن منذ الجاهلية فالأصل فيها أن يتجه شاعرٌ إلى آخر بقصيدة هاجيًا أو مفتخرًا، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجيًا أو مفتخرًا ملتزمًا البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول، ومعنى هذا أنه لابد من وحدة الموضوع فخرًا أو هجاءً أو سياسة أو رثاءً أو نسيبًا أو جملة من هذه الفنون المعروفة.. ولابد من وحدة البحر فهو الشكل الموسيقي الذي يجمع بين النقيضتين.. ولابد من وحدة الروي وحركته»[2].

ويكون نقضُ المعاني محورًا أساسيًا لهذا الفن لأنَّه مناط النقائض ومحورها الذي عليه تدور، لأن الشاعر الآخر همه أن يفسد على الأول معانيه فيردها عليه إن كانت هجاءً، ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه، وإن كانت فخرًا كذَّبه فيها أو فسرها لصالحه هو، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه[3].

والنقائض بهذا المفهوم تعد مُبارزة فنية وعقلية داخل إطار موضوعي وإيقاعي

---

(١) انظر: اللسان «نقض» (١٤/٢٦٢)، والقاموس المحيط «نقض» (٢/٣٤٧).

(٢) تاريخ النقائض - أحمد الشايب - مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٤م، ص٣.

(٣) انظر: السابق ص٤.

مُحدد، لا تقل عن مبارزة السيف والرمح، فالغاية واحدة لأن الذي يبارز بالسيف أو الرمح في معركة يريد قتل مَنْ ينازله، وكذلك الذي يبارز بالقول يريد قتل مَنْ يبارزه معنويًّا، وهي أشد وأنكى، لأنّها لا تنتهي بنهاية النزال في المعركة، بل تجعل المهزوم في المبارزة يعيش حياة مُحاطة بالعار، ربما يكون الموتُ أفضل منها، إذ يتناولها الركبان في أرجاء جزيرة العرب وتنتشر انتشارًا واسعًا بين القبائل، أضف الى ذلك أن لها صفة الخُلْد على مر العصور.

والشاعر العربي القديم كان على وعي تام بهذا، ويدرك خطورة النزال القولي، لذا كان الشاعر الأول يبذل قصاري جهده في تصوير ما يقول محاولاً إثباته بحجج وبراهين وأدلة كي يُقنعَ الغير بها، وكان الشاعر الآخر عندما يرد عليه يبذل جهدًا مُضَاعفًا، لأنَّ الأول فرضَ عليه أرض المعركة وطبيعتها - الموضوع والإيقاع - ومع ذلك يتحتم عليه تفنيد ما قاله الأول والرد عليه وإبطاله.

★ حول نشأة النقائض

عندما تُذكر «النقائضُ» يتبادر إلى الذهن نقائض العصر الأموي التي بلغت شُهرتُها الآفاق، ونالت قصب السبق من الدرس والتحليل، وكأن «هذا الفن الشعري حديث النشأة لم يعرفه الشعرُ العربي إلا في منتصف القرن الأول، وكأن فضل اختراعه راجع إلى هذه المدرسة الأموية ورجالها المشهورين والمغمورين»(١) ومن ثمَّ نُظِرَ إلى النقائض الأموية على أنَّها الصورة الأولى لهذا الفن.

وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى وجود بذور قديمة للنقائض سبقت العصر الأموي، ويرى النقائض تطويرًا لفن الهجاء الذي عرفه العرب في الجاهلية لكنه يؤكد في الوقت نفسه على عدم وجود علاقة بين الهجاء الجاهلي وفن النقائض في

(١) تاريخ النقائض - أحمد الشايب ص١.

العصر الأموي الذي أصبح شيئًا آخر يُراد به اللهو لا الجد كما كان الشأن قديمًا. ويضيف الدكتور شوقي ضيف أن الشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهورًا، وليقطع له أوقات فراغه، ولم يكن يهجو أمـام خصومه مباشرة، ولم يكن يحترف الهجاء على هذا النحو الذي نجده في عصر بني أميــة، كمــا أن صور الهجاء التي سبقت العصر الأموي كانت في أكثرها صورًا بسيطـة، فالشعـراء لا يتقيدون دائمًا بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الـوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الألحان والنغمات التي صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاءهم(١).

ويؤكد الدكتور صلاح الدين الهادي على أن النقائض كانت فنًّا شعريًّا معروفًا - إلى حد ما - في العصر الجاهلي، لكنها في أوّل أمرها لم تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وعناصرها وشرائطها الفنية وكانت تأخذ صورة الرد الذي لا يتقيد بأصول المناقضة، ثم أخذت تتطوَّر شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى صورتها الكاملة واستوفت كل القواعد والأصول الفنية اللازمة لفن المناقضة في نهاية العصر الجاهلي(٢).

أما الأستاذ أحمد الشايب فهو - فيما أعلم - أول مَنْ قطع بوجود فن النقائض في الشعر الجاهلي، وأكد على أنه فن قديم نشأ مع النهضة الشعرية طفلًا ساذجًا ناقص الأركان ثم أخذ يستكمل، على الأيام، أركانه، وعناصره، معتمدًا أكثر ما اعتمد على فني الفخر والهجاء حتى تمت أوضاعه وشرائطه. ويبرر الأستاذ الشايب رأيه السابق بأنه ليس من طبيعة الأشياء أن تطلع علينا النقائض أول ما

(١) انظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي - د. شوقي ضيف - ط٨، دار المعارف ١٩٨٧م، ص١٦٣،١٦٤.

(٢) انظر: اتجاهات الشعر في العصر الأموي - د. صلاح الدين الهادي - دار الثقافة العربية (د.ت)، ص٢٧٣،٢٧٥.

تطلع، كاملة الصورة تامة التقاليد والعناصر، متوافرة الشرائط والطرائق كما رأيناها عند جرير وصاحبيه، فلابد أن تدرج طفلة ثم تيفع وتشب إلى أن تستوى ناضجة متجاوبة الموسيقا متقابلة المعاني[١].

ويؤكد الدكتور صلاح رزق هو الآخر على وجود النقائض في الشعر الجاهلي ويرى أنها فن قديم قِدم الفخر والهجاء في الشعر العربي، وقِدم المنافسات القبلية والمنازعات العصيبة التي سادت الحياة العربية قبل الإسلام بسنين طويلة[٢] تلك هي أبرز الآراء التي قيلت عن النقائض ونشأتها[٣].

ولعل الرأيين الأخيرين هما الأقرب للصواب - من وجهة نظرنا - إذ أقرا بوجود فن النقائض في الشعر الجاهلي، وضربا أمثلة لذلك كُلٌّ حسب اجتهاده، ولكننا لا نتفق معهما في بعض ما ذهبا إليه، لأن النقائض الجاهلية لم تكن وقفًا على فني الهجاء والفخر، كما أنها لم تكن ساذجة ناقصة الأركان، وهذا يعود إلى نشأتها مع الشعر الجاهلي، ونحن لم نعثر على شعر جاهلي في مرحلة الطفولة إذ وصل إلينا شابًا يافعًا وكذلك النقائض، وإن كانت طبيعة الأشياء تحتم مرورها بمرحلة الطفولة، فهذه المرحلة لم تصل إلينا شأنها في ذلك شأن الشعر الجاهلي.

---

(١) انظر: تاريخ النقائض - أحمد الشايب - ص٤٤،٤٥،٥٢.

(٢) انظر: الأدب الأموي - د. صلاح رزق - مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٩٦.

(٣) هناك كتب أخرى أشارت إلى ذلك انظر على سبيل المثال:

- في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبدالقادر القط - دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩م، ص٣٥٨-٣٦١.
- تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٢٥، (د.ت) ص١٢٤-١٢٥.
- نقائض جرير والفرزدق، دراسة أدبية تاريخية - مطبعة دار المعرفة، بغداد، ط١، ١٩٥٤م، (١/٢٠٠ ومابعدها).

الفصل الأول

عرض وتحليل النقائض



١- النقائض قبل حرب البسوس:

لم تكُن الحربُ ميدانًا للقتال فحسب، بل كانت سببًا مُباشرًا لظهور فن النقائض الذي نما وترعرع في أجواء المعارك، فقبل كل حرب أو بعدها تكون المناقضة تهديدًا ووعيدًا أو فخرًا.

ويُعد أول ظهور لفن النقائض في الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا ما واكب الحروب التي اندلعت بين اليمنيين من جهة وبكر وتغلب من جهة أخرى لأنّ هذه الحروب كانت قبل حرب البسوس التي اندلعت في نهاية القرن الخامس الميلادي.

ويوم «أُراط»[1] هو أوّل هذه الأيام، وقد استمرت فيه الحربُ سبعة أيام تباعًا حتى كَثُر القتل بين الفريقين، ولما كان اليوم السابع انهزم اليمنيون أمام بكر وتغلب، وولوا الأدبار، وعندما بلغت أخبارُ الهزيمة التُّبع اليماني قال مهددًا[2]:

يـاذ الكـلامِ كـأنّني مَـوْرُود	مـن دار حِمْـير فالفـؤاد عمـيـدُ
نـادى معـاهـد مـن أبيتَ قعـود	اقـذاء عينـك عـادها أم عـودُ
منعَ الرُّقـادُ فما أغمـض سـاعـة	نبـط بيثـرب آمنـين قعـودُ
نبـط أسارى مـا ينـامُ سميرُهـم	لابـد أن يُسْليهـمُ مـورودُ
لا تَسْقنـى بيديـك إن لم تلقهـا	صـررا كـأن أسـافهـا مجـرودُ
بسيوف حمـير والمقـاول وسطهـا	والخيـل تبدو سـاعـة وتعـودُ
فـلأ خضبـنّ سبالهـم بدماهـم	ولتعفـرن معـاطـسُ وخـدودُ

(١) ويُقالُ: يوم أُراطَى، بألف مقصورة، وهو من أيام العرب، وأُراط: ماء على ستة أميال من الهاشمية، شرق الخُزَيمية من طريق الحاج. معجم البلدان «أراط» (١/١٣٤).

(٢) الشعر وأخبار هذا اليوم في كتاب بكر وتغلب، ص٢٠، وما بعدها، والأبيات على وزن (الكامل).

ولقــد نزلْــت على هَـوَانٍ حقيبـةَ   أسـرى أقُــاتــلُ ســاعــةَ وأذودُ
ولقـــد شــددتُ على يمامــة شــدةً   ذلَّـتْ وهـدَّتْ حصنهــا المشـــدود
ولقــد حطــمتُ حُصونَ سيب بعسكرٍ   وعلـى حصــونهــم قــنٌ وليــود

ولعلنا نلحظُ هنا أنّ التُّبع قد فخر بقومه «حمير» وبقوتهم وبأسهم في القتال ثم هدَّد بهلاك بكر وتغلب.

ويأتي رد كليب مستخدمًا البداية التي استخدمها التّبع «ياذا الكلام».

وإذا كان التبع قد فخر بقومه «حمير» فإن كليبًا هو الآخر يضع جدوده من بكر وتغلب في المقابل، ويرد على فخره بالقوة بفخر مماثل، ويرد على تهديده بتهديد مماثل أيضًا، فهو سينازل التُّبعَ وقومَه برجال أشداء من بكر وتغلب، ومن ثم تكون النقيضة هنا قد استوفت شروطها، يقول كليب في رده[1]:

ياذا الكــلام نسـيتَ عقــد جـدودي   فَلِمَ أنفـتَ وأنــتَ غــير حمــيد[2]
لم أسـر بالغمــرات ان لم ألقـــكــم   شهــباء مثل صرائــم الأخــدود[3]
حتـــى أنــازل تُبَّعًا بكتيـــبـــةٍ   شـهبـاء ليــس ورودهـــا كـورودي
فرجـالُ تغلــب والأراقـم وسـطهـــا   والخيـل بين مجــنــب ومقـــود[4]
ورجـــالُ بكــرٍ مُلْجمــون خيولهــم   مــا بــين قِــرْمٍ ســيد ومســود[5]

فلما بلغ هذا الشعر التُّبع أمر بتجهيز الجيوش لتأديب كليب وقومه، والتقى

(١) الشعر في كتاب بكر وتغلب، ص٢٢،٢٣، والأبيات على وزن (الكامل).
(٢) عقد: عهد، أنفت: أبيت.
(٣) الغمرات: مفردها غمرة، والغمرة: جماعة الناس، وشهباء: قوية شديدة، وصرائم: جمع صريمة، والصريمةُ من الرمل قطعة ضخمة تنصرم من سائر الرمال، والأخدود: شق في الأرض مستطيل.
(٤) الأراقم: حيٌّ من تغلب، ومجنب: مُقاد إلى الجنب، ومقود: مسحوب من الأمام.
(٥) القِرْمُ من الرجال: السيد العظيم.

الجمعان في ثنية الجبلين[1]. وانتصرَ كُلَيبُ وقومُه على اليمنيين، وأُسِر النَّمر بن عثمان سيد اليمن مع نسوة له، أسره كليبُ بن ربيعة، وعندما علم التُّبع بأخبار الهزيمة قال[2]:

إنَّ بيتــي الــذي بنـــى إلى قحطـان ... طـويـــلُ العمـــاد وصعـــبُ المراقى
هــو سهـــلٌ عليَّ حـــزنٌ لغـــيرى ... مستظـــل منطـــق بنطـــاق
ليـس شـيئ يرومـه ولـــه بـــا ... ب مــن العـــز مـرصـــد بالوثـــاق
كـــلُّ مَـــنْ رام فتحــــه أو رآه ... خـرجـتْ نفسُـــه مــن الإشفـــاق
ودونـــه عسكر تضـــيق بـــه الأرض ... عظـيـــــمٌ مـــــروقُ بـــــرواق
ذاكَ بيتـــى وأيّ بيـــتٍ كبيتـــي ... أو مـذاق في الطعــم مثـــل مـــذاق
ســارَ شُمَّـر إلى الأقاصـــر من الأرض ... بخـيـــلٍ تقـــــاده في الآفـــاق
لســت بالتُّبـــع اليمـانـــي إن لـم ... تصبحِ الخيـلُ في ســواد العـــراق[3]
وعليهـــا شـــبابُ صـدقٍ كـــرام ... يحسنون الطِّعـان يـــوم التـــلاق
إنمــا النَّمـــرُ خـــيرنا وهـــو منّـــا ... إنّ فقـد الكــرام في القلـــب بـاق
ســرقُـــوه منّــا وآبــاؤه الشـــمّ ... فعـنـدى عقـــوبـــة الســراقـــى
ســوف أرميهـــم بشعـــثٍ ومـــرد ... فـوق جُـرد مســـومـــات عتـــاق
فـإذا ما الحـروب شابَـتْ فكانَـتْ ... مهجـات النفــوس عـنـد التراقـــى
واســـتدارتْ وأظلمَـــتْ وتظلـت ... لمتـاح وقلّصـــتْ عـــن ســاقـــى
ألقحــوا نارهــا وشـبوا لظـاهـــا ... بـرمـاحِ مســـنونــة الأرواقـــى

---

(١) الجَبَلان: تثنية الجبل، وإذا أُطلق هذا اللفظ فإنَّما يُراد به جبلا طيِّيء: أجأٌ وسَلْمَى. انظر: معجم البلدان «جبلان» (١٠٢/٢) وبلاد العرب للحسن بن عبدالله الأصفهاني بتحقيق حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٥٨.

(٢) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص٢٢،٢٣ والأبيات على وزن (الخفيف).

(٣) سواد العراق: المقصود بها ديار بكر وتغلب وهي الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات.

ليس حيّ مفاخرا لرجالي أو مُجار لهم غداة السباق
وسبأ في ملوكِ قحطان إلا عاشَ ما عاشَ في أشد وثاقي

ونلاحظ هنا أن التبع يفخر بقحطان، جد اليمنيين، ثم يشمل قوله عدة أمور هي:

- الفخر بالمُلك، وقوته الكبيرة، واعتبار أسر النّمر بن عثمان سرقة، وهو كونه الملك سوف يعاقب اللصوص الذين سرقوه، ونتيجة لذلك سيدهمهم في عُقر دارهم، سواد العراق بفرسانه الأبطال.

أما ردُّ كليب فكان عملًا وقولًا، فإذا كان أَسْر النّمر بن قاسط قد أغضبَ التُّبع واعتبر مَنْ أسروه لصوصًا فقد قتله كليب على الفور واشتمل رد كليب نقض المعاني التي عدَّدها التبع، فإذا كان التبع يعتبر أسر النمر عملية سرقة فهذا جهل منه لأن الأمر لم يقف عند الأسر بل تعداه إلى القتل، أما ملكه وقوته، فهم يملكون قوة أقوى منه وقادرون على سلب الملك عنه، أما التهديد بغزوه سواد العراق فهذا أمر لا قبل له به. يقول كليب:

غضبَ التُّبعُ اليماني جهلاً إذ ثوى النَّمرُ عندنا في الوثاقِ
بُرهةً ثمَّ صارَ بعد قتيلاً ليسَ حيٌّ على المنون بباقِ
وضربْنَا مفارقَ الرأسِ منهُ بحسامٍ يهوي إلى الأعناق
أيُّها المُوعِدُ الذي ليس يُخشَى قد نهيناكَ عن سوادِ العراقِ
أبلغ التبعَ اليماني أنَّا فوقَ جُرْدٍ مسومات عتاق
نضربُ الهامَ بالمهنَّدِ ضربًا وسنومَ العدا وطول السياق
رُبَّ ملكٍ مُتوَّجٍ قدْ قتلنا كان ذا عزةٍ عظيم الرواق
فسلبناه مُلكَهُ واستبحنا مُلكَهُ لا يقيه مِنْ ذاكَ واق

وقد أدى ذلك إلى اشتعال الموقف بين القائدين (التبع وكليب) ومن ثم أراد التبع القضاء نهائيًا على قبائل نزار الشمالية، وفي الوقت نفسه أحست قبائل نزار بالخطر المحدق بها، فالتفت كُلُّها حول راية كُليب، والتقى الجمعان في «خزازى»[1] في معركة فاصلة، انتصرت فيها قبائلُ نزار على اليمنيين، إذ كثر فيهم القتلى والهلاك وأصاب أكابر اليمن وسادة الحيين، وشَدَّ كُليب بتغلب على حِمْير وقد صابرَتْ على الموت وكثُر القتلُ فيها، وأَسرَ كُليبٌ سبعةً من أقيالها[2].

وكان الأفوه الأودى أحد قادة هذه الحرب، فلما عاد سألته ابنتُه عن إخوتها فأخبرها بمقتلهم جميعًا، وسألته عن الملوك فأخبرها بقتلهم أيضًا، ثم سألته عن الأقيال من حِمْير فأجاب بأنهم وقعُوا أسرى في يد كُليب بن ربيعة وقد عبَّر عن ذلك شعرًا بقوله[3]:

لمَّا رأتْ بشرى تغـيَّر لونُهـا	**ومن بعد بهجتِه فأقبلَ أحمرا**
ألوتْ بإصبعها وقالَتْ إنَّما	**يكفيكَ ممَّا قد أرى ما قدَّرا**
إنِّى ذؤابةُ مَذْحج وسنامُهَا	**وأنَا الكريمُ ذرى القديمة كررا**
قُولى لِمَذْحِج عاوِدُوا لدخولكم	**لَوْلا يُجيبُوا دعوتى حَلب الصَّرا**[4]

(١) خزَازُ، بفتح أوله، وبزاى أخرى بعد الألف على وزن فَعَال، جبل لغنيّ، وهو جبلٌ أحمر وله هضبات حُمْر، وفي أصل خزاز ماءٌ لغنيّ في ناحية مَنْعج، دون أَمْرة، وفوق عاقل على يسار طريق البصرة إلى المدينة، وقد ذكره عمرو بن كلثوم في قوله:

ونحنُ غداةَ أُوقِدَ في خَزَازٍ ... رَفَدْنَا فوق رَفْدِ الرَّافِدينا

معجم مااستعجم «خزاز» (٢/٤٩٦).

(٢) القَيْلُ: الملك من ملوك حِمْير يَتَقَيَّلُ مَنْ قَبْله من مُلوكهم يُشْبهه، وجمعه أَقْيال وقُيُول. وقال ثعلب: الأَقْيَال الملوكُ من غير أن يخصَّ بها ملوك حِمْير. اللسان «قيل» (١١/٣٧٦).

(٣) الخبر والشعر في بكر وتغلب ص٢٧، والأبيات على وزن البحر (الكامل).

(٤) مَذْحج: ولدُ مالك بن أُدد، وهو مَذْحِج. الاشتقاق لابن دريد تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجى، القاهرة (د.ت) ص٣٩٧.

كـان الفخـار يمـانيًا مُتقحطــنا وأراه أصبـح شـامـيًّا مُتـــنزِّرا

ولعلنا نلحظ أن الشاعر قد فخر بنفسه، فهو من ذُؤابة «مَذحِج» وسنامها، لكنه يعترف بالهزيمة التي بدت على ملامحه أمام ابنته واعترف الشاعر بأن الفخر لم يعد يمانيًا قحطانيًا بل أصبح شاميًّا نزاريًّا هذا هو المعنى الظاهر من المقطعة، ومن ثم فهى ليست في حاجة إلى الرد من أحد، فالشاعر لم يفتخر بقومه وقوتهم - كما هو سائد - كما أنه اعترف بذهاب الفخار عن قومه إلى أعدائهم. وبالنظر إلى الأبيات نلمحُ إثارة الشاعر لحمية قومه عندما يلومُهم على الهزيمة لعلهم يلتفون حوله، فقد كان الأفوه يرومُ الرياسة والغزو بقومه لقبائل نزار وهذا ما جعل مرة بن ذُهْل سيد بني شيبان آنذاك يرد عليه، ليؤكد له الهزيمة التي اعترف الأفوه بها. ويذكرُ حال اليمنيين في وقعة «خزاز» فهم بين قتيل وأسير وأنهم لو عادوا مرةً أخرى إلى القتال فلن يكون حظُّهم أفضلَ من هذه الهزيمة، يقول مرةُ بن ذُهْل في رده[1]:

شفتِ النفوسَ سيوفُنا مــن مَذْحِجٍ والحــيّ همـــدان وذُروة حميــرَا

فالقــومُ بــين مـجـدَّلٍ ومصفَّـــدٍ بالقــدّ يختــارُ الثَّــواري بالـثـرَا

فغضْبتكـم لـمـا قتلـنَا جمعَــكُـم وإذا قتلْتُـم غـيرَكم فيـــه الـزرا

مـا انصفــتْ أحكامُكـم فاستنصفَتْ منهـا الأسـنةُ والسيـــوفُ بـلا افترا

فردُّ مُرَّة بن ذُهل إذن جاء تأكيـدا لقول الأفوه الأودى وليس ناقضًا له في المعنى الظاهر، لكن بالتأمل في المقطعتين لكلا الشاعرين نجد المناقضة مستترة، فالأول - الأفوه - يريد إثارة الحمية في قومه لمعاودة القتال والثأر، والآخر - مُرةُ بن ذُهْل - يؤكد أن ذلك أمر مُحال.

ومن النقائض الفريدة في هذه الحقبة نقيضة بين قاتلٍ ومقتول، فالقاتلُ

(١) انظر: بكر وتغلب ص٢٧، والشعر على وزن البحر (الكامل).

ينقضُ ما قاله القتيل قُبيل موته، وذلك نراه عند لبيد بن عنبسة زوج الزهراء أخت كليب بن ربيعة، إذ لطمَهَا وأهانها فقصَّت ذلك على أخيها كليب، فأمرها بالعودة إلى بيتها، وبينما هو خارج خباء لبيد بن عنبسة سمعه يقول[1]:

طَـالَ لَيْـلي فمـا أحـسُّ الهجُوعَا ... أرغـب النَّجـمُ في المغـاب عمـيدًا

لحديـثٍ مـراوحٍ قـد أتـانـي ... من كُليـبٍ فـزاد عينـي سُهُـودًا

نحنُ كُنّا الملوك من سـالف الـدهـ ... ـر وكُنتُـم لنـا قـديمًا عبيـدًا

فاقْبل اليوم ما أتـاك بـه القَيْـلُ ... وألا تهـلكـوا هـلاكَ ثَمُـودًا

فلما سمع كليبٌ هذا الشعر هتك على لبيدٍ قُبَّته وقتلَه، ومن ثمَّ نجد ردّ كليب كان فعلاً بقتله لبيد لأن العبيد لا يقتلون الملوك وإنما يقتلهم الأحرارُ، وقولاً برده عليه فخره بالملك، فهم ملوكٌ أيضًا بسيوفهم وقوتهم:

إنْ يَكُـنْ قَتْلُنـا المُلـوكَ خَطَـاءً ... أو صَـوَابًا فَقَـدْ قَتَلْنَـا لَبيـدَا

وجَعلْنـا مـع الملـوك مُلُـوكًا ... بجيَـادٍ حُـرْدٍ تُقِـلُّ الحديـدا

نُشْعِرُ الحربَ بالـذي يحلـفُ النَّـا ... سُ بـه قومكـم وَنُذَكِّـي الوقـودا

أو تـردُّوا لنـا الإتـاوةَ والفيحـاءَ ... ولا نجعـل الحـروب وعـيدا

إن تَلُمْـنـي عجـائـزٌ مـن نـزارٍ ... فأرانـي فيمـا فَعلْـتُ مُجيـدا

---

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص١٦ وهي على وزن البحر (الخفيف)، وورد كليب أيضًا في شعراء النصرانية (١٥٢/٢).

٢- النقائض قُبيل مقتل كليب ٤٩٤م[١]:

ونقصد بها النقائض التي قِيلَتْ قُبيل مقتل كليب، وكلها كانت بين كليب بن ربيعة وجسّاس بن مُرة عدا واحدة كانت بين المهلهل عدى بن ربيعة وأخيه كليب.

وتبدأ النقائض مع بروز الفتنة بين بكر وتغلب وإن شئت بين كُلَيْب بن ربيعة الملك وصهره جسّاس بن مرة بسبب ناقة البسوس بنت مُنْقذ التميميّة، خالة جساس، إذ نزلَتْ ضيفةً عليه وفي جواره ومعها ناقتها «سراب» التي أطلقتها للرعي مع إبل جساس، وكانت إبل جساس مختلطةً بإبل زوج أخته الجليلة بنت مرة، كُليب بن ربيعة، وخرج كليب ومعه جساس يوماً يتفقدان الإبل، فرأى كليبُ ناقةَ البسوس فأنكرها وقال لجساس: لا تعد هذه الناقة إلى هذا الحِمَى، فقال جساس: لا ترعى إبلي مرعىً إلا وهذه معها. فقال كليب: لئن عادت لأضعنّ سهمي في ضرعها! فقال جساس: لئن وضعتَ سهمَك في ضرعها لأضعنّ سنان رُمحي في صُلبك ثم تفرقا[٢].

وقد آثرنا ذكر هذه المقدمة النثرية لأنها - إن جاز لنا التعبير - نقيضة نثرية[٣] دارت بين كُلَيبٍ وجساس قبل النقائض الشعرية بينهما، فكليب يأمر بأن الناقة لا تعود إلى الحمى ثانيةً، وجساس يرد قوله بتصميمه على عودتها، فيُصعّد كليبٌ من الموقف ويعلن أنه سيضعُ سهمه في ضرع الناقة حال عودتها إلى الحِمى، فيقابل جساسٌ هذا التصعيد بتصعيد أشد بأن الناقة في هذه الحالة تصبحُ مُعادلةً

---

(١) حدّد الأب لويس شيخو سنة مقتل كليب بأنها سنة ٤٩٤م، وهذا التاريخ وإن كان غير دقيق إلا أن مقتله لا يسبق ذلك أو يتأخر عليه كثيراً. انظر: شعر النصرانية (١٥١/٢).

(٢) شعراء النصرانية (١٥٤/٢) وأخبار المراقسة ص٢٧٠.

(٣) انظر: تاريخ النقائض ص٤٥.

لكليب نفسه، فإن أصابها كليبٌ بالسهم فسوف يدق جَسَّاسٌ صُلبَه بالرمح.

وهنا ينتقل كليبٌ إلى التهديد بالشعر في أربع مقطعات كلها من بحر الرجز، وجساس يرد عليه في أربع مقطعات مماثلة من بحر الرجز أيضاً[1]، وكلما استخدم كليب قافية يعينها رد عليه جساس بالقافية نفسها، وأولى هذه المقطعات هي قول كليب!.

إنِّــى وربِّ القــمــرِ المنِــيــرِ
والحجــرِ الأســودِ ذى السّــتــورِ
لَئــنْ رعَــتْ في البلــد المحجُــورِ
وأفزعَــتْ جَــارى مــن الطيــورِ
نــائيــة في وكــرهَــا المخــدُورِ
لأهتكــنّ الضَّــرعَ بالمطــرُورِ

فكليب يقسم بأنَّ الناقةَ لو عادَتْ لتفزعَ الطيورَ التي في جواره ليقتلنها، وهنا يرد عليه جساسٌ بقسم مماثل وبتهديدٍ مُماثلٍ يقول جساس[2]:

إنِّــي وربِّ الشَّــاعِــرِ الغَــرُورِ
وبــاعــثِ الموتَــى مِــن القُبُــورِ
وعالــمِ المكنــونِ فــي الضَّمِــيرِ
إنْ رُمْــتَ مِنْــهَا مَعْــقَرَ الجَــزُورِ
لأثــبــنّ وَثْــبَــةَ المُغــيــرِ
الذّيــبِ أو ذِي اللّبــدةِ الهَصُــورِ
بصَــارِمٍ ذِي فَــنَــنٍ مَشْهُــورِ

(١) انظر هذه المقطعات في: كتاب بكر وتغلب ص٣٢،٣١.

(٢) بكر وتغلب ص٣٢،٣١، وشعراء النصرانية (٢٤٩/٣).

وهذا التهديدُ من جساسٍ لا يُمكن لملك العرب كُليب بن ربيعة أن يقبلَه، فهو الذي اجتمعَتْ نزارٌ كُلُّها عليه، وولوه المُلْكَ، وأصبح يُضْربُ به المثل في العزّ والكبرياء[١] ومن ثم نجدُه يردُّ عليه بقوة وحسمٍ، فهو الذي يحمي الناس جميعاً ويجيرهم من الفردين حتى أقساس، وكل الناس تدين له بالولاء والطاعة، فهل يُحيطُ بجساس أسدٌ هصورٌ وهو لا يعرف:

لقــد حَمَيْــتُ من جميــع النَّــاس
مــن بيــن أَفْــراد إلى أَقْسَــاسِ[٢]
أمنعُــه فكيــفَ مــنَ جسَّــاس
يُحيطُــه الليّــثُ أبــى الفــراسِ
جَهْــمُ المُحَــيَّا سابــكُ الأضــراسِ
قَصَــاقــص أهبــطُ فــي المــراسِ

وإذا كان كُليبٌ يعتزُّ في قوله بقوته، فإن جساسًا يقلب عليه المعنى، لأن هذه القوة التي يتشدقُ بها كليب إنّما استمدها من قبيلة بكر قوم جساس دون غيرهم من الناس فلا يحق له الفخر بهذه القوة، فهي للجميع وليست له:

بنَــا حَمَيْــتَ جَانبَــيْ أقســاس
إلــى أبَــانَــيْنِ إلــى أوْطَــاسِ
بِحَــيٍّ بكــرٍ دُونَ بــاقــي النَّــاسِ
فَــإنْ تَعُــدْ بنــا إلى المِــراسِ
عَلِمْــتَ أنَّ العــزَّ فــوق الــرَّاسِ

---

(١) المثل جاء في مجمع الأمثال للميداني (٢/٥٠) وهو: أعزُّ من كُلَيْبِ وائلٍ، وتفصيله هناك انظر: وكذلك في المستقصى (١/٢٤٦).

(٢) أَفْرَادَ: جبال في ديار بني سُليم بالحجاز. معجم البلدان «الفرد» (٤/٢٤٧)، وأَقْسَاسٌ: قرية بالكوفة، معجم البلدان «أقساس» (١/٢٣٦).

وهنا يُعلنُ كليبٌ أنّ وقتَ الكلام قد انتهى، وكثرة الأقوال تدل على الخطل، الذي لا يجب أن يتصف به، فبالعمل وحده يُكْتَبُ العزُّ والشرف:

إنّ الكـــلامَ فشـــل دُون العمـــل
وَشَرُّ سَـهمٍ طـارَ في الكهـفِ الفشل
والشيئ ما أضمَـنه مـا لم أقـل
وشـر ما قـال امـــرؤ ما لم ينـل
وكثـرةُ الأقـوال في النـاس خطـل

ويأخذ جَسَّاسٌ منه المعنى وينقضه عليه، فهو الذي إذا قال فعل وليس غيره، ويريد جساس أن يؤكد أن صفات العزم والشدة وقوة البأس التي يُعلنها كليبٌ هي صفاته هو وكأن كليبًا يتحدث عن صفات جساس وخصاله، لذا نجده يستخدم قولَ كُليبٍ في الرد عليه «وشر ما قال امرؤ ما لم ينل»:

فبلغ جساس قوله فأجابه:

أنَـا الـذي فاعلم إذا قـالَ فَعـل
وثمّ حـي يثبـتُ القـولُ العمـل
لـو لم يكُـنْ قَـوْلي وفعلي لم أقُـلْ
وشـرّ ما قـالَ امـرؤ ما لم ينـل

ويسفّه كليبٌ كلامَ جساسٍ، فهو من سقط الكلام، وأن همّته أقل من قوله، لأنّ الناس لا تعرف إلا الحقائق التي تشهدها، وليس لجساسٍ سابق فضل في نزال أو قتال:

قـد قـال والقـول هـذار زاهـق
إلا الـذي كـانتْ لـه حقـائـق

ويقلبُ عليه جساسٌ المعنى، ففي ساحة القتال عندما يشتد وطيسُ المعارك يُعرفُ الكاذبُ من الصادق وتظهر الحقائقُ جليةً للناس:

عند الزّحام يُحمدُ السوابق
وفي الوعيد تُعرفُ الحقائق
والنّاس بين كاذبٍ وصادق

ويستمرُّ كليبٌ في تهديد جساس، مُعتبراً القوة هي الرادع الوحيد له، فلابد أن يحافظ على المجد والسؤدد، وأن الممالكَ تنهارُ عندما تخالف الرعيةُ ملوكَها بسفهٍ وصلفٍ مثل جساس، ومن ثم فلابد من الضرب بيد من حديد، يقول[١]:

سأركبُ قطفًا لِلْقرينِ بمَا أتى واقطعُ عَنْه قُطبَهَا فأذودُها
مخافةَ قولى إن أخالف فِعْلَه وسنّة عِزٍّ أن يميلَ عمودُها
إذا مَا الموالى خالفتْ من سَفاهةٍ مواليها تاهَتْ وضلّ حدودُها

ويردُّ جساسٌ على كُليبٍ، وينقضُ قوله، فهو يعترفُ بعزِّ كُليب وقوته ومنعته، لكن كل هذه المفاخر إنّما وصل إليها بمساندة بني بكر قوم جساس، ويؤكد جساس على جهل كليب بطبيعة بني بكر لأن الحلم والجود والعدل أنفع له من القوة الغاشمة، يقول جساس:

بَنى لكَ أقْصى العزِّ حتّى تشرَّفتْ بيوتُكَ فيه واشمْخرَّتْ عمودُهَا
فأصبحْتَ ترميهَا بنبلٍ بنا اسْتَوى مَغَارِسهَا فينَا وَجَدٌّ جديدُهَا
تجرَّدْتَ من جهْلٍ لبكرٍ وإنّما أَحْللْتَ في دارِ الموالى جُدُودَهَا
عَلى غيْر ما سُوءٍ سوى أن تظنّه فيأتيكَ فيها أيّدٌ لا يَؤُدُهَا
فإنّ تبَاعَ الجُودِ يعقُبُ راحةً بترحَةِ يومٍ لَيسَ يَنْجُو مُريدُهَا

وعندما وصلتْ الأمورُ إلى هذا الحد بين جسّاسٍ وكُليب، وأصبحَتْ المواجهةُ

---

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص٣٣، والأبيات من البحر الطويل.

أمرًا حتميًّا، نجدُ المهلهلَ، أخا كليب، يحاول تضييق الشّق بين الطرفين، فهو يذكّرُ أخاه بقرابته بجساس بن مرة، فهو من أبناء عمومته وأحد رعاياه، والدخول معه في هذه التنزهات وتطوراتها - حتى لو انتصرَ كُليبٌ - لا تُعدُّ انتصارًا لأن ذلك ليس من حميد السجايا وكرم الخلق الذي عرفته العرب وتغنَّتْ به، كما أن قطعَ الرحم بين أبناء العمومة أمرٌ خطيرٌ في بيئةٍ بُنِيَتْ على التَّعصب القبلي، ويحذرُ المهلهلُ أخاه من أنه إذا ظل على بغيه وتسلطه وقطع رحمه فإن ذلك سيوجب عليه اللّوم حتَّى آخر الدهر، ومن ثم يجب أن يكظمَ غيظَه ويؤخر الشر بينه وبين صهره وابن عمه ولكن كليبًا غضبَ من أخيه وقال له: إنما أنت زير النساء، والله لَئِنْ قُتلْتُ ما أخذتَ بدمي إلاّ اللبن، فقال المهلهل[(١)]:

أخٌ وحـريـمٌ سـيّءٌ إنْ قَطَعْـتَهُ ... وسُـنَّةُ عِزٍّ هَـدْمُهَـا لَـكَ هَـادِمُ
وقفتَ على ثِنْتَـيْنِ إحـداهُمَـا دَمٌ ... وَحَـربٌ بهَا مِـنّا تجـرُّ الغَلاَصِمُ
وَمَنْقَصـةٌ فـي هـذهِ ومـذلَّـةٌ ... وشَـرٌّ شِـمِرٌ بَيْنَكُـم مُتَفَـاقِـمُ
فَمَـا أنْـتَ إلاّ بـينَ هاتين غائِـصٌ ... وَكِلْتَـاهُمَـا بَحْـرٌ وذُو الغـيّ نَـادِمُ
وكُـلُّ حَميـمٍ أو أخٍ ذي قـرابَـةٍ ... لكَ اليومَ حتَّى آخـرِ الدَّهْـرِ لائـمُ
فـأخِّـرْ فإنّ الشـرّ يَحْسُـنُ آخِـرًا ... وقَـدِّمْ فـإنّ الحرّ للغيـظِ كَاظِـمُ

ويأتي ردُّ كليبٍ ناقضًا لمعنى الحلم وكظمِ الغيظ ومراعاة صلة القربى وكل ما طلبه منه أخوه، فهو ماضٍ فيما عزم عليه حتى لو شابَتْ الرؤوسُ وذلكَ حتى لا يهدم جساس بتجرؤه عليه عزَّه الذي بناه:

سَـأَمْضِـي لَهُ قِدمًا ولـو شابَ في الذي ... أهـمُّ بهِ فيما صَنَعْـتُ المـقَـادِمُ
مَخَافَـةَ قَـوْلٍ أنْ يُخَالِـفَ فِعْلُـهُ ... وأنْ يَـهْـدِمَ العِزَّ المُشَـيَّـدَ هَـادِمُ

(١) الأبيات والرد عليها في شعراء النصرانية (٢/١٦١)، وهي على وزن البحر الطويل.

٣- النقائض في مقتل كليب وحرب البسوس:

منذ اليوم الأوّل لمقتل كليب، نلمح النقائض فى شعر الفريقين المتقابلين، بكر وتغلب، أو بين شاعرين من هذا الفريق أو ذاك، فبعد أن طعنَ جساسٌ كليبًا وعاد إلى الحمى مذعورًا، وسأله أبوه مُرَّةُ: ما وراءك يا بُني؟ قال: طَعَنْتُ طعنةً لتشغلنَّ شيوخ وائل رقصًا. قال: أقتلتَ كُليبًا. قال: إي وأنصاب وائل وأيَّ قتلٍ. قال: إذن نسلمكَ بجريرتك، ونريق دمكَ فى صلاح العشيرة، فلا أنا منكَ ولا أنت منّى. فوالله لبئس ما فعلْتَ - فرَّقْتَ جماعتك، وقتلت سيدها ورئيسها فى شارفٍ من الإبل، والله لا تجتمع وائلٌ بعدها أبدًا ولا يقوم لها عماد فى العرب[١] وهنا يُخاطبُ جساسٌ أباه، ويطلبُ منه المؤازرة والحماية ولا يليق به أن يتخلّى عن ابنه، مهما كانت الأسبابُ وعليه الاستعداد للمعركة القادمة فليس هذا وقتُ اللّوم والعتاب، فالمعركة قادمة لا محالة وسوف تكون حامية الوطيس، ثم يبرر جساس فِعْلته، فهى رد فعل لبغي كليب وظلمه، وأنَّ قَتْلَه جزاءٌ طبيعيٌّ لما قدمَتْ يداه[٢]:

تَأَهَّــبْ عنــك أُهبــةَ ذى كفــاحِ ... فــإنَّ الأمــرَ جَــلَّ عن التَّلاحِ
فإنِّـــي قَدْ جنيْـــتُ عليــكَ حربًا ... يَغــصُّ الشيــخُ بالماء القَــراحِ
تَســعَّرُ نارُهَـــا وهجاً وجــاءَتْ ... إذا خَمــدَتْ كنــيرانِ الفِصَــاحِ
وَمَـــا تنفــكُّ نــائحــةٌ تُعَــزَّى ... لمـا نــدبَــتْ وتعلــنُ بالنــواحِ
تعــدَّتْ تغلـــبُ ظُلْــمًا علينَـــا ... بـــلا جُـــرْمٍ يُغــدُّ ولا جُنــاحِ
ســوى كَلْــبٍ عوى فى بطـــنِ قــاعٍ ... ليمنـــعَ جَمْيَــةَ القــاعِ المُبَـــاحِ

(١) انظر: شعراء النصرانية (٢/١٥٥).

(٢) السابق (٣/٢٤٧) وبكر وتغلب ص٣٨،٣٩.

فلمَّـــا أنْ رأيْـــنـا واسْتَـــبِنَّـــا عُقـــاب البغـــي رافعـــة الجنـــاح
صرفْـــتُ إليـــه نحسًا يـــوم سُـــوءٍ لـــه كـــأسٌ مـــن المـــوتِ الذُّبـــاح
تُثْكِـــلُ دانيـــــاتُ البغْـــي قَـــومًا وتـــدعُـــــو آخـــرين إلى الصَّـــلاح
ذَرينـــى قد طَرِبْـــتُ وحـــانَ منِّـــي طِـــرادُ الخيـــلِ عارضَـــةَ الرِّمـــاح
ولا لـــى همَّـــةٌ أرجُـــو حسَـــاهَـــا ســـوى الخَطِّـــيِّ والفـــرسِ الوقـــاح

ويتدخل قادة البكريين ويطلبون من مُرَّة التوقف عن هذا الكلام، لأن بنى بكر عندما يسمعون ذلك سيخذلون جساسًا وأباه معًا، فأدرك مُرَّةُ ما هو فيه من مأزق، فأمسك عن الكلام وغمسَ يدَه مع ابنه فى الحرب، وأخذ يردُّ على شعر جساس السابق الذي يؤكد فيه أنه جنى على أبيه هذه الحرب وأبوه مرة يعترف بذلك فى رده، ويؤكد أنه ليس بالجبان الذى يفر من الحرب ولا يحمى ولده، فهو رجل حرب شديد البأس، وأن عليهم أن يعيشوا أعزةً أو يموتوا، فحياة الذُّلِ قد ولَّتْ عنهم إلى غير رجعة:

فـــإنْ تـــكُ يا بُنـــيَّ جنيْـــتَ حرباً فـــلاَ وكِـــلٌ ولارثُّ السِّـــلاح
ولكنِّـــي علـــى العِـــلَّات أجـــرِى إلى المـــوتِ المحيـــطِ مـــع الصَّبـــاحِ
وإنِّـــى حـــينَ تَشْتَـــجِرُ العَـــوَالى أُعـــيدُ الـــرُّمـــحَ فى أثْـــرِ الجِـــراحِ
شديـــدُ البـــأسِ ليـــس بذِي عيـــاء ولكنّـــى أبُـــــوءُ إلـــى الفـــلاحِ
ســـألبَـــسُ ثوبهـــا وأذُبُّ عنْـــهَـــا بأَطْـــرافِ العَـــوَالـــى والصِّفَـــاحِ
فـــمـــا يبقـــى لِعـــزَّتِـــه ذليـــلٌ فيمنعُـــــهُ مـــن القـــدرِ المُتـــاحِ
وأنْفَـــى الـــذُّلِّ عن قـــوم يقولُـــوا طَحَـــا نـــونُ المنيَّـــةِ فى الطَّـــواحِ
وأَجْـــزى من حـــياة الـــذُّلِّ مـــوتٌ وبعـــضُ العـــارِ ما يمحُـــوه مـــاحِ

ولعلنا نلحظ هنا أن المقطعتين السابقتين تشتركان فى البحر العروضي والقافية

لكن الظاهر من رد مرة لا ينقضُ قول جساس بل يؤكده، ولعل الموقف هنا هو الذى اقتضى ذلك، لأن مُرة لو نقضَ مقولة ابنه لانفض البكريون من حولهما وتركوهما نهبًا لسيوف تغْلب، أو ربما - وهو الأرجح عندى - أن مرة ينقض معنى خفيًّا ورد فى شعر جساس، وهو خوف مُرة من الحرب ولقاء تغْلب، صحيح أن جساسًا لم يصرح بذلك مباشرة لكن المعنى وارد، ومن ثم كان على مرة أن ينقض هذا المعنى وينفى عن نفسه الجبن والضعف والخوف.

وتتحوَّلُ النقائضُ بعد مقتل كُليبٍ إلى سجال متبادل بين قاتله جساس بن مرة وأخي كليب المهلهل الذى يطلب بثأره، وتبدأ هذه النقائض عندما وقف المهلهلُ يرثى كليبًا بعد دفنه مباشرة فى قصيدة طويلة[١] يبين فيها حزنه الجم، ودموعه الغزيرة على فقد أخيه، ويتساءل فى حسرة عن حال قبائل (نزار)، كلها بعد رحيل فارسها، ويؤكد المهلهل أنه لا يستطيع السيطرة على دموعه، ثم ينتقل إلى تهديد قاتل أخيه الذى فرَّ من الديار جبنًا وذعرًا، ويتوعد قبيلة بكر كلها بالانتقام يقول[٢]:

أَهَاجَ قَذَاءَ عَيْنِي الإذِّكَارُ ... هُدُوًّا، فالدُّمُوعُ لها انحِدَارُ
وصَارَ اللَّيْلُ مشتملًا علينَا ... كأنَّ الليلَ ليسَ لَهُ نَهَارُ
دعوتُكَ يا كُليبُ فلم تُجِبْنِي ... وكيفَ يُجيبُنِي البلدُ القِفَارُ
أَجِبْنِي يا كُلَيْبُ خَلاكَ ذمٌّ ... لقد فُجِعَتْ بفارسِها نِزَارُ
سقاكَ الغيثُ إنَّكَ كُنْتَ غيثًا ... ويُسْرًا حينَ يُلْتَمسُ اليسَارُ
أبَتْ عينايَ بعدَكَ أن تكفَّا ... كأنَّ قَنَا القَتَادِ لها شَفَارُ

(١) انظر: القصيدة كاملة في شعراء النصرانية (٢/١٦٣).

(٢) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص٤١-٤٤، وشعر المهلهل في شعراء النصرانية (٢/١٦٣،١٦٤) والشعر والرد عليه على وزن البحر الوافر.

أتغــدُو يا كُليْــبُ معــى إذا مــا ... جبــانُ القــوم أنجــاهُ الفــرارُ
أتغــدُو يا كُليْــبُ معــى إذا مــا ... فســيلُ القـــومِ شــطَّ به المــزارُ
خُــذِ العهــدَ الأكــيدَ عليَّ عُمْـرِي ... بتركِـــي كُلَّمَـــا حــوتِ الــديارُ
وَهَجْــر الغانيـــاتِ وشــرب كــأسٍ ... ولُبْـــسى جُبَّـــةً لا تســـتعـــارُ
ولســـتُ بخالــعٍ درعِــي وسيــفي ... إلى أن يخلـــعَ الليـــلُ النهــارُ
وإلا أن تبيـــــدَ سَــرَاةَ بكــرٍ ... فـــلا يبقــى لهــا أبــدًا آثـــارُ

ويرد جساس عليه محاولاً نقض المعاني التى اشتملت عليها أبياته، فأما عن بكاء المهلهل على أخيه وحزنه عليه فإن جساسًا هو الآخر يعترف بالخسارة الفادحة لمقتل كليب ويبكى عليه هو وقومه مثل بكاء المهلهل، فليس بين بنى بكر مَنْ ينكرُ مكانة كليب، لكنه بغى عليهم ولابد أن تدور على الباغى الدوائر، وقتله كان جزاء تطاوله على أبناء عمومته بنى بكر، أما عن فرار جساس فيؤكد جساس أنه مع الموت دائمًا ويؤمن أن الفرار لا يمكن أن يُنْجِي من الموت، أما عن تهديد المهلهل فهم مستعدون له:

ألا أبلــغْ مهلهـــلَ مـــا لـدينـا ... فـــأدْمُعُـــنا كـــأدْمُعِـــه غـــزارُ
يكينــا وائِـــلَ البــاغِــي علينــا ... وكُـــلٌ ليـــس مِنْـــهُ بـــه اصطبارُ
وكُـــلٌ قـــد لقَـــى ما قـــد لقينـــا ... وشـــرُّ العيـــشِ مــا فيــه العِيـــارُ
ونحـــنُ مــع المنـــايــا كُــلِّ يــومٍ ... ولا يُنْجـــى مــــن المــوت الفـــرارُ
فأقســمُ إن بقيـــتُ لَتكـــرهَنِّـــي ... إذا طـــارَتْ عــن العنــسِ الشِّــفارُ

ويظلُّ المهلهلُ يرثى أخاه، فالديار بعد رحيل كليب أصبحَتْ قفرًا وأنه لم يعد يستطيعُ تحمل هذه المصيبة، فلا خير فى الدينا بعد رحيل كليب، فهو العز والكرم والحلم والجودُ، فليت السماء على مَنْ تحتها وقعت، أو جالت الأرض

بمَنْ عليها من الناس، فحياة كليب - من وجهة نظر المهلهل - تساوى حياة مَنْ على الأرض جميعًا ومن ثم فإنه يستعد للحرب استعداد الفارس المقاتل، من تهيئة للخيول والرماح التى سوف تغوصُ فى دماء بني بكر، وأن الحرب مستمرة والصُلح مُحال[1]:

الـــدّارُ قفرٌ عفـــاها بعـــد ســـاكنهـــا … بالرِّيح بعد ارتحـــال الحي بما فيهـــا
وغالها الدَّهـــرُ إنّ الدهـــرَ ذو غِيَـــلٍ … فأصبحـــتْ بلقـــعًا قفـــزًا مغانيهـــا
كُليـــبُ لا خيـــرَ فى الدينا ومن فيهـــا … إنْ أنـــتَ خلَّيْتَـــهَا فيَمـــنْ يُخَلّيهـــا
كُليـــــبُ أى فتـــى عـــزٍّ ومكرمـــةٍ … تحـت السَّـفَاسِفِ إذ يعلـــوُكَ سَافيها
نعـــى النُّعـــاةُ كُليبًا لي فقُلْـــتُ لهم … مادَتْ بنـــا الأرضُ أم مـــادتْ رواسيها
لَيْـــتَ السَّـــماءَ على مَنْ تحتها وقعـتْ … وحالَـــتِ الأرضُ فانجابَـتْ بمَنْ فيـها
والخيـــلُ قد أثبتَـتْ قومي حوافـــرَهَا … واستوجبَـتَ بعد أنصـالٍ دواميهـــا
نرمـــي الرمـــاحَ بأيديـــنا فنوردُهَـــا … بيضًا ونُصدرُهَـــا حُمْـــرًا أعـــاليهـــا
لا أصـــلح اللهُ مِنَّا مـــنْ يُصالحكـــمُ … ما لاحـــتِ الشمـــسُ في أعلى مجاريهـــا

ويأتى رد جساس ناقضًا المعنى الذى صاغه المهلهل، فإذا كان المهلهل يهدد بشن حرب ضروس على بني بكر لا تبقى ولا تزر فجساس يقلب عليه هذا التهديد لأنه قتل كليبًا - وهو الملك القوى المُهاب ومضرب المثل فى العز والسؤدد - وجعله معادلاً لناقة جارته، وكأن لسان حال جساس يقول: قتلنا الملك بناقة فما بالكم عندما تقتلون رجلاً منّا:

بَلِّـــغْ مهلهـــلَ عن بكـــرٍ مُغلغلـــةً … مَنَّتْـــكَ نفسُـــكَ من غَـــيٍّ أمانيهـــا
تَبكـــي كُليبًا وقـــدْ شالَـــتْ نعامَتُـــه … حقًّـــا وتضمِـــرُ أشيـــاءَ تُرجِّيهـــــا

---

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص٤٤-٤٦، وشعر المهلهل في شعراء النصرانية (١٦٦/٢،١٦٧) ورد جساس في شعراء النصرانية أيضًا (٢٥٠/٣)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر البسيط.

فاصْــبرْ لبكرٍ فإنَّ الحــربَ قد لقحَـتْ وعــزِّ نفســك عمَّـــنْ لايــو اليــها
فقــدْ قتلنَــا كليبًا لم نُبَــالِ بِـــه بنـابِ جـارٍ ودون القتــلِ يكفيها
نحمــي الذِّمــارَ ونحمــي كُلَّ أرملةٍ حقــاً وندفــعُ عـنها مــن يُعاديهــا
والجــارُ نُـــؤْمِنُـــهُ إنْ حــلَّ ساحتَنـا والعـــارُ تمنعــهُ الأشــرافُ واليهَــا

وقريبٌ من هذا ما نلمحه فى قصيدة أخرى للمهلهل إذ نجده يذكر أخاه ويذكر غدر بنى شيبان، ويُحرض قومه على الحرب، وكانت هذه القصيدة تسميها العربُ الداهية فى الجاهلية[1]، وقد أكد المهلهلُ في هذه القصيدة على عدة أمور، منها: إن جساسًا ليس ندًّا لكليب كى يقتله، وأنه كمَنْ ركبَ البحر ولم يُعدَّ له عُدته ومن ثمَّ يكون مصيره الغرق لا محالة، وأخذ المهلهل يعدد خصال أخيه وفضائله لا سيما يوم خزازى الذى انتصر فيه كليب على جموع اليمن وعلى ذلك ليس أمام البكريين إلا أن يردوا أخاه كُليبًا حيًّا أو يموتوا مثله[2]:

يا أيُّــها الجانــي علــى قَــوْمــــه مــا لم يكُــنْ كـــانَ لَـهُ بالخَليـــق
جنايــةً لــم يــدرِ ما كُنْهَــهَــــا جَــانٍ ولم يُصْبِــحْ لهــا بالمُطيـــق
إنَّ ركــوبَ البَحْــر مـــا لم يَكُــنْ ذا مَضْــدَرٍ مِــنْ تهلكــات الغَريـــق
غــدًا نُســاقــى فاعلمــوا بيننــــا أرماحنـــا مـــن عاتــك كالرَّحيـــق
ليْــسَ أخـــوكــم تــارِكــاً وِتْــــرَه ولَيْـــسَ عَنْ تَطْــلَابكــم بالمُفِيـــق

ويرد جساس ويقلب تهديده عليه، إذ يؤكد له أن الذين قتلوا كُليبًا فإنهم قادرون على قتل مَنْ هُم دونه:

---

(١) انظر: بكر وتغلب ص٥٢.

(٢) الأبيات مختارة من قصيدة في جمهرة أشعار العرب، ص١١٠، وكتاب بكر وتغلب، ص٥٥، وشعراء النصرانية (١٧٢/٢-١٧٤) وهي على وزن البحر السريع، ورد جساس على وزن البحر السريع أيضًا وهو في كتاب بكر وتغلب ص٥٥، وشعراء النصرانية (٢٥٠/٣-٢٥١).

إنّا علـى مـا كـان من حـادثٍ لم نبـدأ القـومَ بـذاتِ العُقُـوق
قـد جرّبـتْ تغلـبُ أرماحـنـا بالطعـن إذ جَـارُوا وحـزّ الحلوق
لم ينههُـمْ ذلـكَ عـن بغيهـمْ عنّـا ولـم يعـترفُـوا بالحقُـوق
وأسـعَـرُوا للحـرب نـيـرانَهـا للظلـم فينـا بـاديًا والفسُـوق
أليـسَ مَـنْ أردَى كليـبًا لمـن دُونَ كليـبٍ منـكـم بالمُطـيقِ
مـنْ شـرعَ العـدوانَ فى وائـلٍ إقْـترن الظلـمَ وضَـنْكِ المضيـق
قـدْ كـان منكُـمْ حـادثٌ ذُقْتُـمُ عقابَـهُ واعـترِفُـوا بالمـذُوق
بـدأتُـمُ بالظـلـم فى قـومكُـمْ وكنـتُم مثـلَ العـدوِّ الحنـيـقِ
والحـوضُ ظُلْـمٌ ليـسَ يُسْقى بـه ذو منعـةٍ في كُـلِّ أمـرٍ مُطِيـق
فـإنْ أبيتُـمْ فاركبُـوهـا بمـا فيهـا مـن الفتنـةِ ذاتِ البـرُوق

والأمر نفسه يتكرر بين المهلهل والفند الزِّماني، إذ يذكر المهلهل جريمة بني ذُهْل بقتلهم كُليبًا الذى لا يبلغ مبلغه أحدٌ، ثم يتبع المهلهل ذلك بالتهديد والوعيد لأنّه سيقتلهم جميعًا ولن يترك منهم عدوًّا أو صديقًا[1]:

يا بنِـي ذُهْـل لقـد هَيَّجتمُـوا لبنـي بكـرٍ حـروبًا كالحـريـق
وبعثـتُـم غـارةً في جـاركـم ذات أفنـانٍ وريـحٍ وحـريـق
ملـكٌ يقـدمُـهُ رجـراجـةٌ مثـل ذرِّ الشمـسِ قُـدَّام الشـروق
ثُـم لا نُبـقِـى علـى ذي لمـة بعـده مِنْكُـم عـدوٍّ أو صديـق

ويأتى رد الفند الزِّمَّاني ناقضًا معانى المهلهل التى ساقها، فالملك كليب الذى تحدث عنه المهلهل قَدَّم أسباب قتله حين بغى وتجبر عليهم فهو الذى وضع نفسه موضع التهلكة، ولم يرع حُرمة جار ولم يرحم أبناء عمومته الذين سوَّدوه عليهم،

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص٥٥،٥٦ وهما على وزن بحر الرمل.

ومن ثم يكون قتلُه حقًا، فجساس رفع عن أعناقهم غبار الذل الذى أذاقهم كليب إياه:

ليس يُغْنِي القولُ إلَّا لامرئٍ صادقٍ بالقول يومًا أو مُطيق
إن مَنْ أَوْرَدَ صَعْبًا نفسَهُ هُوَّةٌ ذاتَ ازْوِرارٍ ومضيق
لاحِقٌ تغلبَ فى عُدوانِه باديًا فى الظلم فينا والفسُوق
من رئيسٍ لم يُراقِبْ إذْ غدا حُرْمَةَ الجار ولا حقَّ الرَّفيق
رفضَ القومَ ولم يرحَمْهُمُ ورمانا رَمْيَةَ المَوْلى العتُوق

وكان الحارثُ بن عُباد قد اعتزل الحرب ولم يشهدها، واستعظم قتل كليب لسؤدده فى ناقة من الإبل، ومن ثم نزع سنان رمحه، ووتر قوسه وقال لبنى شيبان: لقد ظلمتم قومكم وقتلتم سيدكم وهدمتم عزكم وترعتم ملككم، فوالله لا نساعدكم[1].

فلما قُتِلَ جساس ظن الجميع أن المهلهل قد أدرك ثأره وأن الحرب قد انتهت إلا أن المهلهل قد أسرف فى القتل، فأرسل الحارث بن عُباد ابنه بُجيراً إلى المهلهل وكتب معه: إنَّكَ قد أسرفت في القتل وأدركتَ ثأرَكَ سوى ما قتلت من بكر، وقد أرسلت ابني إليك، فإما قتلتَهُ بأخيك وأصلحت بين الحيين وإمّا أطلقته وأصلحت ذات البين فقد مضى من الحيين فى هذه الحروب من كان بقاؤه خيراً لنا ولكم. وعندما قرأ المهلهل الرسالة قتل بُجيرا ولم يستمع لنصيحة امرئ القيس بن أيان، وقال عند ما قتله، بؤ بشسع نعل كليب، وأرسل رأسه إلى قومه.

ولما بلغ الحارثَ بن عُباد قتلُ بجُير قال: نعم الغلام أصلح بين ابني وائل وباء

(١) انظر: شعراء النصرانية (١٦٨، ١٦٩،١٧٦).

بكليب، فقال له قومه إن مهلهلاً قال له: بؤ بشسع نعلِ كُليب فغضب الحارث ونهض للقتال وركب فرسه النعامة.

وهنا يدخل الحارثُ بن عُباد غمار المعارك والنقائض معًا، غير أنّ النقائض بين الحارث بن عباد والمهلهل تأخذ شكلاً آخر غير ما ألفنا، فقد كانت النقائض السابقة بين قاتل (جساس) ومعه قومه (بكر بن وائل) من جهة وبين المهلهل عدى بن ربيعة طالب الثأر من جهة أخرى أما الآن فالحارث بن عُباد يطلب الثأر لابنه القتيل ظلمًا ويرى أن يقتل به المهلهل وتغلبًا شفاءً لنفسه، وعلى الطرف الاخر مازال المهلهل يتوعد بني بكر ثأرًا لأخيه القتيل، فنحن أمام مَوْتورَيْن إذًا، لذلك نجد الحارث يرثى ولده الذي لا نظير له بين شباب العرب ويؤكد على أنه قُتِل ظُلْماً، فهو لم يُقتل في ساحة قتال ونزال ولم يُعطَ فرصة للدفاع عن نفسه، كما أنه كان مُعتزلًا الحرب مع أبيه الحارث ولم يقدم أسبابًا تؤدى إلى قتله ومن ثم يحذر الحارث بأنه سوف يملأ الصحراء من رؤوس تغلب[١]:

يا بُجَيْرَ الخيراتِ لا صُلْحَ حَتّى	نَمْلأَ البيدَ مِن رؤوس الرِّجال
وتَقَرَّ العيونُ بعد بُكاها	حين تَسْقِي الدِّماءُ صُدُورَ العوالي
لم أكُنْ من جُناتِها عَلِمَ اللهُ	وإنِّي لِحرِّها اليومَ صالِ
قد تجنَّبْتُ وائلاً كي يُفيقُوا	فأبَتْ تغلبُ عليَّ اعتزالي
وأشابُوا ذُؤابتي ببُجيرٍ	إنّ قَتْلَ الكريم بالشِّسْع غالِ
يا بَنِي تغلبٍ خُذُوا الحِذْرَ إنّا	قَدْ شَرِبنا بكأس موتٍ زُلالِ
يا بَنِي تغلب قَتَلْتُم قتيلاً	ما سمعنا بمثلِه في الخوالي

ويأتي رد المهلهل محاولاً نقض المعاني التي ساقها الحارث، أما عن قتل بُجير

(١) هذه الأبيات والرد عليها مختارة من قصيدتين كبيرتين للحارث بن عُباد والمهلهل في كتاب بكر وتغلب ص٦١-٦٨، وهما في شعراء النصرانية (٣/٢٧١-٢٧٦) وهما على وزن البحر الخفيف.

ظُلمًا فالمهلهل يراه حقًّا لأن بني بكر قتلُوا كليبًا وأنّه سيقتلُ بأخيه سادة بني بكر حتى ولو كانوا ملوكًا. أما أن يجيرًا قد قُتِل بشسع نعل كليب فكل أشراف بكر يعادلون شسع النعل:

يا كُليبَ الخيرات لا صُلْحَ حتَّى ... أسكنَ اللّحدَ في الضَّريحِ المُهالِ
كيفَ صَبْري وقد قَتلتُم كُليبًا ... وسعَيْتُم بقَتْلِهِ في الخوالي
فلعمري لأقتلَنَّ بكُليْب ... كُلَّ قَيْلٍ يُسمى من الأقيالِ
فلعمري لأقتلَنَّ بكُلَيْبٍ ... كُلَّ ذي صَوْلةٍ بها صوّال
صدقَ الحار[1] إنَّنا قد قتلْنَا ... بقِبَالِ النّعالِ جمعَ الرِّجالِ

ثم ينتقل الحارث بن عُباد في القصيدة نفسها إلى التهديد الفعلي وإعلان حالة الحرب، فيطلب من صاحِبيه أن يقرّبا فرسه «النعامة» منه، ويكرر الطلب في أبيات متلاحقة وكأنه يذيع في الملأ نبأ مهمًا لا يصحُّ أن يكون أحدٌ في غفلة عنه **«قربا مربط النعامة منى»** وهو يكرر هذا الشطر أكثر من أربعين مرة متتالية، وتوشك إشارة الحارثُ بن عُباد أن تكون بقصرها وتكرارها بلاغًا حربيًّا يعلن النفير العام - بلغتنا المعاصرة - فعلى كل من يسمعه من قومه أن يلبس جلد النمر فقد هاجَتْ الحربُ من جديد[2]، ثم يذكر الحارث في الشطر الثاني المتمم لـ **«قربا مربط النعامة منى»** تبريرًا لإعلانه الحرب وإصراره عليها.

ويقابله في الطرف الآخر المهلهلُ عدى بن ربيعة الذي يكرر هو الآخر **«قربا مربط المشهر منى»** مقابل تكرار ابن عباد فهو يعلن الحرب، ويضع المشهر فرسه

(١) الحار: الحارث بن عُباد.

(٢) انظر: شعرنا القديم والنقد الجديد، الدكتور/ وهب رومية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٢٠٧) مارس ١٩٩٦م، ص٢٢٩، ٢٣٠.

مقابلاً لفرس بن عباد «النعامة» ولننظر إلى هذه المقابلة بين الشاعرين فالحارث بن عباد يرى أنه رجل أفعال لا أقوال مما يؤكد جدية تهديده:

قرِّبا مَرْبِط النعامة مِنّي ... ليس قولي يُرادُ لكن فِعالي

فيرد عليه المهلهل مؤكدًا المعنى ولكن لنفسه فهو إن قال فعل، وفعله دائمًا يُطابق قوله، أو بمعنى آخر إذا قال شيئًا فإن فعاله تؤكده وأنه خصم عنيد:

قرِّبا مَرْبِطَ المُشَهَّر مِنّي ... إنّ قَوْلي مُطابِقٌ لِفِعَالي

ويؤكد الحارث بن عباد على شدة المعركة التي تجعل النساء تنوح على كثرة القتلى:

قرِّبا مربط النعامة مني ... جدَّ نوحُ النِّساء بالإعوالِ

فيقابله المهلهل بالمعنى نفسه، وأن المعركة عندما يشتد وطيسُها فسوف تخرج النساء من الخدور لشدة الهول:

قرِّبا مَرْبِط المُشَّهر مِنّي ... سوفَ تبدُو لنَا ذواتُ الحجالِ

ويعود ابن عُباد إلى ذكر ابنه بُجير، باكيًا إياه حزينًا عليه:

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامةِ منِّي ... لكريم مُتوَّجٍ بالجمالِ

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامةِ مِنِّي ... لبُجَيرٍ فِداهُ عمِّى وخالي

فيرد المهلهل عليه المعنى، ويضع كليبًا مقابلاً لابنه:

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامةِ منِّي ... لكُليبٍ فِداهُ عمِّى وخالِي

ويؤكد ابن عباد على أن قتل بُجير قد أشاب رأسه خزنًا عليه:

قرِّبا مَرْبِط النَّعامةِ منِّي ... شابَ رأسِي وأنكرَتْني القوالي

فيقابل المهلهل ذلك بموت كليب الذي أشاب شعره:

قرِّبا مَرْبِطَ المُشَهَّر منِّي ... لكُليبَ الذي أشاب قذالي

ويرى ابن عباد أن ليل الحزن على ولده طويل، ويزداد طولاً عندما لم يدرك ثأره بعد لذلك فهو يحلم بيوم اللقاء عندما يتقابل الجمعان:

قرِّبا مَرْبطَ النَّعامةِ مِنِّي ... طالَ لَيْلي على الليالي الطِّوَالِ

قَرِّبا مَرْبطَ النَّعامةِ مِنِّي ... لاعتناقِ الأبطالِ بالأبطالِ

فيقابل المهلهل هذا المعنى بإثباته لنفسه، فهو الذي ينتظر يوم اللقاء وهو الذي طال ليلُه واسودَّتْ أيامُه لفقد كليب:

قَرِّبا مَرْبِطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... طالَ لَيْلي وأقصرتْ عُذَّالي

قرِّبا مَرْبِطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... إن تلاقتْ رجالُهم ورجالي

ويعود الحارث لذكر بُجير فقتله هو السبب لإعلان الحرب:

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامةِ مِنِّي ... لبُجَيْرٍ مفكِّكِ الأغلالِ

فيعود المهلهل لذكر المقابل له وهو أخوه كليب:

قَرِّبا مَرْبِطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... لقتيلٍ سَفَتْهُ ريحُ الشَّمَالِ

وبهذا نجد المهلهل قد نقض المعاني التي صاغها الحارثُ بن عُباد أو على الأقل أعطى المقابل لها.

ويلتقي الفريقان - بكرٌ وتغلب - في «العويرض»، وهو أوّل يوم يُشارك فيه الحارث بن عُباد، وهو أيضًا أول يوم تنتصر فيه بكرٌ على تغلب في حرب البسوس، ونجد نمطًا جديدًا من النقائض، يتكون من ثلاث قصائد لشاعرين فقط، فالحارثُ بنُ عُباد يقول شعرًا بعد الواقعة، فيرد عليه المهلهلُ ناقضًا قوله بقصيدة، فيرد الحارث ناقضًا قصيدة المهلهل بقصيدة أخرى، والقصائد الثلاث من بحر الوافر والقافية واحدة فيهم أيضًا. فالحارثُ يفخرُ بالنصر الذي تحقّقَ

لبكر، ويُعَرِّضُ بالمُهلهل، ويؤكد على أنَ كُليبًا لو قام من قبره لعلمَ أنَ أخاه شر زير، وأنّه لو قتلَ بني تغلب جميعًا بابنه بُجَيْر لكان ذلك أمرًا يسيرًا[1]:

فحام مُهلهلٌ لما التقينا ... وَعدّد حين ملَّ من الهدير

فلو نشرَ المقابرَ عن كُليبٍ ... لخُبِّر في الحفاظِ بشرِّ زير

ولو قُتِلُوا جميعًا في بُجيرٍ ... لكانوا فيه كالشيءِ اليسير

ويردُّ المُهَلهلُ ناقضًا قصيدة الحارثِ بن عُباد، ويؤكد أنَّ القبرَ لو نُشِرَ عن كُليبٍ لعلمَ أنَّهُ الفارسُ الذي يُجندلُ الأبطالَ، وقرَّ عينًا بما يصنعه في ساحةِ الوغى، فقد قتلَ من الأعداءِ الكثير، وكل ذلك يدحضُ «شر زير» التي وصفه بها الحارثُ بن عُباد، يقول المهلهل[2]:

وَلَوْ نَشَرَ المقابرَ عن كُليبٍ ... لَأُخْبِرَ بالذَّنائبِ أيَّ زِيرِ

ويومَ الشَّعثمينِ لَقَرَّ عَيْنًا ... وكيفَ لِقاءُ مَنْ تَحْتَ القبُورِ

ألا إنّي تَرَكْتُ بِوارِداتٍ ... بُجَيْرًا في دَمٍ مثلِ العبيرِ

وَهَمّامَ بنَ مُرَّةَ قَدْ تَرَكْنَا ... عَلَيْه القُشْعُماتِ من النُّسورِ

هَتَكْتُ بيُوتَ بني عُبادٍ ... وبعضُ القتلِ أَشْفَى للصُّدورِ

على أنْ لَيْسَ عَدْلاً من كُلَيْبٍ ... إذا خافَ المُغارُ مِنَ المُغِيرِ

ويبدو أنّ المُهلهلَ قد نكأَ جُرحًا داميًا عند الحارث، إذ فَخَر بقتلِهِ لابنِهِ بُجَيْر، وسادةٍ من بكر، فجاءَ ردُّ الحارث فخرًا بالنصر يوم «العويرض» وهو ما يعني تأكيد المعنى الذي قاله في القصيدة الأولى، أو إصلاح ما نقضه المهلهل[3]:

---

(١) الأبيات من قصيدة في كتاب بكر وتغلب ص٧٠،٦٩، وهي على وزن البحر الوافر.

(٢) الأبيات من قصيدة في بكر وتغلب ص٧٠-٧٢، وشعراء النصرانية (١٦٨/٢-١٧٠)، وهي علي وزن البحر الوافر.

(٣) الأبيات من قصيدة في بكر وتغلب ص٧٣،٧٢.

تركْنـا تغْلـبًا كـذهـابِ أمـس وأخرجنـا الحِسَـانَ مـن الخـدُورِ
فلـو نشـرَ المقابـرَ عـن كُليـبٍ لأبْصَرَ بالـذّنـائـبِ شـرّ زيـرِ
على أنْ ليـس عـدْلا مـنْ بُجيـرٍ إذا اختـلطَ القبيـلُ مـعَ الدَّبيرِ

وفي يوم «قضَّة» وهو يوم تحلاق اللّمَم يتقابل الخصمان، الحارثُ بن عُباد والمهلهلُ عدى بن ربيعة، وفي هذا اليوم يأسر الحارثُ مُهلهلاً وهُوَ لا يعرفُهُ، ويطلبُ منه أن يدلَّهُ على المهلهل ويطلق سراحَه مقابل ذلك، فيخدعه المهلهل ويطلب منه عهد الله بذلك فيعطيه الحارثُ العهد فيخبره أنَّهُ هو عَدي، فيطلب منه أن يدلّه على شريفٍ من قومه يكون كفئًا لابنه بُجير فيخبره بأنه امرؤ القيس بن أبان، فيجز الحارث ناصية المهلهل ويتركه ويقتل بابنه امرأ القيس بن أبان ويقول في ذلك(١):

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَـدِيٍّ ولَـمْ أَعْـ ـرِفْ عَـدِيًّا إذْ أَمْكَنَتْنِـي اليـدَانِ
فـارسٌ يَضْـربُ الكتيـبةَ بالسَّيْـ ـفِ وتَسْـمُو أمـامَـهُ العَيْنَـانِ
طُـلَّ مَنْ طَـلَّ في الحُـروبِ ولم يُطْـ ـلَلْ قتيـلُ أبـاتَـهُ بـنُ أبـانِ
فَـارسٌ قـد أصَـابَ منَّـا أُنَـاسًا كـانَ ثَـأرُهُ لَـوْ أنَّ عِلْمِـي كَفَـانِي

ويأتي ردُّ المُهلهل مُراوغًا، فالحارثُ يذكر أمرين: الأوَّل أَسْرُه للمُهَلهل وجَزُّ ناصيته ثم إطلاقه، وهذا لا يستطيعُ المهلهلُ أن ينكره، لأنَّ الأثرَ الماديّ - جز الناصية - واضحٌ للعيانِ، أما الأمرُ الآخر وهو خوفُ المهلهل وجزعُه وجُبْنُه عندما أُسِرَ، وخيانته لصديقهِ وقائدِ مَيْمنةِ جَيْشِه في كُلِّ حروبه امرئ القيس بن

---

(١) الأبيات من قصيدة في كتاب بكر وتغلب ص٨٨، وهي في شعراء النصرانية (٢/٢٧٦) وهي على وزن البحر الخفيف.

أبان فهذا يُمْكن إنكارُه، ومن ثَمَّ نرى المُهلهل ينقُضُ قول ابنِ عُبَاد ويكذّبه فيما قال ويؤكد على أن ما يقوله أضغاثُ أحلامٍ رآها وهو سكران، ويُغَطى المهلهلُ موقفَه بأنه سوف ينتقم لامرئ القيس بن أبانٍ[1]:

قَـدْ أتَانـي مَا قُلْـتَ غـير بَيَـانِ ... وكَـلامُ تَحُـوكُـهُ باللّسَـانِ

تَـرى إذَّاك في المنـام وأنَّـا ... لا نُبَـالـي بـرؤيـة السَّكْرانِ

كـم طويـل على الطُّـوال تَخَطَّـى ... فَقَصَّـرْنَـا من خَطْـوه بالسِّنَانِ

قَـدْ كَـذبْـتَ بأنّنـي قُلْـتُ قَوْلاً ... لم أَقُلْـهُ وجُـزْتُ في ابـنِ أبـانِ

إنْ بقينَـا لَنَنْـصُـرَنَّ شَـريفًا ... قَـدْ مَثَّلْتُـم بـهِ رَفيـعَ المكَـانِ

سَـتَرى المـوت إنْ سَلمْـتَ عيـانًا ... وإنَّ أُهْـلكَ رأيـتَ غـير عَـيـانِ

لأبيـدنَّ مِنكـمْ كُـلَّ شَخْـصٍ ... صَـادِقٍ في فِعَـالـهِ واللِّسـانِ

ويحاول المهلهل - قدر استطاعته - مَحْوَ عار الأسر وجزّ الناصية، لذلك نراه يفخر بما صَنَع ببني بكر من قبل، ونراه يُعدّد وقعاته في فروع بني بكر: لُجيم، تيم اللات، قيس، يَشْكُر، ثم يُعدِّدُ بعد ذلك الرجالَ السادة الذين قهرَهُم مثل مرة بن ذُهْل وابنه همَّام وابن المسوّر وغيرهم. هذا عن الماضي قبل أسره وجزّ ناصيته يوم تحلاق اللّمم، ومن ثم نراهُ يتبعُ ذلكَ بالتهديد بفناء بكر جزاءَ ما فعلوا بأخيه كُليب ليؤكد قدرته على استمرار الحرب وأنَّ عزيمته لم تتأثر بهذه الواقعة[2]:

أَثْبَـتُّ مُـرَّةَ والسُّيُـوفُ شـوَاهِـرٌ ... وصَـرَفْـتُ مقـدمهـا إلى هَمَّـامِ

وبنـي لُجَيْـمٍ قَـدْ وطأْنَـا وطـأةً ... بالخَـيْلِ خـارجـةً عـن الأَوْهَـامِ

---

(١) بكر وتغلب ص٨٩، والأبيات على وزن البحر الخفيف.

(٢) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص٧٢-٧٥، وأبيات المهلهل في شعراء النصرانية (٢/١٧٤،١٧٥) ،ابيات الحارثُ التي رد بها في شعراء النصرانية أيضًا (٣/٢٧٨،٢٧٩) والقصيدتان على وزن البحر الكامل.

وسقَيْتُ تَيْمِ اللّاتِ كأسًا مُرَّةً   كالنّار شُبَّ وقودُها بِضِرامِ
وبيوت قيسٍ قد وطأنا وطأةً   فتركْنا قيسًا غيرَ ذاتِ مقامِ
ولقد قتلتُ الشّعْثَمَيْن ومالِكًا   وابنَ المسوَّرِ وابنَ ذاتِ دَوامِ
ولقدْ خَبطتُ بيوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً   أخوالُنا وهُمُ بنو الأعْمَامِ
ليْسَتْ بِراجعةٍ لهم أيّامُهُم   حتّى تزولَ شَوامخُ الأعْلَامِ
قتلوا كُليْبًا ثُمَّ قالوا أرْتِعُوا   كَذَبوا وربِّ الحِلِّ والإحْرامِ
حتّى تُلَفَّ كتيبةٌ بِكَتيبةٍ   وَيُحَلَّ أصْرامٌ على أصْرامِ
وَتقُومَ رَبّاتُ البيوتِ حَواسِرًا   يَمْسَحْنَ عرْضَ تَمائِمِ الأيْتامِ
حتّى نرى غُرَرًا تُجَرُّ وَجُمَّةً   وَعظامَ رُؤسٍ هُشِّمَتْ بعظامِ
حَتّى يَعضَّ الشّيْخُ من حَسَراتِهِ   مِمّا يَرَى جَزَعًا على الإبْهامِ

ويردُّ الحارثُ بن عُباد وهو يعلمُ أنَّ عار الأسر وجزّ الناصية مازال جُرحًا نازفًا عند خَصمه المُهلهل، لذا نراه ينكأهُ بقوة مرةً أخرى. ويقابلُ فخرَ المهلهل بما صَنَع ببني بكر بتذكيره بعار الأسرِ والذُّل، وأنَّ الذين استطاعوا أسرَهُ وذلّه سوف يقدرون على قتاله. ويقابلُ الحارث تهديد المهلهل بفناء بكر لأنّهم قتلُوا أخاه كُليبًا بتهديد مُماثلٍ بفناء تغلب لأنّهم قتلوا ابنه بُجَيْراً:

لا تَحْسَبَنَّ إذَا هَمَمْتَ بِحَرْبِنَا   أنّا لَدى الهَيْجاءِ غيْرُ كِرامِ
وَلقدْ علِمْتَ وَأنْتَ فِينا شَاهِدٌ   وَسُيُوفُنا تَفْري فُرُوعَ الهَامِ
إنّا لَنَمْنَعُ بالطِّعانِ دِيارَنا   والضَّرْبُ تَحْسَبُهُ شِهَابَ ضِرامِ
وَلقدْ نَكَأتُكَ نَكْأةً مَشْهُورةً   تَرَكَتْكَ مُنْخَسِفًا لدى الأقْوامِ
ولقدْ أسَرْتُكَ ثُمَّ عُدْتُ بِنعْمَةٍ   لو كُنْتَ تشكُرُ لي بها إنْعامي
ضَمِنَتْ لنا أرْماحُنَا وسيُوفُنَا   بِهَلاكِ تَغْلِبَ آخِرَ الأيّامِ
فلأتْرُكَنَّ لِتَغْلِبَ ابنةِ وائلٍ   بعدَ الكَرَى شُغْلاً بِغَيْرِ مَنَامِ

أفبعْــــدَ مَقْتَلِكُـــم بُجَـيْرًا عُنْـــوَةً	تَــرْجُـــونَ وُدًّا آخِـــرَ الأيَّـــامِ؟
كَـــلاَّ وربِّ الرَّاقصـــاتِ إلى مِـــنًى	كَـــلاًّ وَربِّ الحِـــلِّ والإِحْـــرَامِ
حتّـى تُقِيـدُونَا النفُـوسَ بقتْـلِهِ	وَتَــرُومَ في الشَّحْــناءِ كُـلَّ مَـرَامِ
وَتَجُـولَ ربَّـاتُ الخُدُورِ حَوَاسِـرًا	يَبْكِيـنَ كُـلَّ مُغَـاوِرٍ ضِرْغَـامِ

ويظلُّ الفخرُ والفخرُ المقابلِ سيدَ الموقف بين الشاعرين الفارسين، فكلٌّ منهما يفخرُ بنفسه وبقومه ويهدد خصمه، مؤكدًا أن الأمس واليوم والغد له دون خصمه، ونرى المُهلهلُ يرفعُ وتيرة الفخر مع علو نبرة التهديد مع ثبات الأسس التي يقاتل من أجلها وهي الثأر لأخيه القتيل ومن ثمَّ يُهدد بني بكر ويذكر وقعاته وتنكيله بفروعها المختلفة[1]:

إنَّـــا بنُـــو تغْلب شُـــمٌّ معاطسُـــنَا	بيـضُ الوجُـوه إذا ما أفـــزع البلـدُ
فَقَـــدْ قَتَلْـتُ بَنِـي بَكْـرٍ بربِّهِـــمُ	حَتَّـى بكَيْـتُ وَمَا يَبْكـي لَهُم أَحَدُ
مَازِلْـتُ أَقْتلُـهم قَتْـلاً وآسـرهـم	حتَّى اشْتَكَـتْ لَهُم الأحْشَاءُ والكبدُ
أَقْسَمْـتُ بالله لا أرضـى بقتلهـم	حَتَّى تبهرج بـكْرٌ حـيث ما وُجِـدُوا
كَمْ قَـدْ قَتَلْـتُ بنـي بكرٍ بسيّدنا	وَلَيْـسَ يُـوفي كُليـبًا مِنْكُم أحـدُ
قَـدْ قـرَّتِ العيـنُ من عِجْلٍ بما قُهِروا	ومن سَـرَاة بني شَيْـبَانَ إذْ حُصِـدُوا
ومِنْ جَميـعِ بَنـي قَيْـسٍ وقَدْ شَقيتْ	ذُهْـلٌ بنَا يَـوْمَ لاقُـونَا وما سَـعدُوا
ومِنْ بنـي مَالـكٍ والحارثـين ومـا	أَغْنُـوا بِجَمْعهم في الحرب إذ قُصِدُوا
واليشكريُّـون إذْ جـاءوا بجَمْعهـمُ	حَتَّـى لَقُـونَا فَمَـا قامُـوا ولا قَعَدُوا
هانَـتْ لُجَيْمُ غَـداة الرَّوعِ فاطَّـردوا	مثْـل اليعافيـر في الصحـراء تَطَّـرِدُ
أَبْلِـغْ حَنِيفـةَ لا تَعْـدُدْ دِيارهُـمُ	لم يُنْجِهِـمْ عِـدَّةٌ مِنَّـا ولا عَـدَدُ

---

(١) الشعر والرد عليه أبيات مختارة من قصيدتين في كتاب بكر وتغلب ص٧٦،٧٨، وأبيات الحارث ضمن قصيدة له في شعراء النصرانية (٢٧٨،٢٧٧/٣) والقصيدتان على وزن البحر البسيط.

ويقابلُ الحارثُ بن عُباد فَخْرَ المهلهل ببني تغلب بفخره ببني بكر، أمّا عن بطون بكر التي فَخَرَ المهلهلُ بتمزيقها كُلَّ مُمزَّق فإنّ الحارثَ يفخر ببطولة هذه البطون ونصرها على المهلهل وبني تغلب وبقوة بأسها عند النزال ومن ثمّ ينقض فَخْرَه عليهم، وفي مقابل ذلك يُعدّد الحارثُ فروعَ تغلب التي هزمَهَا البكريُّون شرَّ هزيمة:

سَلْ حَيَّ تَغْلِبَ عن بكرٍ وَوَقْعَتِهِمْ ... بالحِنْوِ إذْ خَسِرُوا وجَهْراً وما رَشَدُوا
وأَيْقَنُوا أنَّ شَيْبَانًا وإخْوَتَهُمْ ... قَيْسًا وذُهْلاً وتَيْمَ اللّاتِ قَدْ رَصَدُوا
ويَشْكُرُ وبَنُو عِجْلٍ وإخْوَتَهُمْ ... بَنُو حَنيفَةَ لا يُحْصَى لَهُم عَدَدُ
قَدْ قَرَّتِ العيْنُ مِن عِمْرانَ إذْ قُتِلَتْ ... وَمِنْ عَدِيٍّ مع القَمْقامِ إذْ جُهِدُوا
ومن زِيادٍ ومن غُنْمٍ وإخوتِها ... ومن حَبِيبٍ أصابُوا الذُّلَّ فانْفَرَدُوا
ومن بني الأوْسِ إذْ شُلَّتْ قَبِيلَتُهُمْ ... لاْ يَنْفَعُونَ وقَدْ ضَرُّوا ولا حُمِدُوا
فَرُّوا إلى النَّمْرِ مِنَّا وهُو عَمُّهُمُ ... فَمَا وَفَى النَّمْرُ إذْ طَارُوا وهُمْ مُرُدُ
نَحْنُ الفَوارسُ نَغْشَى النَّاس كُلَّهُمُ ... وَنَقْتُلُ النَّاسَ حَتَّى يُوحِشَ البَلَدُ
والخيلُ تَعْلَمُ أَنِّي مِن فَوَارِسِهَا ... يَوْمَ الطِّعانِ وقَلْبُ القِرْنِ يَرْتَعِدُ
وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا لا أُصَالِحُهُمْ ... مَا دَامَ مِنَّا وَمِنْهُمْ في المَلا أَحَدُ

ويظَلُّ المُهَلهلُ يذكرُ أخاه القتيل الذي أضجّ مَضْجعَهُ وجعلَ ليلَهُ سرمدًا لا ينتهي، ويفجرُّ تذكرُه غضبًا في داخله يَصبُّه على بني بكر، ويستحضر الماضي بانتصاراته فخرًا، ينير له الحاضر الذي يملكه بقوته وعزيمته ومن ثمّ يكون المستقبل ملكًا له لأنّه لا ينام عن ثأر أخيه كليب الذي لا يعادله قَتْل بُجير بن الحارث بن عباد أو قتل بني ذُهْل جميعًا(١):

(١) الشعر والرد عليه من قصيدتين في كتاب بكر وتغلب ص٧٨-٨٢، وقصيدة المهلهل في شعراء النصرانية (١٨٧/٢)، وقصيدة الحارث في شعراء النصرانية أيضًا (٢٨٠/٣) والقصيدتان على وزن البحر الخفيف.

بـات ليْلـي بالأنْعمـين طـويـلا	أرقُـبُ النَّجـم سـاهـرًا لنْ يَزُولا
كـيْف نـوْمي ولا يـزالُ قتـيلًا	مَاجِـدًا كـانَ للصَّـديـقِ وصُـولاَ
فاضِـلُ سَـيِّدٌ حليـمٌ كـريـمٌ	كـانَ بالمـالِ للـوفُـودِ بَـذُولاَ
كَيْـفَ أنْسـاكَ يا كُليـبُ ولمَّا	أَقْضِ بالوجـدِ عَـبرةً وعـويـلا
قُـرَّةُ العـيْنِ مـنْ لجُيْمِ بن صَعْـبٍ	وبنـي ذُهْـلٍ نُكِّلُـوا تَنْكِـيلاَ
يا بنـي ذُهْـلٍ قـدْ دُهِيـتُم بأمْرٍ	إذْ جَهلتُـم وكَـانَ جَـهْلًا جَهُـولاَ
قَتَلُـوا رَبَّهُـم كُليْـبًا سَـفَـاهـاً	ثُمَّ قَالُـوا مـا إن تخـافُ الخُيُـولاَ
لَمْ يكُـنْ قتْلُهـم كُليْـبًا بِنَعمِـي	كَبُجَـيرٍ وَلاَ كَـذُهْـلٍ عَقِيـلا
سَـيرُوعُ الأنَـامَ قتْـلُ كُليْـبٍ	وَتَخَـافُ الجِبـالُ أنْ تَـزولاَ

وإذا كانَ الحادثُ بنُ عُباد قد تجنَّب الحرب فى أوَّلها، واستعظَم قتل كُليبٍ فى ناقهِ، فإنَّه أمام فخر المهلهل بقتله ابنه بُجير، قد غيَّرَ رأيه في هذه المسألة، وأصبح يقابل فخر المهلهل بقتله بُجير بفخر مماثل لأن كُليبًا قُتِل على يد بني بكر، ولايفتأُ الحارث أن ينكأ جرح المهلهل، أو يضيف إلى جُرحِه المتمثل في مقتل كُليبٍ جُرحًا آخر أشد إيلامًا على نفسه وهو وقوعُه في الأسر، وكأنَّ الحارثَ بنَ عُباد يقول إن بني تغلب لا قيمة لهم، فَمَلكُهم قتلناه وسيدُهم وقائدُ حربهم في الثأر للقتيل أسرناه ومننَّا عليه وأطلقناه، ثم يُقابل وقعاتِ المهلهل التي افتخر بها بوقعات مماثلة له في بني تغلب:

سَفِهَـتْ تغْلـبُ غَـداةَ تَمنَّـتْ	حَـرْبَ بَكْـرٍ فَقُتِّلُـوا تَقْتِـيلا
غيْـرَ أنَّـا قَـدِ احْتَوَيْنـا عَلَيْهِـمْ	فَتَرَكْنَـا لهُـمْ بَقَـايـا فُلُـولاَ
أُذْكُـروا قَتْـلَنـا الأَرَاقِـمَ طُـرًّا	يَـوْمَ أَضْحَـى كُلَيْبُـهَا مَقْتُـولاَ
وَقتَلْنَـا عَلَـى الثنيَّـةِ عَمْـرًا	وَجَلَبْـنَـا عَدِيَّهُـمْ مَغْلُـولا

وكُلَيْبًا تَبْكِي عَلَيْهِ البَوَاكِي   وَحَبِيبُ هُنَاكَ يَدْعُو العَوِيلَا

ويعودُ الحارثُ بنُ عُباد إلى تأكيد ظُلْم بني تغلب له عندما قتلوا ابنه بُجَيْراً وهو في حماهم، وأنَّ هلاكَهم بدأ منذ ذلك اليوم، ويفخر على تغلب بأنهم قتلوا كُليب بن ربيعة وهو في حماه[1]:

بَني تَغْلِبٍ لمْ تَنْصِفُونا بِقَتْلِكُمْ   بُجَيْرًا وَلَمَّا تُقْتَلُوا فِي المَجَالِسِ

وحَتَّى تَبذَّ الخيلُ في عَرصَاتِكُمْ   وَتَلْقَوْنَ أيَّامًا شِدَادَ المنَاجِسِ

كَأيَّامِ عَادٍ إذْ بَغَوْا وَتَكَبَّرُوا   فَأَضْحَتْ قُرَاهُمْ كَالقِفَارِ البَسَابِسِ

قَتَلْنَا الذي يَحْمِي الكَتِيبَةَ مِنْكُمُ   وغُودِرَ قَتْلَى جَمَّةٌ في الكنائِسِ

وَنَحْنُ قَتَلْنَا في حِمَاكُمْ كُلَيْبَكُمْ   وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ قَدْ قَتَلْنَا وَبَائِسِ

ولا يُثيرُ المُهَلهِلَ شيءٌ مِثْلَمَا يُثيره الفخرُ بمقتل كليب لذا نراه يزأرُ كالليث ويردُّ هذا الفخرَ نقمةً على الحارث بن عُباد وعلى بني بكر أجمعين لأنهم كتبُوا على أنفسهم الفناءَ بعدما قتلوا كُليبًا، ثُمَّ يقابل فخرَ الحارث بتهديد ووعيد مسبوق بقسمٍ مُغَلَّظٍ:

قُلْ لِحَارٍ وأشْيَاخٍ لَهُ حَضَرُوا   سِيرُوا فإنَّكُمْ لابُدَّ في تَعَسِ

يَا وَيْحَ بَكْرٍ لقَدْ أبْقَى الزَّمَانُ لَهَا   شَجْوًا بِقَتْلِ كُليبِ البأسِ والمرسِ

حلفتُ باللهِ ربِّ النَّاسِ كُلِّهِمِ   رَبِّ النَّهارِ وربِّ اللّيلِ والغَلَسِ

لأُصبحنَّكَ جَمْعًا أنْتَ تَحْذرُه   يَقُودُه كُلُّ لَيْثٍ بَاسِلٍ شَكِسِ

أَبْلِغْ لُجَيْمًا وذُهْلًا إنْ لَقِيتَهُمُ   قَدْ عِيلَ صَبْرِي وحَانَ اليومَ مفترسِ

وَقُلْ لِحَارٍ وعبدِ القَيْسِ كُلِّهِمُ   إرْكَبْ نَعَامَةَ إنِّي رَاكِبٌ فَرَسِي

وفي زحامِ الفَخْرِ لا تغيبُ الحكمةُ عن الحارثِ بن عُباد، فهو من حكماء العرب

---

(١) الأبيات والرد عليها من قصيدتين في كتاب بكر وتغلب ص٩٦،٩٧، وهما على وزن البحر الطويل.

في الجاهلية، لذا نراه يوضح رأيَه في تلك الحرب مُنذ بدايتها حتَّى قاربَتْ على الانتهاء وقد قُتل سيد بني بكر مُرة بن همّام بن مرة، فعندما أطلّت الفتنة برأسها بين جساس وكُليب نهى جساسًا عن قَتْلِ كُليب، لكنّ بغيَ كُليب هو الذي ساقه لحتفه على يد جساس، وقد نهى المُهلهل أيضًا عن البغي وسفكِ دماءِ العشيرة لكنّه أبى، ولهذا يرى الحارث في جساس بطلاً يُمثل إرادة قبيلته، إذ دفع الضَّيم عنها عندما قتل كُليبًا، ويراه مثالًا للقوة والشجاعة عندما قتل بعد ذلك أبا نويرة التَّغلبي، وزاد الحسراتِ في قلبِ المهلهل لأنّه غير قادر على إدراك ثأره[1]:

وَنَهَيْـــتُ جسَّـــاسًا لِقَـــاءَ كُلَيْبِهِـــمْ ... خَوْفَ الذي قَدْ كَـانَ مِـــن حَدثَـانِ
ولقَـــدْ أَبَـــى والبَّغْـــيُ مُهْلِـــكُ أَهْلَـهُ ... إلاّ مَنِيَّتَـــهُ بِحَـــدِّ سِــــنَــــانِ
ونَهَيْـــتُ بَعْـــدُ مُهَلْهِلًا عـــن حَرْبِـنَا ... وَزُحُـــوفِ أَقْـــرانٍ إلـــى أَقْـرانِ
فأبَـــى مُهَلْهِـــلُ فَاسْتُبِيـح قَـــرارُهُ ... قَسْـــرًا بِكُـــلِّ أَخٍ بقَـــى وطعَـــانِ
وَأَقَـــرّتِ الفِتْـــيانُ أَنَّ فَتَـــى العُـــلاَ ... جَسَّـــاسُ أَضْحَـــكَ رَغلَـةَ الضِّبْـعَانِ
شَبِـعتْ نُسُـــورُ الجَـ من قَتْلاهُـــمُ ... بحُجُولِهَـــا وَحَواصِـــلِ الغِرْبَـــانِ
فَتَـــرَى النُّسُـورَ عَوَاكِفًا مِـــنْ حَوْلِهِـم ... تَنْهَشْنَـــهُمْ وَكَـــوَاسِـــرَ العِقْبَـــانِ
قَتَـــلَ الثَّلاثِين الـــذيـــنَ تَعُدُّهُـــمْ ... وَأَظُـنُّ قَـــد أَنْبَـــأَكَـــهُ الـــرُّجْـــلانِ
عَـــنْ كَـرِّ جَسَّـاسِ بن مُـــرَّةَ فِيكُمُ ... وَقَدِيمُـــهُ أَبْـــصَرْتَـــهُ بِبَـــيانِ
تَـرَكَ النِّسَـــاءَ عَلَى كُلَيْـــبٍ حُسَّـــرًا ... بالأَمْـــسِ خَارِجَـــةً عَـــنِ الأَوْطَـــانِ
فإذَا بَكَيْـتَ علـى كُلَيْــبٍ فاذْكُـــرَنْ ... قَتْـــلَ الكُهُـــولِ وَمَضْـــرَعَ الفِتْـــيَانِ
وَأَبَا نُـــوَيْـــرَةَ لا تَـــدَعْ تَـــذْكَـــارَهُ ... فَلَنِعْـــمَ مَـــأْوَى الضَّيْـــفِ والفُرْسَـــانِ

---

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص١٠٩-١١٠، والقصيدتان على وزن البحر الكامل.

إنْ كُنْت تحْسَبُ أنْ تُباشِر بالقَنا		فأبُو نُويْرةَ كانَ غيْرَ جبان
أرْداهُ جسَّاسٌ بطعْنةٍ مخْطفٍ		في الحرْبِ يرعشُ حوْفهُ الركبان
وأصاب جسَّاسُ بنُ مُرَّةَ وِتْرهُ		في موْقفٍ مُتضايقِ الأرْكانِ

ويأتي رَدُّ المَهَلْهِلُ مُشَبَّعًا بالحكمةِ أيْضًا، فالموتُ قَدَرُ النَّاسِ جميعًا لا ينجو منه أحدٌ، وليس وَقْفًا على كُلَيب وحده، فالموتُ أدرك كُليبًا وجساسًا معًا وسوف يدرك كُلَّ حي، فلا مجالَ للفرح فيمن مات، ويقابل تهديد الحارث بتهديد مُماثل، لأنَّه سوف يشن عليهم حربًا فاصلة لها ما بعدها:

لا تفرحَنَّ بكثرة البهتَانِ		فالموتُ مقْدورٌ بكلِّ مكانِ
إن كان جسَّاسٌ أصابَ معاشرًا		وأُصيب يوم تجالدٍ وطعَانِ
فكلاهُما ذاقَ الفنا وكلاهُما		أردى وتلكَ مصارعُ الفتيانِ
وكلاهُما ذاقَ الحِمامَ وكُلُّ مَنْ		يبقى وجدُّك في البريةِ فَانِ
وبه أصابَتْ وائلٌ أوتارَها		يوم الهجولِ وكانَ غير جبانِ
ليسَ المريح كمستعيبٍ في الوغي		والصدقُ ليسَ كمنطقِ البهتَانِ
إنَّ السيُوف بكُورُها ورواحُها		تركتكَ مرةَ خاويَ الأركانِ
إن لم تزركُم خيلُنا بعصابةٍ		تفنى بيوم لقائها الثقلَانِ
فحزُّوا أشفاركم وحزُّوا بعدها		منَّا الحلوق ببغية كل مكانِ

٤- النقائض في مقتل خالد بن جعفر

يُعدُّ خالد بن جعفر بن كلاب بطلًا من أبطال العرب، بعد قَتْلِه زُهَير بن جذيمة العبسي سيد غطفان، ولم يكن مقتلِ زُهير حدثًا عاديًّا في صحراء نَجْد، فقد ترتَّب على ذلك الحدث تغيير ميزان القوى بين القبائلِ العربية، إذ التفَّ العامريون حَوْلَ خالد بن جعفر، بل والتفَّت هوازنُ كُلُّها حوله، وكانَ أوَّل رجل تجتمعُ عليه هوازن كُلها في الجاهلية[١]، ومن ثَمّ أصبحتْ هوازنُ تُمارسُ دورَ السيادة في منطقة نَجْدٍ، وكان الكلابيون موضع تقدير ومهابة من كُلِّ القبائل[٢]. لذلك كان مَقْتل خالد بن جعفر على يد الحارث بن ظالم المري فاجعة كبرى، وعندما يرثيه عبدالله بن جعدة يؤكد على جُبْنِ قاتله، لأنّه قتله وهو نائم غدرًا، فلم ينازله فارسًا لفارس، ولو فعل لكان النصرُ حليف القتيل، لأنّه بطلٌ يُحسنُ الطّعنَ وتسديد الضربات للخَصْم، لا تطيش له ضربة، ولا ترتعش له يد، ولا ينسى الشاعر تهديدَ القاتل وقبيلته[٣]:

شقَّــتْ عَليْــكَ العامــريّةُ جَيْبَهَـــا	أَســفًا ومَا تَبْكــي عَلَيْـــك ضَــلالا
يَا حَــار، لَوْ نَبَّهْـتَهُ لَـــوَجــدْتَــهُ	لا طَــائِشـــاً رَعِشَـــا ولا مِعْـــزَالا
وَاغْــرَورَقَتْ عَيْنَـــايَ لَمّا أُخْـــبِرَتْ	بالجَعفــريّ وَأَسْـــبَلَــتْ إسْـــبَالا
فَلَنَقْتُلَــنْ بخَالِــدٍ سَـــرَواتِكُـــم	ولنَجْعلَــنْ للظّــالمِــين نَكَـــالا

---

(١) انظر: المُحبّر لابن حبيب، محمد بن حبيب الهاشمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت) ص٢٥٣،٢٥٤.

(٢) انظر كتابنا: شعر بني عامر بن صعصعة من الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية جمع وتحقيق ودراسة، نادى المدينة المنورة الأدبي - السعودية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، (٤٤/١).

(٣) الشعر والرد عليه في: أيام العرب قبل الإسلام لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق الدكتور عادل جاسم البياتي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الاولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧، ص١٢٥، والشعر على وزن البحر الكامل.

ولا يملكُ الحارثُ بن ظالم الّا نفي الجبن عن نفسه، ويؤكد على بطولته وفتكه بعدوه، وأنّه نبّه خالدًا قبل قتله لكنّه كان ضعيفًا، رخو اليدين، ومن ثمّ تكون شجاعة الحارث هي الفيصل:

باللهِ قَـدْ نبَّهتُـه فَـوَجـدتُـهُ رَخْـوَ اليـديـنِ مُوَاكِـلًا عَسْـقَالا
فعَلَوْتُـهُ بالسَّيْـفِ أَضْـربُ رَأْسَـه حَتَّـى أَضَـلَّ بِسِلْخِـهِ السِّـربالا

وعندما يَعْلَمُ قيسُ بنُ زهير بن جذيمة بقتل خالدٍ الذي قتل من قبل أباه، يرسلُ قصيدةَ شُكْرٍ وامتنانٍ لقاتله، لأنَّه أخذ بثأرهم الذي اشتعل في صدور بني عبس طويلًا دون أن يدركوه[1]:

جَـزَاكَ الله خَـيْرًا مِـن خَليـلٍ شَفَـى مِـنْ ذِي تُبُـولتِـهِ الخَليلا
أَزَحْـتَ بِهَـا جـوًى وَدَخِيـلَ حُزْنٍ تَمخَّـخَ أَعْظُـمِي زَمَـنًا طَـويـلَا
كَسَـوْتَ الجَعْفَـريَّ أبـا جُـزيْءٍ ولم تَخْفِـلْ بِـه سَيْـفًا صَقِـيلا
أَبَـأْتَ بِـهِ زُهَـيْرَ بَنِـي بَغِيـضٍ وكُنْـتَ لمِثْلِـهَـا ولهـا حَمُـولا
كَشَفْـتَ لَـهُ القِنَـاعَ وكُنْـتَ مِمَّنْ يُجَلِّي العَـارَ والأَمْـرَ الجَلِيـلَا

ويردُّ الحارثُ عليه قَوْلَه ويصفُهُ بأنَّه كاذبُ لا يتفق قولُه المُنَمَّقُ مع فعله، لأن بني عَبْس رفضت أن تُجيرَهُ وكان الأَوْلَى لها أن تكون له حرزًا يحميه لأنَّه ثأر لهم، بدلًا من طلبها منه أن يجاور غيرهم من قبائل العرب:

أَتَـانِـي عَـنْ قُيَيْـسِ بنِـي زُهَيْرٍ مَقَـالَـةُ كَـاذِبٍ ذَكَـرَ التُّبُـولَا
فَلَـوْ كُنْتُـمْ كَمَـا قُلْتُـم لَكُنْتُـم لِقَاتِـل ثَـأْرِكُـم حِـرْزًا أَصِيـلَا
ولكِـنْ قُلْتُـمُ جَـاوِرْ سِـوَانَـا فَقَـدْ جَلَّلْتَنَـا حَـدَثًـا جَلِيـلًا

---

(١) الشعر والرد عليه في: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ط١، دار الكتب المصرية، (١١/٩٨)، وهي على وزن البحر الوافر.

ولـو كـانـوا هُم قتـلُوا أخاكُـم لمـا طَـرَدوا الـذي قتَـلَ القتيلا

ويلحقُ الحارثُ بنُ ظالم بحاجب بن زُرارة فيُجيره ويعده أن يمنعَهُ من بني عامر، ويعلم بنو عامر بمكانه في تميم، فيسيرون في جيشٍ عظيم إليهم، ويعلم بمقدمهم حاجبُ بن زرارة فيخاف على نفسه وقبيلته ومن ثَمَّ يأمرُ الحارث أن يَتَنحَّى عنه غيرَ مَلُومٍ، فيغضب الحارثُ لأن حاجبًا لم يف بوعده له، ولم يستطع حمايته مثلما يفعلُ العربُ الأعزة مثل بكر وتغلب أو مثل أهالي يثرب الذين ثبتوا في وجه التُّبع اليماني، ويذكِّر حاجبًا بأن شوكة هوازن ليست أقوى من شوكة تميم(١):

لَعمْـرِى لقـد جاورتُ في حَـيِّ وائـلٍ ومـنْ وائـلٍ جـاورتُ في حَيِّ تَغْلِبِ
فأصبحـتُ في حَـيِّ الأراقـم لم يَقُـلْ لِيَ القـومُ يا حار بـنَ ظالـمٍ اذْهَـبِ
وقـد كـان ظنِّى إذ عقلـتُ إليكـم بنى عُدُسٍ ظنِّـى بأصـحاب يثْـربِ
غَـداةَ أتـاهـم تُبَّـعٌ في جُنـودِهِ فلـم يُسْـلِمُوا المرين من حَيٍّ يَحْصُـبِ
فـإنْ تَـكُ في عُلْيَا هَـوازِنَ شَوْكَـةٌ تُخَـافُ ففيـكم حَدُّ نـابٍ ومِخْلَـبِ
وإن يَمْنَـعَ المَـرْءُ الـزُّرارِىُّ جـارَهُ فأعْجِـبْ بهـا من حاجِبٍ ثم أَعْجِبِ

ويحاول حاجبُ بنُ زُرارة نقضَ ما قاله الحارث، فيفخر بأنَّهُ أمنع جارًا من كُليب بن ربيعة الذي يُضربُ بعزَّته وأنفته وكبريائه المثلُ، وتاريخ بني تميم يؤكد ذلكَ، وأنَّ بني عامر لو فَكَّرَتْ في غزوهم فسوف تعضُّ على الأنامل ندمًا، وذلك لأن تميمًا هي الأقوى والأعزّ والأمنع، ويُبرِّرُ حاجبٌ تخليَهُ عن الحارث بأنّه لا يدخلُ الحربَ ظالمًا، فبنو عامر يطلبون ثأرًا عادلاً(٢):

---

(١) الشعر والرد عليه في الأغاني (١١/١٠٠)، وهو على وزن البحر الطويل.
(٢) الأغاني (١١/١٠٠).

لعَمْـرُ أبيـك الخَـيْرِ يا حارِ إنّنِـي لأَمْنَـعُ جـارًا من كُلَيْـبِ بن وائـلِ
وقـد علـمَ الحـيُّ المَعَـدِّيُّ أنّنَـا على ذاك كُنّـا في الخُطوبِ الأوائـلِ
وأنا إذا مـا خـافَ جـارٌ ظُلامـةً لبِسـنا لـه ثَـوْبَيْ وَفـاءٍ ونائـلِ
وأنّ تميمًا لـم تُحـاربْ قبيلـةً من النّـاس إلا أولعَـتْ بالكواهـلِ
ولو حـاربتْنا عامـرٌ يـا بـنَ ظالمٍ لعَضّـتْ علينـا عامـرٌ بالأنامـلِ
ولاسْتيقَـنتْ عُلْيـا هـوازنَ أنّنـا سنُوطئهـا في دارِهـا بالقنـابـلِ[1]
ولكنّـني لا أبعـثُ الحـربَ ظالمـاً ولـو هِجْتُهـا لم أُلْـفَ شَحمـةَ آكلِ

ويلتقي الجمعان - عامر وتميم - برحرحان، وتمزقُ عامرٌ تميمًا شرَّ مُمزَّق، ويُجرحُ حاجب بن زُرارة سيد تميم في المعركـة ويقـع أخوه معبد في الأسر ثم يُقْتل، ويردُّ أبو براء عامر بن مالك على أبيات حاجبٍ السابقة، يؤكـدُ فيها على أن حاجبًا هو خير بني تميم، لكنّه رغم ذلك ينصحُه ألّا يُقَارن نفسه بأبنـاء وائـل (أي كُليب بن ربيعة) ومن ثَمّ ينقضُ عليه فَخْرَه بأنّه أمنع جَارًا من كُليب، ثم ينقضُ عليه فخره بقوة تميمٍ لأن فرسان بني عامر لا يُشَقُّ لهم غُبار، وأنهم قادرون على النصر حتّى لو كان عدوُّهم قبيلة تغلب، لذلك فإن حاجبًا لا يستطيع حماية الحارث منهم وأنهم رأوا يومًا تشيب له الأطفال[2]:

أَلِكْنـي[3] إلى المـرءِ الزُّراريِّ حاجـبٍ رئيـسِ تَميـمٍ في الخُطـوب الأوائـلِ

(١) القنابل: الجماعات من الخيل والناس.

(٢) الأغاني (١١/١٠١)، والأبيات على وزن البحر الخفيف.

(٣) ألكني إلى فلان أي كن رسولي إليه، يقال: ألك بين القوم ألكا وألوكا إذا ترسل. والاسم منه الألوك والألوكة والمألُكة والمألُك (بضم اللام فيهما) بمعنى الرسالة. فإذا عديته بالهمزة قلت ألكته إليه برسالة. والأصل فيه «أألكته» بهمزتين، فأخرت الهمزة بعد اللام وخففت بنقل حركتها إلى ما قبلها وحذفت. فإن أمرت من هذا الفعل المتعدى بالهمزة قلت ألكني إليها برسالة. وكان مقتضى هذا اللفظ أن يكون معناه أرسلني إليها برسالة، إلا أنه جاء على القلب، إذا لمعنى: كن رسولي إليها بهذه الرسالة. (عن لسان العرب في مادة ألك).

وفارسها في كل يوم كريهة وخير تميم بين حاف وناعل
لعمْرى لقد دافعتُ عن حيّ مالكٍ شآبيب[1] من حرْبٍ تلقّحُ حائل[2]
على كل جرْداءِ السَّراة طمرَّةٍ وأجْرد خوَّارِ العنان مُناقلِ[3]
نصحتُ له إذ قلْتُ إنْ كنت لاحقًا بقوْمٍ فلا تعْدِلْ بأبناء وائلِ
ولو ألجأته[4] عُصْبةٌ تغْلبيّةٌ لسرْنا إليهم بالقنا والقنابلِ[5]
ولو رُمْتُمُ أن تمنعوه رأيتُمُ هناك أمورًا غيُّها غيرُ طائلِ
لشابَ وليدُ الحيّ قبل مشيبه وعضَّتْ تميمٌ كلُّها بالأناملِ
وقامتْ رجالُ منكمُ خِنْدِقيَّةٌ يُنادُونَ جهرًا ليْتنا لم نُقاتلِ

وكان عَمْرُو بن الإطْنَابةِ الخزرجيُّ ملك الحجاز، ولما بلغه قتلُ الحارث بن ظالمٍ خالدَ بن جعفرٍ، وكان خالدُ مُصافيًا له، غَضبَ لذلك غضبًا شديدًا، وقال: والله لو لَقِيَ الحارثُ خالدًا وهو يَقْظَانُ لَمَا نظر إليه، ولكنه قتله نائمًا، ولو أتانى لعرَف قَدْرَه، فالحارث جبان لا يواجه أي فارس بسلاحه إنما تظهر شجاعته على النيام فقط وأنه لو نزل الحجاز فسوف يُقْتَلُ بفعلته وسوف ينسى قتلَ الناس غدرًا[6]:

علِّلاني وعلِّلا صاحِبيّا وأسْقِيَاني منَ المُروّق[7] ريّا

(١) والشآبيب: جمع شؤبوب. وشؤبوب كل شئ: حده، أو الدفعة منه.
(٢) يقال: تلقحت الناقة إذا شالت بذنبها لترى أنها لاقح وهي ليست كذلك. وحائل: غير حامل.
(٣) الأجرد من الخيل: القصير الشعر، والخيل تمدح بذلك. والسراة: الظهر. والطمرة: أنثى الطمر (ويقال فيه الطمرير والطمرور) وهو الفرس الجواد، أو المشمر الخلق، أو المستفز الوثب والعدو، أو الطويل القوائم الخفيف. وفرس خوار العنان: سهل المعطف (أي إذا عطف كان لينا سهل الانقياد). والمناقل من الخيل: الذي يتقى في عدوه الحجارة وهو أن يضع يده ورجله على غير حجر لحسن نقله في الحجارة.
(٤) ألجأته: عصمته.
(٥) القنابل: وهي الجماعات من الناس والخيل، الواحدة قُنبلة.
(٦) الأغاني (١١/١٢١،١٢٢)، والشعر والرد عليه على وزن البحر الخفيف.
(٧) المروق من الشراب: المصفى.

إنَ فينـا القِيَـانَ يَعْـزفْـنَ بالدُّفِّ لفتْيـانِـنا وعيشـاً رَخـيَّـا[1]
يَتبـارَيْـنَ في النَّعـيـم ويَصْبُبْـ ـنَ خـلالَ القُـرونِ مِسْـكًا ذَكيّا
إنّمـا هـمُّهُـنّ أنْ يَتحلَّيْـ ـنَ سُمـوطًا وسُنْـبلاً فـارِسـيّا
مـن سُـموطِ المَرْجـانِ فُصِّلَ بالشَّذْ رِ فأحْسِـنّ بحَلْيهِـنّ حُلِـيَّا
وفتـى يَضـربُ الكَتيبـةَ بالسَّيْـ ـفِ إذا كانـتِ السـيوفُ عِصِـيَّا
إنّنـا لا نُسَـرّب في غـير نَجْـدٍ إنّ فِينـا بهـا فتًـى خَـزْرَجِـيّا
يـدفَع الضَّيْـمَ والظُّلَامـةَ عنها فَتَجافَـىْ عنـه لنـا يامَنِـيّا
أبْلِـغ الحـارثَ بـنَ ظالـمٍ الرِّعْـ ـدِيـدَ والنـاذرَ النُّـذُورِ عَلَـيَّا
أنمـا يَقْـتُل النِّيـامَ ولا يقـ ـتلُ يَقْظـانَ ذا سـلاحٍ كمِـيّا[2]
ومَعِـى شِكّتـي[3] مَعابِـلُ كالجَمْـ ـرِ وأعددتُ صـارمًا مَشْـرَفيّا
لـو هبطـتَ البـلادَ أنْسيتُك القتـ ـلَ كمـا يُنسِـىْ النِّسـىْ النَّسِيّا

فلمّا بلغ الحارثَ شعرُهُ هذا ازداد حَنقاً وغيظا، وأراد نقض قوله فعلًا ثم قولًا فسار حتى أتى ديار بنى الخَزْرَج، ثم دنا من قُبّة عَمْرو بن الإطْنَابةِ، ثم نادى: أيُّها الملك أغِثْنى فإنى جارٌ مكثورٌ[4] وخُذْ سِلاحك، فأجابه وخرج معه. حتى إذا برزَ له عطَف عليه الحارثُ وقال: أنا أبو لَيْلَى! فاعتركا مَلِيًّا من الليل. وخشِى عمرُو أن يقتلَهُ الحارثُ فقال له: يا حارِ، إنى شيخٌ كبيرٌ وإنِّى تعترينى سِنَةٌ، فهل لك في تأخير هذا الأمر إلى غدٍ؟ فقال: هيهاتَ! ومَنْ لى به في غدٍ! فتجاولاَ ساعةً،

(١) العيش الرخى: الناعم.
(٢) الكمى: الشجاع المتكمى في سلاحه، لأنه كمى نفسه أى سترها بالدرع والبيضة، والجمع كماة، كأنهم جمعوا كاميا مثل قاض وقضاة.
(٣) السلاح، والمعابل: جمع معبلة (بكسر الميم) وهي نصل طويل عريض؟ والمشرفى من السيوف: المنسوب إلى المشارف، وهى قرى من أرض اليمن، وقيل من بلاد العرب تدنو من الريف.
(٤) مكثور: كثر أعداؤه أى غلبوه بكثرتهم.

ثم ألقى عمرٌو الرُّمْحَ من يده وقال: يا حارِ ألم أُخْبِرك أنّ النُّعَاسَ قد يغلبني! قد سقطَ رمحي فاكْفُفْ، فكفّ. قال: أنظرْني إلى غدٍ. قال: لا أفعلُ. قال: فدَعْني آخُذْ رُمْحي. قال: خُذْه. قال: أخشَى أن تُعْجِلَني عنه أو تفتِكَ بي إذا أردتُ أخْذَه. قال: وذِمّة ظالمٍ لا أعجلتُك ولا قاتلتُك ولا فتكتُ بك حتى تأخذه. قال: وذِمةِ الإطْنابةِ لا آخذُه ولا أقاتلك. فانصرف الحارثُ إلى قومه وقال مُجيبًا له:

إعْزِفا لي بلذّةٍ قَيْنَتَيّا ... قبلَ أن يُبْكِرَ المنونُ عَلَيّا

قبلَ أن يُبْكِرَ العواذلُ إنّي ... كنتُ قدْمًا لأمْرِهِنَّ عَصِيّا

ما أبالي أراشدًا فأصْبَحاني ... حَسِبْتني عَوَاذِلي أم غَوِيّا

بعدَ ألّا أُصِرّ لله إنّما ... في حياتي ولا أخونَ صَفِيّا

ويهيمُ الحارثُ بن ظالم على وجهه، فقد ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ فقصد ديارَ قومه مُتَخفيًا، وكان الملك الأسود بن المنذر قد تَبَنَّى سنانُ بن أبي حارثة المريّ ابنه شُرَحْبيل، وكانَتْ امرأته تُرضعه، فأخذ الحارثُ شُرَحَبيل وقتله وفرّ إلى بني دارمٍ فأجاروه، فيغضب الأسودُ بن المنذر منهم، فيُعدِّد نعمَهُ وفضله عليهم ويهددهم بالفناء إذا أصرُّوا على حماية الحارث بن ظالم ولم يسلموه إليه فقال[1]:

كأيِّنْ لنا من نِعْمَةٍ في رِقابكم ... بني قَطَنٍ فضلًا عليكم وأنْعُمَا

وكَمْ مِنّةٍ كانتْ لنا في بيُوتكم ... وقَتْلِ كَريمٍ لم تَعُدُّوه مغرَمَا

فإنكم لا تمنَعون ابنَ ظالمٍ ... ولم يمس بالأيدى الوَشيج المُقَوَّما[2]

فينبرى له ضَمْرَةُ بن ضمرة النهشلي، ويؤكد له أنهم قادرون على حماية الحارث بن ظالم بسيوفهم حتى ولو كان في بيوت الأسود بن المنذر نفسه، فتسليم الحارث

---

(١) الشعر والرد عليه في الأغاني (١١/١١٣)، وهو على وزن البحر الطويل.

(٢) الوشيج: شجر الرماح أو هو من القَنا أصلبه، والمقوَّمُ: الذي أُزيل عوجه.

دونه الموت، ويرد على فخره بالمن والفضل عليهم بأن يجعل ذلك الفخر والمن لأخيه النعمان وينفيه عنه لأنه مثل التيس الغريب وسط أقرانه:

سَنَمْنَع جارًا عائذًا في بيوتكم ... بأسيافنا حتى يؤوبَ مُسَلَّمَا
إذا ما دعَوْنا دارمًا حالَ دونه ... عوابسُ يعْلُكْنَ الشَّكِيمَ المُعَجَّمَا
ولو كنتَ حَرْبًا ما وردتَ طُوَيْلِعاً ... ولا حَوْفَه إلّا خَمِيسًا عَرَمْرَمَا[1]
تركتَ بني ماءِ السماءِ وفِعْلَهم ... وأشبهتَ تَيْسًا بالحِجازِ مُزَنَّما[2]
ولن أذْكُرَ النُّعْمانَ إلا بصالحٍ ... فإنّ له فضلًا علينا وأنْعُمَا

وقد جَرَّ مقتلُ خالد بن جعفر في بطن عاقل حربَ يوم «رحرحان» وجرَّ يوم رحرحان يوم «شِعْب جَبَلة»[3] وهو من أعظم أيام العرب[4]، وبرغم هول اليوم وما كان فيه لم نظفر إلّا بنموذجين للنقائض قِيلا فيه، أولهما للقيط بن زُرارة وشُريح بن الأحوص، فلقيط يحضُّ جنوده على القتال والبطولة، ويؤكد لهم على أن النعيم والحياة الرغدة لا تجوز إلّا للأبطال الذين يخوضون غمار المعارك بقوة وشجاعة[5]:

عَرَفْتُكُمْ والدَّمعُ م العينِ يَكِفْ[6]
لفارسٍ أتْلَفْتُمُوه ما خُلِفْ

---

(١) وحوف الوادى: حرفه وناحيته. والحرب: العدو المحارب. وطويلع: ماء أو واد. والخميس: الجيش. والعرمرم: الكثير.

(٢) المزنم من الشاء: ما له هنة معلقة في حلقه تحت لحيته، وخص بعضهم به العنز. والمزنم أيضا: الذي تقطع أذنه وتترك له زنمة.

(٣) انظر: الأغاني (١١/٩٤-١٦٣).

(٤) قيل: عظام أيام العرب ثلاثة: يوم كُلاب ربيعة، ويوم جَبَلة، ويوم ذي قار. الأغاني (١١/١٣١).

(٥) الشعر والرد عليه في الأغاني (١١/١٤٢، ١٤٤).

(٦) يكف: يسيل.

إنّ النّشيلَ والشّواء والرُّغُفْ[1]

والقَيْنَة الحسناء والكأس الأُنُفْ[2]

وصَفْوةَ القِدْرِ وتَعْجِيلَ اللّقفْ[3]

للطّاعنين الخيلَ والخيلُ قُطُفْ[4]

فيردُّ عليه شُريحُ بن الأحوص قوله وزعمه، لأن شجاعة لقيط مزعومة وبطولته التي يتشدق بها ويحضُّ الغير عليها لا تؤكدها الأفعال، فلو كان صادقًا فليدخل المعركة وعندها سيعلم عزة ومنعة بني عامر:

إن كُنْتَ ذا صِدْقٍ فَأَقْحِمْهُ الجُرُفْ

وقرِّب الأشْقرَ حتّى تعْترِفْ[5]

وجوهَنا إنّا بنُو البِيضِ العُطُفْ[6]

والنموذج الآخر للقيط بن زرارة وشأس بن بُلَيٍّ، إذْ يتحسَّرُ لقيط على أيام الدّعة والراحة والنعيم التي سبقَتْ هجوم بني عامر عليهم، ويرد على لَوْم قومه له بعد هزيمتهم بأنّه لم يُجرِّب حَرْبَ بني عامر من قبل[7]:

يَا قَوْمِ قَدْ أحرقْتُمُوني باللَّوْمْ

وَلَمْ أُقَاتِلْ عَامِرًا قَبْلَ اليَوْمْ

---

(١) النّشيل: اللحم المطبوخ أو الذي يُنْشَل من القدر قبل النضج، واللبن ساعة يُحلب، والشّواء: ما شوى من اللحم وغيره.

(٢) الكأس الأُنُف: التي لم يشرب بها قبل ذلك.

(٣) اللّقف: ما يلقف ويتناول من الطعام.

(٤) قطف: جمع قطوف وهو المتقارب الخطو أو البطيء من الدّواب.

(٥) الأشقر: فرس لقيط بن زرارة.

(٦) العُطُف: جمع عطوف، وهو وصف من عطف عليه يعطف عطفًا إذا رجع عليه بما يكره أوله بما يريد.

(٧) الأغاني (١١/١٤٣).

فاليـــومَ إذْ قاتَلْتُهُــمْ فــلا لـــومْ

تَقَـدَّمُـــوا وَقـــدَّمُــونــي لِلْقَـــومْ

شَتَّـــانَ هَـــذا والعـــناقُ والنَّـــومْ

والمَضْجَـــعُ البـــاردُ في ظِـــلِّ الـدَّوم

فيرد عليه شأسُ بن بُلَيّ بأنَّه قاتَل بني عامر من قبل، ويعلم أسرار حربهم وأنَّهُ الفارس الذي يَصْلُحُ للقيادة:

لكــنْ أنــا قاتَلْتُـــها قَبْـلَ اليـــومْ

إذْ كُنْـــتُ لا تُعْصَـــى أُمورِي في القَومْ

٥- النقائض في يوم الكُلاب[1] الأول:

وهو يومٌ بين الأخوين شُرَحْبيل وسَلَمة ابني الحارث بن عمرو بن آكل المرار الكندي، فالأوَّلُ كان ملكًا على تميم وقيس وبطون من بكر بن وائل، والآخرُ كان ملكًا على بني تغلب. وتفاقم الأمرُ بين الأخوين حتَّى جمعَ كُلٌّ واحدٍ منهما لأخيه الجموعَ وزحفَ إليه بالجيوش، وكان أبو حنشٍ زوَّارًا للملوك عظيم القدر فيهم، وكان عند شرحبيل بن الحارث وكان معه ابنُه معبد، وذات يوم رفع معبدٌ القوس ورمى هامةَ الملك شُرَحْبيل بسهمٍ، فسقط الملكُ مغشيًّا عليه، وتَصَايحَ النَّاسُ قُتِلَ الملكُ، وأفاقَ الملكُ بعد ذلكَ لكن ابنه عمرًا قد أمسكَ بمعبد وقتله ووضع رأسه بين يدي الملك، فلمّا رأى أبو حنشٍ ما حدث لابنه انصرف من عند الملك وعاد لبني تغلب ووضعَ ظُبَّة سيفه على بطنه وحلف ليغمدن عليه حتَّى يخرج من ظهره أو يدركوا له ثأره، وكانت تلك فرصة سانحة لأخيه سَلَمة إذ حشدَ تغلب كُلَّها معه ضد أخيه، فالتَفَّتَ تغلبٌ حوله وساروا إلى أخيه والتقى الجمعان عند ماء الكُلاب، واقتتل الفريقان اقتتالاً شديدًا حتَّى غشيهم اللَّيلُ فنادى مُنادي سلمة: من أتاني برأس شُرَحْبيل فلَهُ مائة من الإبل، ونادى منادى شُرَحْبيل: من أتاني برأس سلمة فله مائة من الإبل، فحمل أبو حنشٍ على شُرَحْبيل ليقتله بابنه ويأخذ الإبل، فلما غشيه قال له شرحبيل يا أبا حنشٍ اللبن اللبن. أملكٌ بسوقة أي لك الإبل ولا تقتلني بابنك فهو من عامة الناس وأنا ملكٌ فرَدَّ عليه أبو حنشٍ بأنَّ ابنه كان ملكه، ثم قتله، وخشي أن يذهب برأسه إلى أخيه، فأرسلها مع خادم له ليعود إليه بالإبل التي وعد بها سلمة من يأتيه برأس أخيه، فلما رأى سلمة رأس أخيه، قال شعرًا أظهر فيه حزنَهُ وألمه

---

(١) أيام العرب (٥٦/٢) والعقد الفريد (٧٩/٦) والنقائض ص٣٥٥.

وتمنّى لو أنَّ أبا حَنَـشٍ جاء ليأخذ الإبلَ بنفسه ويؤكد سلمة أن أخاه القتيلَ خيرٌ مَنْ قُتِل بين أحجارِ الكلاب، وأنّه لم يكن جبانًا ولكن أتباعه خذلوه[1]:

الا أبلــغْ أبَــا حنــشٍ رسُـــولاً فمــا لــكَ لا تجــيء إلـى الثّـــوابِ

ومــالــك لا تجـــيء إلى هِجـــانٍ منصّبـــة الغـــوارب بالهضـــاب

تعلــمُ أن خـــيرَ النـــاس طـــرا قتيــلٌ بـــين أحجـــار الكُـــلاب

تداعــتْ حــولــه عمـــرو بن غنم وأســلمه جعاسيـــسُ الـربـــاب

قتيــلٌ ما قتيــلُكَ يا ابــن سَلْمَـــى تضـــرُّ بــه قتيــلكَ أو يحــابـــى

ويلمحُ أبو حنـشٍ الغدر في دعوة سلمة، فيردّ عليه بأنّهُ فَضَّل ألّا يحضر أمامه، لأنّ الثواب الذي ينتظرُهُ هو القـتل، لأنّ الغـدر في بني آكل المرار ميراثٌ، فأبوه الحارث بن عمرو كانَ قد ترك ابنًا له يسترضعُ بين حَيّي تميم وبكر، فلدغته حَيَّةٌ فمات، فأخذ الحارثُ خمسين رجُلاً من بَكْر فقتلهم بذلك، فكانت غدرة شنعاء طوّقت عُنق الحارث حتّى الممات[2]:

أُحَــاذِرُ أن أجيئــكَ ثُـــمَّ تحبُـــو حبــاء أبيــكَ يـــوم صنيبـــعات

وكانـــت غـدرةَ شنعـــاءَ ســـارَتْ تقلَّـــدهَـــا أبـــوك إلى المـمــــات

تتــابـــعَ سبـــعةٌ كــانُـــوا لأمٍّ كأجـــرام النعـــام الحـائـــرات

ويبلغُ خبرُ مقتلِ شُرَحْبيل أخاه غلفاء معدى كرب بن الحارث فيرثيه، ويُبيّن مناقبه وشجاعته، وأنّه لو كان موجودًا في المعركة لبدَّد شملَ قاتليه ولسقَى سيفه من دمهم، ذلكَ لأنهم غدروا به ولم يقابلوا إحسانه إليهم بإحسان مماثل[3]:

---

(١) أيام العرب قبل الإسلام (٥٦/٢) والأبيات والرد عليها على وزن البحر الوافر.

(٢) أيام العرب (٥٦/٢) والنقائض ص٣٥٦.

(٣) أيام العرب (٥٨،٥٧/٢) والنقائض ص٣٥٧، والأنوار ومحاسن الأشعار (٢٢٠/١) والأبيات والرد عليها على وزن البحر الخفيف.

إنّ جنبي عن الفراشِ لنابي كتجافي الأسرِ عند الظرابِ
من حديثٍ نما إليّ فما ترقأ عينيّ ولا أسيغُ شرابي
مُرةٌ كالزُّعافِ أكتُمها النّا سَ على حرملّةٍ كالشهاب
من شُرَحْبيل إذ تعاوره الأرماحُ من بعد لذّةٍ وشبابِ
يا ابنَ أمّي ولو شهدتُكَ إذ تد عو تميمًا وأنتَ غير مُجابِ
لتركتُ الكُماةَ حولكَ صرْعى كرّ ذي نجدةٍ غداةَ الضّرابِ
لتركتُ الحسامَ تجري ضباهُ من دماءِ الأعداءِ يوم الكُلابِ
ثُمّ طاعنْتُ من ورائكَ حتّى تبلغَ الرّحبَ أو تبزّ ثيابي
أحْسنَتْ وائلٌ وعادتُها الإحسا نُ بالحنوِ يوم ضرب الرّقابِ
يوم فرّتْ بنو تميمٍ وولّتْ خيلُهم يتقين بالأذنابِ
ويْحكُم يا بني أُسيد إنّي ويْحكُم ربّكم وربّ الرّبابِ
أين مُعطِيكم الجزيلَ وحابيكم عن الفقرِ بالمئين الكبابِ
والثمانين قد تخيّرها الرّاعي ككرمِ الزبيبِ ذي الأعنابِ
فارسٌ يضربُ الكتيبةَ بالسّيفِ على نحره كنضح الملابِ
فارسٌ يضربُ الكُماةَ جرئٌ تحتهُ فارسٌ كلونِ الغُرابِ

ولا يروقُ ذلكَ لأبي حَنَش فيردُّ عليه ما ادَّعاه من قوّةٍ وبأس وينكأ جُرْحَهُ بأنّهم الذين سَلّموا أخاهم للقتل، بل حَرَّضوا عليه وحدّدوا قيمة رأس أخيهم بمائة من الإبل، وهذا عارٌ رُبّما لم تعرفه العربُ من قبل لذا عليهم أن ينعموا بالمُلك، ويعترفوا بفضل القاتلين بدلًا من التّهديد والوعيد[١]:

قُلْ لِذا الآكلِ المُرارِ خُذْ الملـ ـكَ ولا تبكينّ قتيلَ الطلابِ

---

(١) أيام العرب (٢/٥٨) والنقائض ص٣٥٧ وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار (١/٢١٧).

قـدْ تركنـا أخـاكَ في حمـس النَّقْـ ـعِ صريعـاً مُضـرَّج الأثـواب

أسْلمتْـهُ علـى الكُلاب تميـمٌ بعـد طعـنِ الكُلى وضـربِ الرقـابِ

وأجبنـاكَ إذ دعـوْتَ وذو التَّـا ج شُرَحْبيل ثـمَّ غـير حجـابِ

تنتمـي حـولـك الأراقـمُ في النَّقْـ ـعِ كأُسْدٍ طـريـرة الأنيـابِ

فانْثَنـتْ عنـه دارمٌ وبنـو الفِـزْ رِ ويـربـوعهـا وحـيُّ الربـابِ

بـين كابـي الجبـين مُنعـفرُ الخـ ـدِّ وعـانٍ مُشـذَّب الأصـحابِ

فقتلْنـا لـكَ ابـن أمِّـكَ والمُلْـ ـك عَقِـيمٌ مُقطَّـعُ الأنسـابِ

أصبحُـوا بالكُـلاب تعتفـرُ الضَّبْـ ـعُ عليهـم وعـاويـاتُ الذئـابِ

فاعْتَدِل يا ابـن ذي المُـرار عـن القصْـ ـدِ ولا يغـرُرْكَ تيـهُ الشـبابِ

واختـرْنْ بـين ما يقـولُ لـكَ النَّـا سُ وحـرب تَحُـرُّ بـردَ الشـرابِ

ويتصلُ بآلِ آكل المُرار مقتل حُجر بن الحارث أبي امرئ القيس، الذي قتله بنو أسد، وأخذ امرؤ القيس في طلب الثأر والمُلك معًا، فجهَّز جيشًا كبيرًا فيه فوارس بكر وتغلب، وعندما علم بنو أسد بذلك فرُّوا تاركين ديارهم إلى بني كنانة فتبعهم امرؤ القيس بجيشه، وتحت جُنح الظلام فرَّ بنو أسد من ديار بني كنانة وفي الصباح هاجم امرؤ القيس بني كنانة ظنًّا منه أنه ظفر ببني أسد، وعندما علم بخدُعة بني أسد له ندم ندمًا كبيرًا وأخذ يهدد أحياء بني أسد بالهلاك المحقق ثأرًا لأبيه الملك(١):

يَا لَهْـفَ هِنْـدٍ إذْ خَطِـئْنَ كـاهِلا(٢)

---

(١) أخبار المراقسة ص١٩٧، وديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠م ص١٣٤، والأبيات على وزن البحر الرجز.

(٢) يا لهف هند: يا حسرة هند. وهي أخت امرئ القيس، خطئن: أخطأن ولم يصبن، يعني أن خيله التي أغار بها لم تصب بني كاهل، وهم حي من بني أسد كان فيمن شرك في قتل حجر.

تالله لا يـذهـبُ شيْخـي باطِـلَا[1]

حَتّى أُبيـرَ مَـالِـكًا وكـاهِـلَا[2]

أَلقَاتِلـينَ المَـلِكَ الحُـلاحِـلَا[3]

خَـيْرَ مَعَـدٍّ حَسَـباً ونَـائِـلَا[4]

وخَـيْرَهُـمْ قَـدْ عَلِمُوا شَمَـائِلا[5]

نَحْنُ جَلَبْنَا القُـرَّحَ القَـوافِـلَا[6]

يَحْمِلْنَنا والأَسَـلَ النَّـواهِـلَا[7]

وحَـيَّ صَعـب والوَشِـيجَ الذَّابِـلَا[8]

مُسْتَثْفِـراتٍ بالحَصَـى حَـوَافِـلَا[9]

يَسْتَشْـرِفُ الأواخِـرَ الأَوَائِـلَا

وينبري عُبيد بن الأبرص شاعرُ بني أسدٍ للرد على امرئ القيس بأن بني أسد لا تخافُ التهديد والوعيد وأنّ أباه قُتِل مُهانًا ذليلًا، ويرد عليه قوله بأنّه قَتَلَ سادة بني أسدٍ، ويصف ذلك بأنه كذبٌ ثم يذكر عُبيد في مقابل ذلك وقائع يفخر بها

---

(١) شيخي: يعني أباه. باطل: هدر.

(٢) أبير: أهلك وأبيد. مالك وكاهل: حيان من بني أسد.

(٣) الحلاحل: السيد الشريف الزكي الرضي، يعني أباه.

(٤) يريد أباه. النائل: العطاء الجزل.

(٥) والشمائل: الخصال الكريمة.

(٦) القرح القوافل: الخيل الضوامر.

(٧) الأسل النواهل: الرماح المتعطشة إلى الدماء فهي تعب فيها وتنهل.

(٨) حي صعب: من بقي مع امرئ القيس من أحياء بني أسد. الوشيج الذابل: الرماح اللينة.

(٩) مستثفرات بالحصى: يعني أن الخيل من شدة جريها تثير الحصى بحوافرها فيتطاير من خلفها ويدخل بين أفخاذها، فكأنها به مستثفرة، جوافل: سراع.

على امرئ القيس كان النصر فيها لبني أسد وأنهم هزموا كندة غير مرة[١] ومن ثمَّ فهم جاهزون للقاء كندة في أي وقت[٢]:

يـــاذ المُخــــوَّفُــنـــا بقتْــــ	ــل أبيـــه إذْلالاً وحَـــيْـنــــا[٣]
أزعمْــــتَ أنَّـــكَ قَـــدْ قتَـــلْــ	ــت سَـــراتَنـــا كَـذِبـــاً ومَيْنَا[٤]
هـــلاَّ عَـــلى حُــجْـــرِ بْـــنِ أمِّ	قَطَـــامِ تَبْــكِـــي لا عَلَيْنَــا[٥]
إنّـــا إذا عَـــضَّ الثِّـــقَـــا	فُ بِـرأسِ صَعْـدَتِنَـا لَــوَيْنَــا[٦]
نَحْمِـــي حَقِيقَـــتَـــنا وبَـــعْـــ	ــضُ القَـوْمِ يسْـقُطُ بَيْنَ بَيْنَـا[٧]
هَـــلاَّ سَـــأَلْـــتَ جُمُـــوعَ كِنْـــ	ــدَةَ يَــوْمَ وَلّـوْا أيْــنَ أيْنَـا[٨]
أيَّـــامَ نَـــضْـــرِبُ هـــامَهُـــمْ	بِبَــواتِـــرٍ حَتَّـــى انْحَنَيْنَــا[٩]
وجُمُـــوعُ غَسَّـــانَ المُـــلُـــو	كِ أتَيْنَهُـمْ وقَــدِ انطَـوَيْنَــا[١٠]
نَحْــنُ الألَــى فَـــاجْمَـــعْ جُمُـــو	عَــكَ ثُـمَّ وجِّهْهُـــمْ إلَينَــا[١١]
واعْـلَــمْ بِـــأنَّ جِيَـــادَنَـــا	آلَيْـــنَ لا يَقْضِيـــنَ دَيْـنَــا[١٢]
ولقَـــدْ أبَحْنَـــا مَـــا حَـــمَيْـــتَ	ولا مُبِيـــحَ لِـمَـــا حَمَيْنَـــا[١٣]

(١) هذه الوقعات لم ترد في أي مصدر ويبدو أنها من خيال عبيد بن الأبرص.

(٢) أخبار المراقسة ص١٩٨، وديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م ص١٣٦، والأبيات على وزن مجزوء الكامل.

(٣) إذلالاً وحينا: هوانًا وهلاكًا.

(٤) المين والكذب سواء. وسراتنا: سراةُ القوم: رؤساؤهم ووجهاؤهم.

(٥) حُجر بن أم قطام: أبو امرئ القيس، وهكذا كان يكنى من طريق النبز.

(٦) الثقاف: تقويم الرماح. لوينا: أملنا وأعرضنا، و(صعدتنا: رمحنا).

(٧) الحقيقة: ما يحق للرجل حمايته وصيانته والذبّ عنه.

(٨) لعل هذا كان في زمن مضى من وقائع كندة ولم تذكره المصادر، أو هو من خيال عُبيد بن الأبرص كما ذكرنا.

(٩) البواتر: السيوف المواضي.

(١٠) جموع غسان: قبائل غسان التي كان منها ملوك الشام. وهذا يدل على أنه يفخر بقديم.

(١١) نحن الألى: يريد نحن المعروفون من القديم.

(١٢) آلين: أقسمن.

(١٣) أباحه: جعله مباحًا تتناوله كل يد. والقصيدة طويلة انظرها في ديوان عُبيد ص١٣٦.

٦- نقائض داحس والغبراء:

يؤكد الرواة على أن حربَ داحس والغبراء بين عبس وذبيان قد استمَرَّتْ أربعين عامًا، وداحس هو فرسُ قيس بن زهير بن جزيمة العبسى، والغبراء فرس حُذيفة بن بدر الذبياني، وقد تراهن قيسٌ وحُذيفة على سباق بين فرسيهما - داحس والغبراء - وخدع حُذيفة قيسًا إذ أمر بكمين في الثنية ليوقفوا داحسًا حتّى تسبق الغبراءُ، وكشف قيسُ الخُدعة، وبسبب ذلك كانت الحربُ الطويلةُ بين الحيين[١]:

وقد بدأها قيس بن زهير بغارته على بني بدر وقتلَ عوفَ بن بدر أخا حُذيفة وأخذ إبلَه، وكان أخوه مالك بن زهير مقيمًا في بني بدر لأنَّه كان متزوجًا منهم، فأرسل إليه قيسٌ يخبره بما صنع ويأمره بالرحيل عن بني بدر قبل أن يقتلوه، وأنَّه لا ينبغي له أن يأمنهم وإن فعل فإنَّه هالكٌ لا محالة[٢]:

أمالكُ لا تأمنْ فزارةَ واخشها ... فإنَّكَ إن تأمنْ فزارةَ هالكُ

أمالكُ إن تحسبْ مكانكَ فيهم ... صوابًا فقد أخطأتَ في الرأى مالكُ

فيرفض مالكٌ النصيحة، ويرد عليه قوله، لأنَّه لم يقتل أحدًا حتى يُطلب الثأر منه، وعلى قيس أخيه أن يتحمل وزر ما صنعتْ يداه وأنه لن يترك جوار بني بدر بسبب فِعْلَة أخيه[٣]:

يا قيسُ حسبُكَ ما أتيتَ فخلّني ... وبني فزارة إنّني مُتماسِكُ

---

(١) انظر تفاصيل حرب داحس والغبراء في أيام العرب قبل الإسلام لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق الدكتور/ عادل جاسم البياتي، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، طبعة دار الكتب المصرية (١٧/١٨٧).

(٢) أيام العرب قبل الإسلام (٢/١٩٤)، والأبيات على وزن البحر الطويل.

(٣) السابق (٢/١٩٤)، والأبيات على وزن البحر الكامل.

أترى حذيفة آخذي بجريرةٍ لم تجنها كفّي وأنت الفاتكُ

ويدفع مالكُ بن زهير حياته عندما أعرض عن نصيحة أخيه إذ يقتلُه حملُ بن بدر ويأخذ منه سيفه (ذو النون)، ثم يقتلُ الحارثُ بن زهير حملَ بن بدر بأخيه يوم الهباءة[1]، ويأخذ منه سيف أخيه القتيل، ويفخرُ الحارثُ بذلك لأنّه أخذ سيف أخيه عنوةً ولم يأخذه بالحيلة أو المودة[2]:

تركتُ على الهباءةِ غيرَ فخرٍ حذيفةَ حوله قِصَدُ العوالي
سيُخبِرُ قومَه حنشُ بن عمرٍو إذا لاقاهُم وابنا بلال
ويُخبرهم مكانَ النونِ منّي وما أعطيتهُ عرقَ الخلالِ[3]

فيرد حنشُ بن عمرو أخو بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان عليه فخره، لأنّه كان جبانًا في المعركة، ويدلل على قوله بأن الحارث كان واقفًا ومعه ترسه في يده وقد هجم قرواش وعمرو بن الأسطح وقتلا مَنْ قتلا من بني عبس وهو ينظر إليهما ولم يحرك ساكنًا فلا مجال لفخره على بني ذبيان[4]:

سيخبُرك الحديثَ بكم خبيرٌ يجاهدُكَ العداوةَ غيرَ آلِ
بداءَتُها لقرواشٍ وعمرٍو وأنتَ تجولُ، جوبكَ في الشمالِ[5]

وكان الربيعُ بن زياد العبسي مُقيمًا في بني بدر، وأراد قيسُ بنُ زُهير أن يتقوّى به، ولا ينبغي للربيع أن يخذل قومَه عند المحن، وعليه أن يحذو حذوَ أبيه في

(١) انظر في يوم الهباءة: أيام العرب قبل الإسلام (٢/٢١٨)، والعقد الفريد لابن عبدربه، تحقيق الدكتور/ عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م (٦/٢٢).
(٢) أيام العرب قبل الإسلام (٢/٢١٨)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الوافر.
(٣) العرق: المكافأة، والخلال: جمع الخلة، وهي المودة.
(٤) أيام العرب قبل الإسلام (٢/٢١٨).
(٥) قرواش: هو قِرْواش بن عوف بن عاصم بن عُبيد بن ثعلبة بن يربوع، وهو صاحب «جلْوَى» أم داحس. انظر الأغاني (١٧/١٨٧)، والجَوْبُ: الترس.

الشجاعة وحسن الخلق وحماية القبيلة، وأنه إن لم يفعل ذلك فهذا هو البلاء الذي سيعمُّ جميع بني عبس[١]:

أينجُو بنُو بدرٍ بمقتلِ مالكٍ ... ويخذلُنا في النائباتِ ربيعُ

وكانَ زيادُ قبلهُ يُتَّقَى بهِ ... من الدَّهرِ إنْ يومٌ ألمَّ فظيعُ

فقُلْ لربيعٍ يحتذي فِعْلَ شيخِهِ ... وما النَّاسُ إلا حافظٌ ومضيعُ

وإلا فما لي في البلادِ إقامةٌ ... وأمرُ بني بدرٍ على جميعِ

ولكنّ الربيع بن زياد يرد على قيس قوله، فالحرب إذا كانت قادمة لا محالة فإنّه لم يكن السبب فيها، وعلى مَنْ أشعلوها أن يتحمَّلُوا نارها، وبالرغم من ذلك فإنّه لا يستطيع أن يخذلَ قومَه أبدًا، وهذا ليس وقت اللوم[٢]:

فإنْ تكُ حربُكم أمسَتْ عوانًا ... فإنّي لم أكُنْ ممّنْ جَناهَا

ولكنْ ولْدُ سَوْرةَ أرَّثُوهَا ... وحشُّوا نارَها لمن اصطلاهَا

فَإنِّي غيرُ خاذِلِكُم ولكنْ ... سأسْعَى الآنَ إذ بلغَتْ مَدَاهَا

ويتصل بالربيع بن زياد أنّه كان نديمًا للملك النعمان بن المنذر، وعندما ذهبَ أبو براء عامر بن مالك وإخوته: طُفَيل ومعاوية وعُبيدة ومعهم ابن أخيهم لبيد بن ربيعة وهو غلام إلى النعمان بن المنذر وجدوا منه تغيُّرًا وجفاءً لأن الربيع بن زياد طعن فيهم عنده وذكر معايبهم، وكانوا يدخلون على النعمان إلاّ لبيد، كان في رحالهم يحفظ أمتعتهم ويغدو بإبلهم كُلَّ صباح فيرعاها، وعندما وجد أعمامه في غـمّ مما فعل بهم الربيعُ بن زياد، طلب منهم أن يصحبوه عند دخولهم على النعمان، وعندما دخل لبيدٌ وأعمامُه كان النعمان والربيع بن زياد يأكلان، وتكلم أعمامُ لبيد واعترضَ الربيعُ بن زياد كلامهم فقال لبيد[٣]:

---

(١) أيام العرب قبل الإسلام (٢/٢٠٣)، والأبيات على وزن البحر الطويل.

(٢) أيام العرب قبل الإسلام (٢/٢٠٣)، والأبيات على وزن البحر الوافر.

(٣) الأغاني (١٧/١٨٥).

يـــارُبّ هيْجـا هي خيرٌ مـــــن دعَــهْ

أكُــلّ يـــوم هامَــــتِي مقـــزَّعهْ[١]

نحــن بَنُــو أمِّ البنـــينَ الأربــــعهْ[٢]

ومِـــــنْ خيارِ عامـــرِ بْنِ صَعْصَـــعَـــه

المطعـــمون الجَفْـــنَةَ المُدَعْـــدَعـــهْ

والضـــاربون الهـــامَ تحت الخَيْضَعه[٣]

يا واهِـــبَ الخـــيرِ الكثـــيرِ مِنْ سَـــعهْ

إليــكَ جــاوَزْنَـــا بـــــلادًا مُسْبِعَـــهْ

يخبــر عـــن هـــذا خبيــرٌ فاسْمَعَــــهْ

مَهْلًا - أبَيْـــتَ اللّعْـــنَ - لا تأكُلْ معهْ

إنّ استَـــهُ مِـــــنْ بــــرصٍ مُلَمّعــــهْ

وإنَّـــهُ يُدْخِـــلُ فيـــها إصبـــــعه[٤]

يُدْخِلُهـــا حتـــى يُـــوارِي أشْجَـــعَهْ

كأنَّمـــا يطلـــبُ شيئًا أطمَـــعَــــــه[٥]

فلما فرغ من إنشاده التفت النعمانُ إلى الربيع شزرًا يرمقهُ، فقال: أكَذا أنت؟

---

(١) القزع: تساقط الشعر والصوف وبقاء بعضه.

(٢) أم البنين، هي ليلى بنت عامر. قال المرتضى: هي بنت عمرو بن عامر بن ربيعة؛ وكانت تحت مالك ابن جعفر، فولدت له عامر بن مالك، وطفيل بن مالك، وربيعة بن مالك، ومعاوية بن مالك.

(٣) المدعدعة: المملوءة، الخيضعة: البيضة التي تلبس على الرأس. والخيضعة أيضًا: اختلاط الأصوات في الحرب.

(٤) الململع: الذي يكون في جسده بقع تخالف سائر لونه.

(٥) الأشجع: واحد الأشاجع وهي أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.

قال: لا، والله، لقد كذب عليّ ابن الحَمِق اللئيم. فقال النعمان: أُفٌ لهذا الغلام، لقد خبَّث عليّ طعامي.

فأمر النعمان ببني جعفر فأُخرِجُوا. وقام الرَّبيع فانصرف إلى منزله، فبعث إليه النعمانُ بِضعْف ما كان يَحْبُوه به، وأمره بالانصراف إلى أهله.

وكتب إليه الربيع: إني قد تَخَوَّفتُ أن يَكونَ قد وَقَر في صَدْرِك ما قاله لبِيد، ولستُ برائمٍ حتى تبعث مَنْ يجرِّدُني فيعلم مَنْ حضرك من الناس أنِّي لستُ كما قال. فأرسل إليه: إنك لستَ صانعًا بانتفائك ممَّا قال لبيد شيئًا، ولا قادرًا على مازلّت به الألسن، فالحق بأهلك. فأخذ الربيع يدافع عن نفسه مؤكدًا كذب لبيد بن ربيعة طالبًا الإنصاف من النعمان[1]:

لئــن رحلــتْ جِمالــي إنَّ لي ســعةً ... ما مِثْلُهـــا سَعَـــة عَرْضًا ولا طُـــولَا
بحيْــثُ لو وُزنــتْ لَخْــمُ بأجمعِـــها ... لم يَعْدِلُـوا ريشَــةً من ريـشِ سمويلا[2]
ترْعــى الرَّوائــمُ أحــرار البقُــول بها ... لا مِثْــلَ رَعْيكم مِلْحًا وغسْـــويِلا[3]
فابـــرُقْ بأرضـــك يا نَعــان متّــكِئًا ... مع النطاسيّ يومًا وابـــن توفيـــلا

لكن النعمان يردُّ عليه طلبه ويؤكد عزمَهُ على رحيل الربيع بن زياد إلى أهله[4].

شـرِّدْ برَحلْك عني حيثُ شـئتَ ولا ... تكثِـرْ علـيّ ودَعْ عنك الأبـــاطيـــلا
فقـد ذُكـرتَ بـه والرَّكْـــبُ حامِلُـــه ... وِرْدًا يُعلِّــل أهـــلَ الشـــام والنِّـيلا
فمـــا انتِـفاؤك مِنْهُ بعد ما جزَعَـــتْ ... هُـوجُ المطــيّ به إبْـــرَاقَ شِمْليـــلا
قـد قِيــلَ ذلـكَ إنْ حقًّا وإنْ كـذِبـاً ... فمـا اعـتذارُكَ مــن شـئ إذا قِيـــلا
فالْحقْ بحيـث رأيـتَ الأرضَ واسعـةً ... وانشُرْ بها الطَّرْفَ إنْ عـرضًا وإن طولا

(١) الأغاني (١٨٦/١٧)، والأبيات على وزن البحر الوافر.
(٢) سمويل: طائر، وقيل: بلدة كثيرة الطير.
(٣) الغسويل: نبت ينبت في السباخ.
(٤) الأبيات في الأغاني (١٨٦/١٧)، وهما على وزن البحر البسيط.

٧- نقائض يوم برزة:

وهو يوم لبني كنانة على بني سُلَيم وقُتِلَ فيه ذو التاج مالك بن خالد بن صخر بن الشريد وأخوه كُرْزٌ، قتلهما عبدالله بن جِذْل الطِّعان، وكانَتْ سُليم قد توَّجَتْ مالكًا وملَّكته عليهم وأخذ عبدالله بن جِذْل الطِّعان الكناني يفخرُ بقتْله الأخوين وشجاعته في ذلك، وكيف أنّه طعنَ مالك بن خالد طعنة فارس شجاع وليست طعنة فاتك، ثُمَّ طعنَ أخاه كذلك، لذا أصبحت سُلَيْمُ كُلُّهَا، ساداتُها وعامتُها تحت وطأة سيفه(١):

تجَنَّبْتُ هِنْدًا رَغبةً عن قتالِهِ
إلى مالكٍ أعشُو إلى ذِكْرِ مالِكِ
وأيْقَنْتُ أنِّي ثائِرُ ابنِ مُكَدَّمٍ
غداتَئذٍ أو هالِكٌ في الهَوالِكِ
فأنْفَذْتُهُ بالرُّمْحِ حين طَعَنْتُهُ
مُغَالَبَةً ليسَتْ بطَعْنةِ فَاتِكِ
وأثْنِي لكُرزٍ في الغُبارِ بطَعْنةٍ
عَلَتْ جِلْدَهُ منها بأحْمَرَ عَاتِكِ
قتَلْنَا سُلَيْماً غثَّها وسَمِيْنَها
فصَبْرًا عُصَيّ قد صَبَرْنا كذلك
دَهِمْنَا هُمُ بالخَيْلِ تَشْتدُّ بالضُّحَى
بغابَاتِ أَثْلٍ مُشْرِفَاتِ الحَوارِكِ
فِدى لهُمُ نفسِي وأُمِّي فِدى لهُمْ
ببُرْزَةَ إذْ يَخْبِطْنَهُم بالسَّنابِكِ

(١) كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار (١/١٢٢) وأيام العرب (٢/٣١٣) والعقد الفريد (٦/٣٨).

فــإن تــكُ نسْــوَانِـــي بَكَــيْنَ فقدْ بَكَــتْ

كمـــا قَــــدْ بكَــيْنَ أُمُّ كُــرْزٍ ومـــالِــكِ

وتثأرُ سُلَيمُ لنفسها، وتُجهِّزُ جيشًا جرَّارًا بقيادة عمرو بن خالد بن صَخْر بن الشريد، وقتلَتْ كثيراً من بني كنانة، منهم: عاصم بن المُعَلَّى وعمرو بن مالك وحصن والمُعَارك، وأخذ عباس بن مرداس السُّلمي يرد على ابن جذْل الطعان فخره بأنهم قد ثأروا لمالك وكرز بقتلهم ثمانية من أشراف كنانة، وأن هؤلاء الثمانية ليسوا كُفئًا لهما، وعلى ذلك فالموت ينتظر بني كنانة وأن سُليم ستلاحقهم أينما حلّوا[1]:

ألا أبْلِغـــا عنّـــي ابـــن جِـــذْلٍ ورَهْطَـــهُ

فكَيْــفَ طلَبْنَـــاكُــمْ بكُــرْزٍ ومَـــالِــكِ

غَـــداةَ فَجعْنـــاكـــمْ بسَعْـــرٍ وبـــابْنِـــهِ

وبـــابْـــنِ المُعَـــلَّى عـــاصـــمٍ والمُعـــارِكِ

ثمانِـــيةٌ منكـــمْ ثـــأرْنـــاكُـــمُ بهَـــا

جَميـــعًا ومـــا كَانُـــوا بَـــوَاءً بمـــالِــكِ

قَتَلْــناكُــمُ مـــا بَيـــنَ مثْنَـــى ومَوْحَـــدٍ

تَكُبّـــكُـــمُ أرْمـــاحُـــنَا فـــي المَعَـــارِكِ

نُذيقُكُـــمُ - والمَـــوْتُ يبْنِـــى سُــــرَادِقًا

عليكُــم بنـــا - حَــدَّ السُّيُــوفِ البَــواتِــكِ

---

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (١/١٢٨) وأيام العرب قبل الإسلام (٢/٣١٦).

تلـوحُ بأيْـديـنـا كمـا لاحَ بـارِقٌ

تـلألأ فـي داجٍ مـن اللّيْـلِ حَـالِـكِ

فطـوْرًا نُـلاقِيكُـمْ وطَـوْرًا نَعُلُّكُـمْ

بخطّيـةٍ فيـها سِـمَـامُ النّـيَـازكِ

صَبْحناكُـمُ العُـوجَ العَنَـاجِـيجَ بالضُّحى

تَمُـرُّ بنَـا مَـرَّ الـرِّيـاحِ السَّـوَاهِـكِ

إذا خـرجـتْ مِـن هَـبْوة بَعْـدَ هبْـوةٍ

سمـتْ نحْـوَ مُلْـتفٍّ مِـن المـوْتِ شـابِـكِ

مُـوكَّلَـةً بالسَّيْـرِ نَحْـوَ عَـدُوِّنَـا

وبالـرَّكْـضِ منّـا المُلحِـقِ المُـتَـدَارِكِ

ويبلغ يزيدَ بن عمرو بن كلاب مقتلُ مالكِ بنِ خالد وأخيه كُرز ويحزن عليهما ويرثيهما، ويؤكد أنّ قتلهما ليس بالأمر الهيّن على نفسه وسوف ينتقمُ من قاتلهم، ويحرّضُ عباسًا الأصم أبا أنس الرِّعْليّ على بني فِراس قوم عبدالله بن جِذْل الطعان[1]:

لعَـمْـرى ومـا عَمْـرِى عَلَـىّ بهَـيّنٍ

لقـدْ خبّـرَ الرَّكْـبُ اليمـانِـي فأوجَعَـا

نَعَـوْا مَالِـكًا فقُلْـتُ ليـس بمـالـكٍ

ولمْ أسْتَطِـعْ عـن مَـالِـكٍ ثَـمَّ مَـدْفَعَـا

---

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (١٢٤/١، ١٢٥) وأيام العرب قبل الإسلام (٣١٤/٢)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الطويل.

فـــأبْلِـــغْ سُليـــمًا أنَّ مقْتَـــل مَـــالِـــكٍ
أذلَّ سُـهُولَ الأرْضِ والـحَــزْنَ أجْمَـعَـــا

فللـــه عيْنـــا مـــنْ رأى مثْـــل مـــالـــكٍ
قَتيـــلاً بحَـــزْنٍ أو قَتِـــيلًا بأجْـرَعَـــا

فـلا تشْـربـــنْ خَمْـــرًا ولا تـــأتِ حاصِـــنًا
أبـــا أنَـــسٍ حتَّـــى يَـــرَوْكَ مُقنَّـــعَـــا

فلـــوْ مالِـــكٌ يَبْغِـــى التِّـــرَات لَقـــدْ رأوْا
نـــواصِـــى خَيْـــلٍ تنفُـــضُ السُّـــمَّ مُنْقَعا

أنَـــازِلَـــةٌ غَـــدَوْا فِـــرَاسٌ بفَخْـــرِهَـــا
عُكَـاظَ ولم نَجْـــزِىء لهـــا الصّـــاعَ مُتْرَعَـــا

فيرد عليه عبدالله بن جِذْل الطِّعان بكاءه وتهديده، فدموعه الغزيرة التي يسفحُها على قتلَى بني سُلَيم هي دموعُ ضلالٍ، إذْ كان الأَوْلَى به أن يسفحَها على قَتْلَى قومه من بني كلاب وأنه بذلك مثل المرضعة التي تهتمُ بأولاد أُخرى وتتركُ بنيها للهلاك جوعًا وهم الأحقُّ والأَوْلَى برعايتها[1]:

لعَمْرى لقـــد سَحَّـــتْ دُمـــوعُـــك ضِلّـــةً
تُبَكّـــى علـــى قتْلَـــى سُلَيْـــمٍ وأشْجَـــعَـــا

فهلاّ شُتَـــيْرًا أو مَصَـــادَ بـــنَ خـــالـــدٍ
بَكيـــتَ ولم تـــتْرُكْ لهـــا الدَّهْـــرَ مجْزَعَـــا[2]

تُبَكّـــى علـــى قَتْلَـــى سُلَيْـــمٍ سَفَـــاهَـــةً
وتَتْـــرُكُ مَـــن أمْضـــى مُقيـــمًا بضَلْفَـــعَـــا

---

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (١/١٢٥، ١٢٦) وأيام العرب قبل الإسلام (٢/٣١٤).

(٢) في الاشتقاق ٢٩٧: «شتير بن خالدٍ، كان فارسًا شريفًا، وقتل الحصين بن ضرار الضبيّ، وابناه: مصاد وعنّبه، ابنا شتير.

كمُـــرْضِـــعـــةٍ أوْلادَ أُخْـــرَى وضَيَّعَـــتْ

بَنِيهَـا فلـم تَـرْقَـعْ لذلِـك مَـرْقَعَـا[1]

لقـــدْ تـركـتْ أفنـــاءُ خِـــنْدِف كُلّـــهـــا

لعَيْنَيْـك مَبْكـــىً إنْ بَكيْـــتَ ومَـــدْمَعَـــا

تُـــحَـــرِّضُ عَبّاســـــاً علَيْنَـــا وعِـــنْـــدَهُ

بَـــلاءُ طِعَـــانٍ صَـــادقٍ يَـــوْمَ نَصْرِغَـــا[2]

فـــإنَّـــا بِهـــذا الـجِـــزْعِ قد تَعْلَمُـــونَـــه

وإنَّ على الـجِـــفْـــرَيْـــن دهْمـــاً مُمَنَّعَـــا

ويكون شعرُ يزيد بن عمرو الكلابي السابق هو الشرارة التي أجَّجَتْ نارَ الثأر في صدور بني سُلَيْم لأنّه طلبَ العون في الثأر لهم من رجُلٍ من بنى رعل، فتجهَّزوا وتقابلُوا بالكديد[3]، وهُزِمَتْ كنانة أمام بني سُلَيْم، فأخذَ هند بن خالد بن صخر بن الشريد السُّلمى يفخر بأنّه ثأر لأخويه مالك وكرز، وأنّه قتل سادة كنانة ليعلمَ الناسُ أنّ أبناء الشريد السُّلّمي لا يتركون ثأرًا لهم[4]:

قتلتُ بمـــالـــكٍ عَمْـــرًا وحصـــنـــا وجليّـــتُ القتـــامَ علـــى الـخـــدودِ

وكُـــرزا قـــد أبـــأتُ بـــه شُـــرَيْـــحَا علـى أَنَـسِ الفـــوارس بالكَـــديـــدِ

جـزينـــاهُـــم بمـــا انتهكُـــوا وزدنـــا عليه مـــا وجـــدنا مـــن مَـــزيـــدِ

(١) في اللسان مادة (ضلفع) روى البيت:

اتنســـى قُشـــيرا والشـريـد ومالكـــا وتذكـر من أنـس سَليـمـا بضلفـــعا

(٢) هذه قد يكون فيها توكيد خفيف أي يوم نصْرَ عَنْ.

(٣) الكديد: موضع بالحجاز على اثنين وأربعين ميلاً من مكة، معجم البلدان «الكديد» (٤/٤٤٢)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الوافر.

(٤) أيام العرب قبل الإسلام (٢/٣١٦) والأنوار ومحاسن الأشعار (١/١٢٩، ١٣٠).

جلبْنا من جنوب الفردِ جُردًا كطيرِ الماء غلّى للورودِ
عليها كُلُّ أروعَ أريحيٍّ كضوء البدر من آل الشريدِ
صبحنا الحيّ حيّ بني فراسٍ ململمةً توقّدُ في الحديد

وتأتي المُعَارضة من داخل بني سُليم، إذ يغضبُ نُبَيْشَةُ بن حبيب السُّلّمى لما ذكره وافتخر به هند بن خالد في شعره السابق، لأن يوم الكديد هذا لم يشهده هند بن خالد ولا أحدٌ من بني الشريد وإنّما كان لنُبيشة دون بني الشريد فكيف يفخر هندٌ بيوم لم يشهده وببطولات غيره فمن أقبح القبائح أن يأخذ المرءُ فضل غيره، وأن يقول ما لا يفعل[1]:

تبخّلُ صُنعَنا في كلِّ يومٍ كمخضوب البنانِ ولا تصيدُ
وتأكلُ ما يعافُ الكلبُ منه وتزعمُ أنّ والدك الشريدُ
أبى لي أن أقرَّ الضيمَّ قيس وصاحبُه المَزُورُ به الكديد

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (١/١٣٠)، وأيام العرب قبل الإسلام (٢/٣١٧).

٨- النقائض في يوم جدود:

وهو يومٌ لبني سعد من تميم على بني شيبان من بكر بن وائل وكان على رأس بني شيبان الحوفزان الحارث بن شَريك وعلى رأس بني سعد قيس بن عاصم، وكان بين الحوافزان وبين عُتيبة بنِ الحارثِ بن شهاب اليربوعي التميمي[١] مُوادعةٌ، فتصالح الحوفزان مع بني يربوع من تميم على أن يسمحوا له ولجيشه من بني شيبان بالمرور من ديارهم حتى يبلغوا طلبهم في بني عمومتهم من تميم، وينتصر بنو تميم على الحوفزان وبني شيبان لذلك يهجو قيسُ بن عاصم بني عمومته (يربوع) أولاً لأنّهم سالموا العدو، وكشفوا ظهرهم في القتال، لذا سوف ينالون عقابهم جزّاء ما فعلوا، وأنّهم النموذج الأسوأ في ديار العرب، فعندما يُدْعون للطعام لا يتغيّب منهم أحدٌ وعند القتال لا يكْتفون بالفرار بل بمساعدة العدو على أبناء عمومتهم، ثم يفخر بأنّ قومه هم الذين يعصمون بني تميم من الأعداء[٢]:

جزى اللهُ يــرْبُــوعــاً بأسْــوَإ سَعْيِــهَا
إذَا ذُكِــرتْ في النّــائبــاتِ أمُــورُهَـــا

ويــوْمِ جــدُودٍ قــدْ فضحْــتُمْ أبــاكُــمُ
وسَالَمْتُـمُ والخَيْـلُ تَــدْمَــى نُحُــورُهَـــا

فأصْبحْــتُـــمُ واللهُ يَعْلَــمُ ذَاكُــمُ
كَمَهْنُــوءَةٍ جَــرْبَــاءَ أُبْــرِزَ كُــورُهَـــا

---

(١) هو فارس بني تميم في الجاهلية غير مدافع، وهو أحد الفرسان الثلاثة المعدودين، أسر بسطام بن قيس يوم الغبيط وقتلته بنو أسد ليلة خَوّ، الاشتقاق ص٢٢٦.

(٢) الأنوار ومحاسن الأشعار (١/٩٣، ٩٤)، وأيام العرب قبل الإسلام (٢/٤١٤)، والأبيات ١،٢،٤ في الأغاني (١٤/٨٠)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الطويل.

ستخْـزمْ سـعْدٌ والـربّـابُ أنـوفـكـمْ

كمـا غـاطَ في أنْـفِ الظّـؤورِ جَـريـرُهَـا

أفخْـرًا علـى المَـولى إذَا مـا بَطِنْتُـمُ

ولُـؤمـاً إذا مـا الحَرْبُ شُـبّ سَعِـيرُهَـا

أتـانِـي وعِـيدُ الحَـوْفـزَانِ ودُونـه

مِـن الأرْضِ صَحْـراوَاتُ فَلْـجٍ وقُورُهَـا

أقـمْ بسَبيـل الحيّ إن كُنْـتَ صـادِقـاً

إذا حَشَـدَتْ سَـعْدٌ وثـابَ نفيرُهَـا

عصَمْـنَا تَميـمًا في الحُـرُوبِ فأصْبَحَـتْ

يَلُـوذُ بنـا ذُو مـالِهـا وفَقيـرُهَـا

ويرد مالكُ بن نويرة اليربوعيّ على قيس بن مالك المنقري فخرَهُ ببني منقر قومه، وهجاءَه لبني يربوع، فأما فخر قيس بن مالك بأن بني منقر يحمون تميمًا فهذا مردود لأنهم في الحرب مثل الإماء أو كبغاث الطير لا فائدة تُرجى منهم، والدليل على ذلك أنهم يدفعون عُشر أموالهم إلى ابن كوز الضبيّ اتقاءً لقوته وسطوته عليهم[١]:

سـأسْـألُ من لاقَـى فَـوارِسَ مِنْقَـرٍ

رِقَـابَ إمَـاءٍ كَيْـفَ كـانَ نَكيـرُهَـا

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (١/٩٥)، وأيام العرب قبل الإسلام (٢/٤١٤).

وكُنْتُـــمْ بغاثــاً إذْ لقيتُــمْ نـــداكـــــــمْ
مِـنَ القَـوْمِ ضَــأْنـاً لابنِ كُـوز عُشُورُهــــا[1]

فهـــذا أَوانُ القَـــذْعِ بَيْنـــــى وبَيْنكـــمْ
كَـــوَادِنَ جُــنْـــدٍ نَفَّلَتْــهـا أيـــورُهَــــا[2]

مُجُوسِيَـــةٌ كَعْـــبُ بـــن سَـــعْدٍ ويَنتـــهى
إلـى بَيْـــتِ قَيْـسٍ غَـــدْرُهـــا وفُجُـورُهـــا

---

(١) البُغاث والبَغاث، بالضم والفتح، كُلُّ طائر ليس من جوارح الطير، وبَغاثُ الطير: ألائِمها وشِرارُها وما لا يصيد منها. اللسان «بعث» (١/٤٥١)، والعُشُور: أخذ عُشر الأموال. (اللسان) عشر (٩/٢١٧)، وابن كوز: رجل من ضَبَّة. انظر: اللسان «كوز» (١٢/١٨٦).

(٢) النَّفَلُ ، بالتحريك: الغنيمةُ والهبة. اللسـان «نقـل» (١٤/٢٤٤)، والقَذَعُ: الفُحْشُ. اللسان «قذع» (١١/٧٤)، والكودان: هم بنو منقر رهط قيس بن عاصم. انظر ترجمته في الأغاني (١٤/٦٩).

٩- يوم ذي نجب:

وهو يومٌ لبني تميم على بني عامر، وفيه أُسِرَ يزيد بن عمرو الكلابي، وبعد أن افتدى نفسه أخذ يهجو بني تميم، ويعيرهم بأنهم يحبون الطّعامَ ويؤثرونه حتّى لو أدى إلى هلاكهم، ويذكرهم بيوم تحريق عمرو بن هند لهم، وكان قد أقسمَ أن يحرق من بني دارم من تميم مائة رَجُلٍ لأنّهم قتلوا أخاه أسعد بن المنذر، وقد ظفر بتسعةٍ وتسعين رجُلًا منهم، وقذفَ بهم في النّار، وكان في الوقت نفسه يمرُّ وفد البراجم - وهم بنو حَنْظَلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم - أبناء عمومة بني دَارم المُحَرَّقين، فاشتمّوا رائحة اللحم فظنّوا أن عمرو بن هند يتخذ طعامًا، فعرَّج عليه أحدُهم، فقال عمرو: إنّ الشّقِيَّ وافدُ البراجم، ثُمَّ أمر به فَقُذِف في النار مُتَمِّمًا المائة، وهذه سُبَّةٌ في جبين بني تميم يذكرُهَا لهم يزيد بن الصعق الكلابي:

ألا أبْلِــغْ لديــكَ بنــي تميــمٍ ... بآيــة ذكـرهـم حــبّ الطعــامْ(١)

أجَــارتهــا أسَيَــدُ ثــم غــابَــتْ ... بــذاتِ الصّـرمِ منهـــا والســنام

فيرد عليه أوسُ بن غلفاء التميميُّ بأنّه لايعرف فضل بني تميم عليه إذ مَنُّوا عليه وأطلقوه بعدما وقعَ أسيرًا في أيديهم، فبدلًا من شكرهم والاعتراف بفضلهم كما يفعل الكرام، أخذ يزيد يهجوهم وتلك هي أفعال اللئام، ويذكره أوس بيوم أسره عندما أهانوه وضربوه ولم يك يدفع عن نفسه شيئًا:

فأجِـــر يزيـــد مذمومًا وانـــزعْ ... على علـــب بأنفِـــكَ كالخُـــطــام

وأنكَ مـــن هجـــاء بني تمـيـــمٍ ... كمُـــزدَادِ الغـــرام إلى الغـــرام

هـــم مَنُّوا عليـــكَ فلم تُثِبْــهـــم ... قتـــيلاً غـير شـــتْمٍ أو خـــصامِ

وهـــم ضربُوكَ ذات الـــرأس حتّـى ... بـــدتْ أمُّ الفـــراخ من العظـــامِ

وهـــم تركوكَ أسلـــح من حبــارى ... رأت صـــقرًا وأشـــرد من نعـــامِ

(١) الشعر والرد عليه في أيام العرب قبل الإسلام (٢/٥٤٤، ٥٤٥) وهي على وزن البحر الوافر.

١٠- يوم أضاخ:

وهو يوم بين بطني بني تميم، مجاشع ونهشل، وفيه انتصر حريٌّ بن ضَمّرة النهشليّ لجار له من بني أسد يُسمى عمرو بن عمران، كان قيس بن حسّان قد أخذ منه قلوصًا، فقام حري وضرب قيسًا بالسيف فقطع زنديه وأخذ منه ثلاثين بعيراً فدفعها إلى الأسديّ، فكلّم بنو نهشل حريَّ بن ضمرة أن يرد على قيس إبله فأبى، فطلب بنو نهشل من بني مجاشع الإبلَ أو يعلنوا أن حريًّا قد أصبح خليعًا ليتمكنوا منه، فخلع بنو مجاشع حريًّا، فأخذه بنو نهشل وضربوه بأضاخ وأخذوا منه ثلاثين بعيراً.

وعلى أثر ذلك يهجو شَماسُ بن أسود الطهوى حريَّ بن ضمرة النهشلي هجاءً مقذعًا، فقد عيّره بالضرب والسّحل ببطن أضاخ وأنَّ بني مجاشع أعزة يدربون الغير على العزة والكرامة، وأن حريَّ بن ضمرة لا يعلم شيئًا عن صلة الرحم ولعل شسع النعل أكثر علمًا منه[1]:

يَا ويحَ حـــرّي علينـــا ورهطـــه	ببطـن أضاخِ إذ يُجـرُّ ويُسْـــحَبُ
قضـــاءً لنوَاس بمـا الحـق غــــيره	كذلك يخـــزوك العـــزيــزُ المـدرّبُ
فإلاّ تصـــل رحــم بن عـــمرو بن مرثد	يعلّمـكَ وصلَ الرحـم نِسْعُ معضّـب
فإنــــك لولا خفــرُكَ العــز حلّقــت	بما نلـت من قيــس عُقـــابٌ تَقَلّبُ
فصـــرْتَ ذليـــلًا في الجمـار ودارمٍ	ولو خرشَتْ ما تحـت خصييك عقربُ
أغــــرّكَ يوماً أن يُقـــال ابــن دارم	وتُقْصَـي كما يُقْصَـى من البرك أجربُ
فـــأدِّ إلى قيـسِ بنِ حسّـــان ذودَهُ	وما نيـل منـك التمـر أو هو أطيب

ويأتي رد حَريُّ بن ضَمْرة قويًّا، فهو يرد على الهجاء بهجاء مُمَاثل ويزيد على ذلك

(١) أيام العرب قبل الإسلام (٢/٦١٤)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الطويل.

فخره بنسبه، أما الهجاء، فقد عمد على أن رهط شماس لا يجدون لهم مكانًا غير الذل، فعندما ينقسم الناس إلى فريقين: ذليل وعزيز، فإن الذل هو نصيب رهط شماس ولا مهرب لهم عنه، وأن ما وصف به شماسٌ حريَّ بن ضمرة فهو كذب وبهتان، لأن حري بن ضمرة ورهطه هم ذؤابة بني دارم التي كتب لها الله العزو السؤدد[1]:

يا ويـح شمَّـاس علينـا ورهطـه … إذا النـاس عَـدُّوا تبعـهم وتحزّبـوا
ولاذ الذليـلُ بالعزيـز فلَـمْ يكُـنْ … إلى رهطِ شـمَّاسٍ من الـذُّلِ مَهْـرَبُ
فأنـ على مَـنْ كـان من شحط بيننـا … كمـا قيل للواشـي أغـش وأكـذبُ
بكفّـي حُسام ما نَبـا عن ضريبـةٍ … ونبعيّـةٍ مـمّـا تجـودُ عليّـبُ
أُمِـرُّ لهـا مربـوعُ مـتنٍ كـأنّـه … مـرئُ قطـاةٍ لمّـه المتعقّـبُ
وزرقٌ قـرانٌ يقلـسُ السُّـمَّ حـدُّها … يـذرّ عليهـا سمّـها وتـذرّبُ
لنـا رأسُ ربعـيٍّ من المجـدِ لم يـزلْ … لـدُن أن أقامَتْ في تهـامة كبـكبُ
أبـى اللهُ ما دامَـتْ ذؤابـةُ دارمٍ … لي الـدّهـرُ عمٌّ يحـرثُ المجـدَ أو أبُ

---

(١) أيام العرب قبل الإسلام (٢/٦١٤).

١١- يوما الجفار[١] وذات الشقوق[٢]:

تحالفتْ أسدٌ وطيءٌ وغطفانُ، وغزت بني عامر بن صعصعة يوم النِّسار[٣] فقتلُوا بني عامر قتلًا شديدًا. فغضبت تميمٌ لبني عامر فتجمَّعوا معهم حتَّى لقوا الأحلاف أسدًا وطيئًا وغطفانَ، يوم الجفار، فَقُتِلَتْ تميمٌ أشد مما قُتِلَتْ عامرٌ فأخذ بشرُ بن أبي خازم الأسديّ يفخرُ على تميمٍ وعامرٍ ويعدد هزائمهم المتتابعة أمام بني أسد[٤]:

سائِلْ تميمًا في الحروبِ وعامِرًا ... وهلِ المُجرِّبُ مثلُ مَنْ لم يَعْلَمِ[٥]

غضِبَتْ تميمُ أنْ تُقتَّلَ عامِرٌ ... يَوْمَ النِّسارِ فأُعْقِبُوا بالصَّيْلَمِ[٦]

كُنَّا إذا نَعَرُوا لِحَرْبٍ نَعْرَةً ... نَشْفِي صُدَاعَهُمُ بِرَأسٍ مِصْدَمِ[٧]

نَعْلُو القَوانِسَ بالسُّيُوفِ ونعتزي ... والخَيْلُ مُشْعَلَةُ النُّحُورِ من الدَّمِ[٨]

---

(١) الجِفار، بالكسر، موضع بنجد، معجم البلدان «الجفار» (١٤٥/٢).

(٢) ذات الشُّقُوق: موضع بين ديار بني يربوع من تميم وبني أسد. انظر: معجم ما استعجم «ذات الشقوق» (٨٠٦/٣).

(٣) النِّسار، بكسر أوله على لفظ الجمع، أجْبل صغار في حِمى ضرية. انظر: معجم ما استعجم «النساء» (٣٠٦/٤).

(٤) الأبيات من المفضلية رقم (٩٩) وعددها اثنان وعشرون بيتًا. وهي والرد عليها على وزن البحر الكامل.

(٥) المجرب، بكسر الراء وفتحها. مثل: نقل الأنباري أن الرواية بالنصب وأن الرفع جائز، وقال: «نصب مثل على مذهب الصفة»، وأراد بالصفة أنه ظرف، وهو مذهب الكوفيين.

(٦) الصيلم: الداهية. أي كانت الصيلم عاقبة أمرهم. ورواة في اللسان: «فأعتبوا» من الإعتاب، وهو الإرضاء. وهذا تهكم.

(٧) نعروا: صاحوا. الرأس: القوم إذا كثروا وعزوا. مصدم: شديد. جعل شفاء الصداع مثلا، كأنه قال: أتونا وفي رؤوسهم منا أمر يريدون أن يبلغوا فيه منا فأذهبنا ذلك عنهم وأخلفناه عندهم برأس مصدم.

(٨) القونس: وسط بيضة الرأس. نعتزي: الاعتزاء أن ينتسب الرجل إلى أبيه، يقول عند اللقاء لخصمه: خذها وأنا ابن فلان. المشعلة: التي كثر فيها الدم فصار كالشعلة.

يَخْرُجْن من خلل الغُبار عوابسًا — خبب السباع بكُلِّ أكْلف ضيْغم[1]

من كلِّ مُسْتَرْخِي النِّجادِ مُنازِلٍ — يَسْمُو إلى الأقْرانِ غيرِ مُقلَّم[2]

ففضضْنَ جَمْعَهُمُ وأفْلَتَ حاجِبٌ — تحْتَ العَجاجَةِ في الغُبارِ الأقْتَم[3]

ورأَوْا عُقابَهُمُ المُدِلَّةَ أصْبَحَتْ — نُبِذَتْ بأفْضَحَ ذِي مَخالِبَ جَهْضَم[4]

أقْصَدْنَ حُجْرًا قبل ذلك والقنا — شَرِعٌ إليهِ وقد أكَبَّ على الفَم[5]

يَنوِي مُحاوَلَةَ القِيام وقد مَضَتْ — فيهِ مَخارِصُ كلِّ لَدْنٍ لَهْذَم[6]

وبَنِي نُمَيرٍ قد لَقِينا منهُمُ — خَيلًا تَضِبُّ لِثاتُها لِلمَغْنَم[7]

فَدَهَمْنَهُمْ دَهْمًا بِكُلِّ طِمِرَّةٍ — ومُقَطِّعٍ حَلَقَ الرِّحالَةِ مِرْجَم[8]

ولقد خَبَطْنَ بَنِي كِلابٍ خَبْطَةً — أَلْصَقْنَهُمْ بِدَعائِمِ المُتَخَيَّم[9]

---

(١) العوابس: الكريهات المنظر لما لهن فيه من الحرب والجهد. خبب السباع: الخبب ضرب من العدو. الأكلف: الذي يخالط بياضه سواد، عنى به الفارس. الضيغم: الأسد.

(٢) النجاد: حمائل السيف. أراد أنه طويل الحمائل لطوله. المقلم: الذي ليس بتام السلاح، يعني أنه كامل السلاح. وهذا المعنى نقله الأنباري وليس في المعاجم، وكأنه نظر فيه إلى قولهم «أسد أظفاره لم تقلم».

(٣) حاجب: هو ابن زرارة وكان رئيس القوم.

(٤) العقاب: الراية التي يقاتلون تحتها. قال المرزوقي: «كانت راية بني تميم على صورة العقاب، وراية بني أسد على صورة الأسد». المدلة: التي أصحابها مدلون بجمعهم. بأفضح: يعني بأسد فيه حمرة وبياض. وفيه إشارة إلى راية بني أسد. الجهضم: القوي الشديد، أو هو الذي إذا قبض على شيء مات مكانه من شدة قبضته. وهذان التفسيران ليسا في المعاجم.

(٥) أقصدن: قتلن: حجر: هو ابن عمرو الكندي والد امرئ القيس، كان ملكًا على بني أسد ثم قتلوه.

(٦) المخارص: الأسنة. اللدن: اللين المهزة. اللهذم: الحاد. أي ينوي أن يقوم فلا يقدر وقد مضت فيه الأسنة.

(٧) تضب لثاتهم: تسيل من الحرص، وأراد بالخيل الفرسان.

(٨) دهمنهم: غشينهم وحملن عليهم. الطمرة: الوثابة. الرحالة: سرج من جلود، يريد أنه لشدة وثبه يقطع حلق الرحالة. المرجم: الذي يرجم الأرض بشدة وقع حوافره.

(٩) المتخيم: موضعهم الذي خيموا به، أي أقاموا وبنوا الخيمة، يقول: داستهم الخيل حتى ألصقتهم بدعائم متخيمهم.

وصلقْـــن كَــعْبًا قبْـــلَ ذلكَ صلْقةً بِقَــنًا تعَـــاوره الأكُــفُّ مُقَــوَّم[1]
حتَّـــى سَقيْنَـــاهُمْ بكَـــأسٍ مُـــرَّةٍ مَكْـــرُوهَـــةٍ حَسَـــوَاتُها كالعَلْقَم[2]

وبعد هذا اليوم يُحَرِّمُ ضمرة بن ضمرة النَّهشَلي على نفسه الخمرَ حتى يظفر ببني أسد في يوم يُكافئ يوم الجفار، وأغارَ عليهم في يوم ذات الشقوق فَقَتَلَهُم قتلًا شديدًا ومن ثم نراه يفخر بهذا اليوم الذي أدرك فيه ثأره، ويرد على بشر بن أبي خازم الأسديّ فخره بالقوة التي هزمَتْ جموعَ تميم وعامر، لأن نساء هؤلاء الفرسان الذين يفخر بهم بشر قد أصبحنّ مرملات بعد يوم ذات الشقوق[3]:

الآن ســـاغَ لي الشـــرابَ ولـم أكُـــنْ آتـــي التجـــار ولا أشـــد تكلّمـــي
حتى صبحـــتُ على الشُّـــقوق بغارة كالتـــمر ينـــتز في حريـــر الحُـــرّم
وأبـــاتَ يومـــا بالجفـــار بمثـــلِهِ وأجـزْتُ نصَـــفًا من حديـــثِ الموسم
ومشـــتْ نساءُ كالظِّـــبَاءِ عواطـــلاً من بـــين عـــارفةِ السِّـــبَاء وأيِّـــم
ذهـــبَ الرِّمـــاحُ بزوجـــها فتركْـنَه في صـــدر مُعتـــدلِ القنـــاةِ مقوّم

(١) صلقن: ضربن، تعاوره الأكف: تداوله، يقال تعاورناه ضربا: إذا ضربته أنت ثم صاحبك. مقوم: صفة للقنا.

(٢) حسوات، بضم الحاء مع ضم السين وفتحها: جمع حسوة، وهي القليل مما يشرب قدر ملء الفم.

(٣) الأبيات في: أيام العرب قبل الإسلام (٢/٥٤٢)، والعقد الفريد (٦/٩٩،١٠٠) ونهاية الأرب (١٥/٤٢٢)، والأبيات على وزن البحر الكامل.

١٢- النابغة الذبياني والنقائض:

١-النابغة وعامر بن الطُّفيل:

ترأس عامرُ بن الطُّفَيْل بني عامر وهو شاب يتجاوز عمرهُ العشرين سنةً بقليل[١]، وإذا كان من عادة العرب أن رئيس القبيلة يظل رئيسًا حتَّى موته مهما تقدَّم به العمرُ، فإن عامر بن الطفيل استطاع أن يعزلَ عمَّه أبا براء عامر بن مالك بن جعفر، وينفرد بقيادة بني عامر، فأسس جيشًا نظاميًّا كبيراً ليؤدب به قبائل العرب، ويُخضعهم له، ويحقق لنفسه ما يطمحُ إليه من سؤدد وجاه وساعده على ذلك التفافُ العامريين حوله إضافة إلى الغرور والتعالي اللذين تميز بهما عامر ابن الطفيل[٢].

لذلك نراه يفخر على النابغة الذبياني بقوة بني كلاب، وهي قوة غير غاشمة تتناسب وقيادتهم وسيادتهم، وأن بني عامر أرسلت رسلًا ناصحين إلى بني بغيض (عبس وذبيان) لكنهم لم ينتصحوا حتى وقعوا تحت وطأة سيوف بني عامر ثم يحذر النابغة وقومه من مغبّة العصيان[٣]:

ألا مَـــنْ مُبْلِـــغٌ عَنِّـــي زيـــادًا غَـــداةَ القَـــاعِ إذْ أزِفَ الضِّـــرَابُ[٤]

---

(١) الأبيات على وزن الكامل وهي في: أيام العرب قبل الإسلام (٥٤٢/٢) والعقد الفريد (٩٩/٦،١٠٠) ونهاية الأرب (٢١٤٢/١٥).

(٢) انظر ذلك تفصيلًا في كتابنا: شعر بني عامر (٥٠/١).

(٣) ديوان عامر بن الطفيل: تحقيق ودراسة الدكتور/ أنور أبو سويلم، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ص٢٥١، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الوافر.

(٤) يريد النابغة الذُّبياني، واسمه: زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مُرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض. جمهرة أنساب العرب ص٢٥٣، «يَوْم القاع» وهو من أيام العرب، كان بين بكر بن وائل وبني تميم، وفي هذا اليوم أَسَرَ بسطامُ بن قيس الشيباني أوسَ بن حجر. انظر: معجم البلدان (٢٩٨/٤). «شِعْب جَبَلَة، والشِّعْب قاعٌ في أصله. قال ابن منظور: القاعُ والقَاعَة والقِيعُ: أرض واسعة سهلة مطئنة مستوية حُرَّة لا حُزُونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط تنفرجُ عنها الجبال والآكام ولا حصى فيها ولا حجارة، وهي مُنْتَقَع الماء في حُرِّ الطين، والجمع: أقواع وأَقْوُع وقيعان.

عداة تثُــوبُ خيْــلُ بنــي كِــلابٍ | علــى لَبَّاتهــا عَلــقٌ يُشَــابُ[1]
فــإنَّ لنا حُكُــومــةَ كُلِّ يَــــومٍ | يُبيِّــنُ في مَفاصِلِــهِ الصَّـــوَابُ[2]
وإنِّي ســوْفَ أحْــكُمُ غَــيْرَ عَــادٍ | ولا قَــذعٍ إذا الْتُمِــسَ الجَــوَابُ[3]
حُكُــومــةَ حَــازمٍ لا عَيْــبَ فيهــا | إذا مــا القَــومُ كَظَّـــهُمُ الخِطَابُ[4]
فــإنَّ مطيَّـــةَ الحِلْــمِ التَّــأنِّــي | علــى مَهْــلٍ ولِلْجَهْــلِ الشَّـبَابُ
ولَيْــسَ الجَهْــلُ عَنْ سِــنٍّ ولكــنْ | غَــدَتْ بِنَوَافِــذِ القَــوْلِ الرِّكَــابُ
فــإنَّ بنــي بَغِيــضٍ قد أتَاهُـــمْ | رَسُــولُ النَّاصِحيْــن فَمَــا أجَابوا[5]
ولا رَدُّوا مَحُــــــورةَ ذَاكَ حتَّــى | أتَانَا الحِلْــمُ وانخَــرقَ الحِجَــابُ[6]

---

(١) يريد قومه من بني (مالك بن جعفر بن كلاب) وهم وبنو (جعفر بنُ كلاب) رأس بني عامر، ومن بني مالك عامر بن الطفيل، ومن بنيْ جعفر علقمة بن عُلاثة. اللبب: موضع المَنْحَر من كل شئ، واللباب جمع اللبة وهي اللَّهْزِمَة التي فوق الصَّدْر وفيها تُنْحَرُ الإبل. اللسان (لبب). العَلَقُ: الدَّم ما كان، وقيل: هو الدم الجامد الغليظ، وقيل: هو ما اشتدت حمرته الواحدة عَلَقَة. اللسان (علق). يُشاب: يُخْلَط، من شابَ يَشُوبُ شَوْبًا وشيابًا، وهو مَشُوب أي مخلوط وممزوج. يريد أن لبات الخيل يشوبها دم الأعداء، أو أن دم قومه سقط على لبات.

(٢) الحُكُومة: الحكم، حكَم يَحْكُم حُكْمًا وحُكُومَة. قال الأصمعي: أصل الحكومة: ردّ الرجل عن الظُّلْم ومنه سُمِّيت حكمَةَ اللِّجام لأنها تَرُدُّ الدَّابَّة. يقال: حكَّمهُ في الأمرِ فاحتكم: جاز فيه حُكْمُهُ، والاسم الأُحْكُومة والحكومة. اللسان (حكم).

(٣) القَذَع: الخنى والفُحْش، قَذَعَ يَقْذَع قَذْعًا، ومنه هِجَاءُ مُقْذِع الذي فيه فُحْش وقَذْف وسَبٌّ يَقْبُحُ نَشْرَهُ. وهو كلامٌ قَذَع وقَذِيع وقَذِع وأَقْذَع؛ أي فاحش. اللسان (قذع).

(٤) كَظَّه الأمرُ يكُظُّهُ كَظًا: بَهَظَهُ وكَرَبَهُ وجَهَده. والكِظاظ: الشِدَّة والتَّعب، انظر: اللسان «كظظ».

(٥) بنو بغيض بن رَيْث بن غَطَفَان: أنْمار، وعَبْس، وذُبيان (ومنهم النابغة الذبياني). وبَنُو مُرَّة من ذُبيان، وبنو فَزَارة من ذبيان، ومازن وشمخ من فزارة. انظر: أنسابهم في جمهرة أنساب العرب، ص٢٥٠-٢٥٩.

(٦) تقولُ: كَلَّمْتهُ فما حَار إليَّ جوابًا، وما رَجَع إليَّ حَوِيرًا وحُورَة ومُحَاورَة وحَوَارًا وحِوارًا، أي ماردَّ جَوَابا، والاسمُ من المُحَاوَرَة: الحَوِيرُ، والمُحَاوَرَة: المُجَاوَبة ومراجعة المنطق والكلام في المخاطبة. والمحورة من المُحَاوَرَة مَصْدَر. وهو ضعيفُ الحَوْر والمَحْوَرَة: أي المُحَاورة. اللسان (حور).

فـــإنَّ مَقالَتـــي ما قَـــدْ عَلِمْتُـــــمْ   وخَيْـــلِي قَدْ يَحِـــلُّ لَهَـــا النِّهَابُ[1]
إذا يَمَّمْـــــنَ خَيْـــلًا مُسْـــرعَـــــــاتٍ   جَـرَى بِنُحُـــوسِ طَــيْرِهِمُ الْغُرَابُ[2]
وإنْ مَــــــرَّتْ على قَـــوْمٍ أعَـــــادٍ   بِسَاحَــتِهِم فَقَدْ خَسِــرُوا وخَابُـــوا

ولما بلغ هذا الشعر شعراء بني ذبيان، أرادوا هجاء عامر بن الطفيل وائتمروا له، فأمرهم النابغة بالتوقف عن هذا وأنه سيتكفل بالرد عليه، وكان النابغةُ ذكيًّا في ردّه، فهو يعرف نقاط الضعف في شخصية عامر بن الطفيل ويعلم أنَّ عامرًا لا يكيده شيء قدر تصغيره وتفضيل عمّه أبي براء عليه، لذلك نجد النابغة يقول لشعراء قومه: دعوني أُجِبْه، وأُصَغِّرُ إليه نفسه، وأُفَضّل إليه أباه وعمّه، فإنه يرى أنّه أفضلُ منهما وأعيّره بالجهل[3]. لذلك نرى النابغة يركز في رده على نقض المعاني التي افتخر بها عامر بن الطفيل، فإذا كان عامرٌ قد فخر بقوته وشبابه وحكمته، فإن النابغة يثبت له غير ذلك، فهو شاب جاهل، والحكمة والصواب هما من نصيب أبيه وعمه أبي براء وهو لا يعرف عنهما شيئًا، وأن عامر بن الطفيل لن يصل إلى الحلم ويقلع عن الجهل حتى يشبب الغراب[4]:

فـــإنْ يَـــكُ عامِـــرٌ قَـــد قالَ جَهْلاً   فإنّ مَظِنَّـــــةَ الجَهْـــلِ الشَّـــبابُ[5]

---

(١) النَّهْب: الغنيمة، والجمع: نِهَاب ونُهوب. والنُّهْبَة والنُّهْبَى والنُّهَيْبَى كله اسم الانتهاب والنَّهْبُ أيضًا: الغارة والسلب. اللسان (نهب).

(٢) الغُرَاب من أشْأم الطيور عند العَرَب، ومن اسمه اشتقوا ألفاظ الغُرْبَة والاغتراب والغريب، وتشاءموا من صياحه لأنه نذير الفراق والمصائب، وهو من كلاب الطير لأنه يأكل الميتة والجيف. انظر: النويري؛ نهاية الأرب، (١٠/٢٠٦).

(٣) انظر: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م ص١٠٩.

(٤) السابق، ص١٠٩، ١١٠.

(٥) عامر هذا هو عامر بن الطفيل العامري. وقوله: «فإن مظنة الجهل الشباب». يريد أن الشباب مقرون به الجهل، ملازم له. ومظنة الشيء: الأمر الذي لا يكاد يطلب فيه إلا وجد به، وهو مشتق من الظن، أي حيث يظن أنه لا يفارقه. ويروى: «السباب»، يريد إنما يعلم الجاهل ويتبين جهله عند سب غيره.

فكُـــنْ كأبِيـــكَ، أو كأبـــي بَـــــراءٍ تُوافِقْـــكَ الحُكُومَـــةُ والصَّـــــوابُ[1]
ولا تَـــذْهَـــبْ بحِلْمِـــكَ طامِيَـــــاتٌ مِـــنَ الخُـــيلاءِ ليـــسَ لهـــنَّ بابُ[2]
فإنَّكَ ســـوفَ تَحْلُـم أو تَـــــناهَـــــى إذا مـا شِبْـــتَ أو شـــابَ الغُرابُ[3]
فإنْ تكنِ الفَـــوارسُ يـــومَ حِسْـــــيٍ أصابُـــوا مِن لقـــائكَ ما أصَـــــابُوا[4]
فما إنْ كـــانَ مِـــن نســـبٍ بَعـــيدٍ ولكـــنْ أدْرَكُـــوكَ وهـــمْ غِضَـــابُ[5]
فَـــوارِسُ مِن مَنُـــولَةَ غيـــرُ مِيــــلٍ ومُـــــرَّةَ، فـــوقَ جَمْعِـــهمُ العُـقَـابُ[6]

(١) قوله: «أو كأبي براء» هو عامر بن مالك ملاعب الأسنّة، وهو عم عامر بن الطفيل بن مالك. (والحكومة: الحكم).

(٢) الطّاميات: المرتفعات، يقال: طَمَا الماء، إذا علا وارتفع. والخُيَلاء: التكبُّر والبَطَر. وقوله: «ليس لهنّ باب»، أي لا آخر لهن ولا منتهى.

(٣) وقوله: «إذا ما شِبْتَ أو شاب الغُرابُ»، أي لا تكون حلمًا، ولا تنتهى إلى ما أنت عليه من الجهل، حتى يشيب الغُراب، أي لا تحلم أبدًا، كما أن الغراب لا يشيب. وإنما هذا هُزُؤٌ منه به وذَمٌّ، وهذا كما تقول: لا تفلح حتى يشيب الغراب، أي لا تفلح أبدًا.

(٤) قوله: «فإن تكن الفوارسُ يومَ حِسْىٍ»، يعنى يومًا كان لبنى ذبيان على عامر، قُتِلَ فيه أخوه حَنْظَلَةُ ابن الطُّفَيْل.

(٥) وقوله: «فما إن كان مِن نَسَبٍ»، يقول: لم يكن ما لقيت منهم أنّهم لم يكونوا من عشيرتك، لكنهم كلهم من قيس عَيْلانَ؛ ولكنك أغضبتهم فعاقبوك.

(٦) وقوله: «من مَنُوَلَةَ»، قال ابن الأعرابي: مَنُولة امرأة من تغلب، وهي أم مازن وشمخ، ابنى فزارة بن ذبيان. ومُرَّة: هو مُرَّة بن عوف بن سعد بن ذُبيان. وميل: جمع أَمْيَل، وهو الذي لا يستوى على السرج إذا ركب. والعُقاب: الراية.

٢- النابغة وبدر بن حذار الفزاري

ينتمي النابغة وبدر إلى قبيلة ذبيان، فالنابغة ينتسب إلى بطن مرة بن عوف بن ذبيان، وبدر بن حُذار ينتسب إلى فزارة بن ذبيان وتبدأ المناقضةُ بين الشاعرين عندما يُحذِّرُ النابغةُ قومَه عندما نزلوا «ذا أُقر» وهو حمى للنعمان بن الحارث الغساني، فليس النعمان مَنْ يترك حماه مستباحًا، وبنو ذبيان لا يقدرون على مواجهة جيشه الجرّار الذي يسير علانية من فرط قوته لايخشى أن يراه الأعداءُ، وأن ناره يهتدي إليها الناس. ويُظهرُ النابغةُ خوفه وجزعَهُ على أهله وعشيرته، لاسيما النساء اللواتي يمكن أن يُصيبهنّ الأذى(١):

لقد نَهَيْـــتُ بَنِي ذُبيـــانَ عـــن أُقُـرٍ — وعن تَـرَبُّعِهـــم في كـــلِّ أصفـــارِ(٢)

وقلتُ: يا قومُ إنّ اللّيْـــثَ مُنْقَبِـــضٌ — على بَراثِنِـــه لوثْبـــةِ الضّـــارِى(٣)

لا أعْرِفَـــنْ رَبْـــرَبًا حُـــورًا مدامعُهـا — كَـــأنّ أبكـــارَهـــا نِعـــاجُ دَوّارِ(٤)

يَنْظُرْنَ شَزْرًا إلى مَن جاء عـن عُـــرُضٍ — بأوْجُـــهِ مُنكِـــراتِ الـــرِّقِّ أحرارِ(٥)

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٧٥-٧٨، والأبيات والرد عليها على وزن البحر البسيط.

(٢) عن تربُّعهم: أي حلولهم زمن الربيع فيه، في كلّ أصفار: لأن صَفَرًا كان في الربيع يومئذ، وقيل: معناه حين ينصفر الماء ويَتَرَبَّل الشجر، ويبرد الليلُ ، وذلك آخر الصيف.

(٣) إنّ اللّيثَ منقبض: أي مجتمع متهيِّيء للوثوب. والبراثن: المخالب. والضّاري: من صفة الليث، ومعناه المتعوِّدُ أكْلَ الناس، وضرب هذا مَثَلاً للملك الذي حَذَّر قومه منه.

(٤) الرَّبْرَبَ: القطيع من البقر، شَبَّه النساء به في حسن العيون وسكون المشى. والمدامع: العيون، وهي مواضع الدمع. والنِّعاج: إناث البقر. ودَوَار: موضع، وهو سجن باليمامة. لا أعرفن رَبْرَبًا: كأنه نهى نفسَه، وإنما يريد: لا تقيموا في هذا الموضع فتُسبىَ نساؤكم، فأعرف ذلك فيكم.

(٥) ينظرن شَزْرًا: أى ينظرن بمؤخرّ أعينهنّ، يلتفتن يمينًا وشمالاً، طَمَعًا منهن أن يرين مَن يُعاديهنَ. وقوله: «عن عُرُض»، أى عن ناحية. وقوله: «منكرات الرِّقِّ أحرار» أي كُنَّ في حُرِيَّة، فلمّا سُبينَ أنكرنَ الرِّقَّ والعبودية».

خلْفَ العَضارِيطِ لا يُوقَيْنَ فاحشةً مُستمسكاتٍ بأقتابٍ وأكْوارِ(١)
يُذْرِينَ دَمْعًا على الأشفارِ مُنْحَدِرًا يأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابنِ سَيَّارِ(٢)
إمّا عُصِيتُ فإنّي غيرُ مُنْفَلِتٍ منّي اللِّصابُ فجنْبا حَرَّةِ النّارِ(٣)
أو أضعُ البيتَ في سوداءَ مظلمةٍ تُقيِّدُ العَيْرَ لا يَسْرِي بها السّارِي(٤)
تُدافِعُ النّاسَ عنّا حينَ نركبُها مِنَ المظالمِ تُدْعَى أُمَّ صَبّارِ(٥)
ساقَ الرُّفَيْداتِ مِنْ جَوْشٍ ومن عِظَمٍ وماشَ مِن رَهْطِ رِبْعِيٍّ وحَجّارِ(٦)

---

(١) العَضاريط: الأُجَراء والتُّبّاع، واحدهم عُضْرُوط. وقوله: «لا يُوقَيْنَ فاحشةً»، أي لا يمنع منهنّ الفواحش؛ لأنهن سبايا مملَّكات، فالعَضاريط يتمتَّعون منهنّ بما شاءوا والأقتاب: أعواد الرَّحْل. والأكوار: الرِّحال؛ يصف أنهنّ مردَفات، فهنّ يستمسكن بالرِّحال.

(٢) يُذرِين دمعًا: أي يَصْبُبْنَه ويرمين به، يقال: أذرى دمعَه، وأذراه عنْ فرسه، إذا رمى به. وقوله: «يأملن رحلةَ حِصْن وابن سَيّار»، يريد حصن بن حذيفة الفزاريّ، وزياد بن سَيّار، وكانا سَيِّدَيْ فزازة، وإنما يأملن رحلتهما ليَفُكّا أسرهنّ، وإنما قال هذا تعريضًا بهما وتحضيضًا لقومه على مخالفة فزارة بن ذبيان.

(٣) يقول لقومه: إن عصيتموني وأقمتم بهذا الموضع فإني أنزل هذه المواضع الوعرة، وأَلجأ إليها، فلا تصل إليَّ الخيلُ. واللِّصاب: جمع لِصْب، وهو الشِّعْب الضَّيّق في الجبل. والحَرَّة: الأرض الصُّلْبة ذات الحجارة. وحَرَّة النار يقال هي لبنى مُرَّةَ، ويقال لبنى سُلَيْم.

(٤) أو أضع البيتَ في سوداء: أي أنزل في أرض سوداء فأضع بيتي بها. تُقَيِّدُ العَيْرَ: أي تمنعه المشي لصلابتها وصعوبتها، وإنما خَصَّ العَيْرَ لأنه أوقح الدَّوابّ، وأصلبها حافرًا، فإذا كان على قِحَتِه وصلابته يحفى ويمتنع من المشي: لغِلَظها وصعوبتها، فلا سبيل إلى أن تطأها الخيل، أو يسير بها الجيش، وإنما يصف حَرَّةً.

(٥) يقول: هذه الحَرَّة تُدافع الناسَ عنّا من المظالم إذا نزلناها. وأُمُّ صَبّار: اسم الحَرَّة. والصَّبار: الحجارة؛ فكأن هذه الحَرَّة أُمّ الحجارة لكثرتها، قيل: سماها بذلك؛ لأنه لا يقدر على العدْو فيها لصلابتها إلا على صَبْر وتحامل. وقوله: من المظالم يحتمل أن يكون من الظلم، ويحتمل أن يكون يريد جمع مظلمة نسبها إلى الظلمة والسواد، أي هذه الحَرَّة مظلمة من الحرار المظالم، كما تقول: أسود من السُّودان.

(٦) ساقَ الرُّفَيداتِ: يعنى الملك الذي كان حذَّرهم إيّاه. والرُّفَيدات: حَيّ من كلب، يقال لهم: بنو رُفَيدة. وجَوْش وعِظَم: موضعان في أرض كلب. وماشَ: خَلَطَ. ورِبْعِيّ وحَجّار: رجلان من قُضاعة، وكلب أيضًا من قضاعة؛ يعنى أنه غزاهم بقومه بأحياء من العرب، ولما قدم بالسَّبي وفد عليه النابغة فأطلَقَه له؟.

قَرْمَىْ قُضاعةَ حَلا حَـوْلَ حُجْرَتِـه مَـدّا عليـه بسُـلاّفٍ وأنفـارِ[1]

حتى استقـلَّ بجمْـعٍ لا كِفـاءَ له يَنْفِـى الوُحُوشَ عن الصحراءِ جَرّارِ[2]

لا يَخْفِضُ الـرِّزَّ عـن أرضٍ ألَمَّ بهـا ولا يَضِـلُّ على مصباحِه السّارِى[3]

وعَيَّرَتْنِـى بنـو ذُبيـان خَشْيَتَـه وهـل علَيَّ بـأن أخشاك مِن عارِ![4]

وهذا الخوف والهلع الذي يظهره النابغة يتنافى مع رؤية الفرسان العرب، الذين يؤمنون بحتمية الدفاع عن الأرض التي نزلوها، وأن الحلم الذي يدعو إليه النابغة هو نوعٌ من القهرِ والذُّلِ الذي لا ترضاهُ ولا تقبله نفوسُهم. وفي أثناء ذلك أغار رجلٌ واحدٌ من قُضاعة على بني مُرة (عشيرة النابغة) وأصاب ناسًا منهم واستاق ما شاء من الإبل، وهنا يشمتُ بنو فزارة في بني مرة، فَحَذَرُهُم وعَقْلُهُم جعلهم مطمعًا لفرد واحد وليس لجيش جرَّار ومن هنا يرد بدر بن حذار الفزاري على النابغة رافضًا دعوته للقبيلة بأن تبرح حمى النعمان الغساني، وأن دعوة النابغة تلك عار عليهم جميعًا[5] ولو أنّ الحلم ينفعُ في هذا الموقف لنفع النابغة وقومه وحماهم من هجمات الأفراد لا الجيوش:

---

(١) قَرْمَى قُضاعة: يعنى سَيِّدَىْ قُضاعةَ وشَرِيفَيْها. حَلاَّ حولَ حجرته: أى نزلا حول حجرة الملك حين أراد الغزو. مَدّا عليه بسُلاف: أى مَدّاه بسُلاّف، وهم المتقدّمون من القوم. والأنفار: جمع نفر.

(٢) حتى استقلَّ بَجَمْع: أى ارتفع ونهض نحو بنى ذبيان. لا كِفاءَ له: أى ليس ما يكافئه ويكون مثله. ينفى الوحوش في الصحراء: أى يُذعُرها في مراتعها؛ لكثرة جلبته. والجَرّار: الذى له إخوان وتوابع؛ فيجرُّ بعضُه بعضًا، ولا يكاد ينقضى.

(٣) الرِّزّ: الصوت، يعنى أنه جيش منيع واثق بكثرته، فهو لا يخفض صوتَه مخافة أن يشعر بمكانه، أَلَمّ بها: أى نزل بها. لا يضلّ على مصباحه السارى: أى نيرانه كثيرة، فالسارى يهتدى بضوئها، وإنما وصفه بكثرة النار لأنه منيع عزيز، فهو يشهر نفسه، ولا يبالى مَنْ شعر به، ولو كان جيشًا ضعيفًا لخفض صوته، ولأخمد ناره؛ مخافة أن يبيت فيوقَع به.

(٤) وعَيَّرَتْنِى بنو ذبيانَ خشيتَه: أى خشيت الملك فأخبر عنه، ثم خاطبه، فقال: «وهل علىّ بأن أخشاك من عارِ!»، ومثل هذا كثير، ويحتمل أن يريد خشية الجيش.

(٥) ديوان النابغة، ص٧٩،٨٠.

أَبْلِغْ زيـادًا وحيْـنُ المـرءِ يـدركُـه ... وإن تَكَيَّـس أو كـان ابـنَ أحذارِ[١]
أضطـرَّكَ الحـرزُ من لَيْلَـى إلى بَـرَدٍ ... تختاره مَعْقِـلاً عن جُـشِّ أعيـارِ[٢]
حتى لقِيتَ ابنَ كهفِ اللُّؤمِ في لَجَـبٍ ... يَنْفِـي العصـافيرَ والغْربـانَ جَرّارِ[٣]
فالآنَ فـاسْـعَ بأقـوامٍ غـرزتهـمُ ... بنـي ضِبـابٍ، ودَعْ عنك ابنَ سَيّارِ[٤]
قـد كـان وافِـدَ أقـوامٍ فجـاء بهـم ... وانتـاشَ عانِيَـه مِـن أهْلِ ذى قارِ[٥]

وينتشرُ شعر بدر بن حُذار، ويلقى ترحيبًا عند بني ذبيان، وتولَّى نشر هذا الشعر وتزيينه خُزَيمةُ وَزَبَّان ابنا سيَّار، وهنا يعتبرُ النابغةُ هذا الشعر هجاءً له، فيرد على بدر بن حُذار مؤكدًا أنّ الشماتة لا تجوز بين أبناء العم، فهى ضد قيم العرب التي جُبلوا عليها، وأن مَنْ يتربَّص حوادث الدهر أن تنزل بأبناء عمومته ويتمنى لهم الشرَّ، لم يأمن - أن تنزلَ حوادثُ الدَّهرِ به وبعشيرته أيضًا[٦]:

أَلامَـن مُبْلِـغٌ عنِّـي حُـزَيْـمًا ... وزَبّـانَ الـذى لـم يَـرْعِ صِهْـرِى[٧]

---

(١) زياد: (اسم) النابغة. وإن تَكَيَّسَ: أى كان ذا كيس. ويقال: رجلٌ أخو حَذَر، (وابنُ حَذر) إذا كان ذا حَذَر. وأحْذار: جمع حذر.

(٢) أَضْطَرَّكَ الحِرْزُ من لَيْلَى: أى أَضْطَرَّكَ أن تنزل الحِرْز من حَرَّة ليلى، وهى حَرَّة النار، أى نزلتَ بَرَدًا وتركتَ الموضع الذي كنت تزعم أنه جِرْز، فنزلت مصحرًا ولم تنزل الحرز، وإنما يهزأ به. وجُشٌّ أعيار: موضع من حرة النار.

(٣) حتى لَقِيت ابنَ كهفِ اللوم: يعنى الرجلَ الذي أغار عليه من قضاعة. والكهف: الغار والملجأ. واللَّجب: الجيش الكثير الأصوات.

(٤) فاسْعَ بأقوام غَرَزْتَهُم: أي قم بأمرهم، يقال: سعى فلان بذلك الأمر، إذا قام به.

وبنو ضباب: رهط النابغة. ودع عنك ابن سيّار: يريد قول النابغة:

يأملنَ رحلةَ حِصْنٍ وابنِ سَيّار

(٥) قد كان وافد أقوام فجاء بهم: يعنى بذلك أن أناسًا من بنى سيّار أصابوا أسارى من بنى غطفان فركب فيهم قطبة بن سيّار، ففدى بعضهم، ووهب له بعضهم. ومعنى «انتاش» تناول واستخرج، والنَّوْش (والتَّناوُش): التناول. والعانى: الأسير. وذو قار: موضع.

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص٨٠،٨١.

(٧) حُزَيم وزبّان وقطبة وعوسجة وقتادة وطلحة: إخوة كان يقال لهم الشوك لأسمائهم، وهم أبناء سيّار ابن عمرو بن عمرو بن جابر، والصِّهر الذى (كان) بينه وبين زبّان هو أن بنتَ هاشم بن حرملة أمُّ زبّان، وهى إحدى نساء بنى مُرَّةَ، وأُمُّها فاطمة بنت قيس بن زهير، وأمُّ فاطمةَ تماضر بنت الشَّريد، فهذا الصِّهر الذى بينهم.

فـإيّـاكـم وَعُـورًا داميـاتٍ كـأن صِـلاءَهُـنَّ صِـلاءُ جَمْـرِ[1]
فـإنّـي قـد أتانـي مـا صَنعتُـمْ ومـا رَشَّحْتُـمُ مِـن شِعْـرِ بَـدْرِ[2]
فلـم يـكُ نُولُكُـم أن تُشقِـذُونـي ودُونـي عـازِبٌ وبِـلادُ حَجْـرِ[3]
فـإنَّ جـوابَهـا فـي كـلِّ يـومٍ أَلَـمَّ بأنفُـسٍ منكـم ووفْـرِ[4]
ومَـن يتـربَّـصِ الحَـدَثـانَ تَنْـزِلْ بمـولاه عَـوانٌ غيـرُ بِكْـرِ[5]

(١) فإياكم وَعُورًا دامياتٍ: يعنى قصائد هَجْو قباحًا تسوء مَن هُجِىَ بها والداميات: اللَّواتى يقطرن دَمًا، وهذا مَثَلٌ، ويقال: أسمع كلامًا يقطر دمًا، أى كلام سوء. ويقال: كلمة عَوْراء، أى كلام سُوء، ويقال: عوراء، أى قبيحة. كأنَّ صِلاءَهُنَّ صِلاءُ جَمْرِ: ضَرَبَه مثلاً لشدتها على مَنْ هُجِىَ بها. يقول: مَن اصطلاهنَّ كأنما اصطلى جَمْرًا. قال أبو عبيدة: فلما سمعها زَبَّانُ بن سيار قال لقومه: احذروا وَعُودًا داميات، أى الكلام القبيح.

(٢) وما رَشَّحْتُم: أى رويتم وحَسَّنتم، وأصل التَّرشيح التَّزْيين وحُسْنُ القيام على الشئ.

(٣) فلم يك نُولكم أن تُشْقِذُونى: أى لم يك ينبغى لكم أن تؤذونى بالهجاء. والعازب: المكان البعيد. وحَجْر: اليمامة، يقول: أتاني هجاؤكم وما تناولتمونى به من مكان بعيد، فلم يك ينبغى لكم أن تغيروا؛ لبعد ما بينى وبينكم، فتُؤذونى بهجائكم، فإن الجواب يلم بكم، من شعر يحلق أعراضكم، وجيش ينتهب أموالكم.

(٤) «فإن جوابها» يعنى جواب القصيدة أو المقالة التي هجوتَ بها. ومعنى «ألَمّ» نَزَلَ وحَلَّ. والوَفْر: المال الوافر.

(٥) ومَن يتربَّصِ الحَدَثانَ: أى مَن يتربَّص بغيره حوادثَ الدهر، ويتمنَّى له الشَّرَّ، لم يأمن أن ينزل ذلك به وبعشيرته. والمولى: ابن العَمّ، وإنما خَصَّ ابنَ العَمّ لأنه إذا نزلت بابن عمه فقد نزلت به. وأراد بالعوان داهيةً قديمة، أو حربا شديدة ليست بِبكْر. قال الأصمعى: فكفَّ حزيم وزبان ثم لا يعلم النابغة، قال في شئ وقعوا فيه، ولا في غيره.

٣- النابغة ويزيد بن عمرو الكلابيّ

وتبدأ المناقضة بينهما عندما تقع الغارات بين الربيع بن زياد العبسيّ ويزيد بن عمرو، فيقف النابغةُ إلى جوار الربيع بن زياد، لأنّه من عبس، وعبس وذبيان أبناء عمومة، ويهجو يزيد بن عمرو، ويرى أن فخره بنفسه أكبر من حجمه الطبيعي ويتهكّم عليه، ويصفه بأنّه غادرٌ خائنٌ لا أمان له. لأنّه غدر بالنعمان بن المنذر وخانه(١):

لَعَمْـرُكَ مـا خَشِيـتُ علـى يَزيـدٍ	**مِـن الفَخْـرِ المُضَـلِّلِ مـا أتـاني(٢)**
كَـأنَّ التَّـاجَ مَعْصُـوبًا عليـه	**لأذْوادٍ أُصِبْـنَ بِـذِي أَبـانِ(٣)**
فَحَسْبُـكَ أنْ تُهـاضَ بمُحْكَمـاتٍ	**يَمُـرُّ بهـا الـرَّوِيُّ علـى لِسـاني(٤)**
فقبلكَ مـا شُتِمْـتُ وقـاذَعُـونـي	**فمـا نَـزُرَ الكـلامُ ولا شَجـانـي(٥)**
يَصُـدُّ الشّـاعـرُ الثُّنيـانُ عنِّـي	**صُـدُودَ البَكْـرِ عـن قَـرْمٍ هِجانِ(٦)**
أثَـرْتَ الغَـيَّ، ثـم نَزَعْـتَ عنـه	**كمـا حـادَ الأزَبُّ عـن الظِّعـانِ(٧)**

---

(١) ديوان النابغة ص١١٢، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الوافر.

(٢) المُضَلِّل: الذى يُضِلُّ صاحبَه، والمُضَلَّل: الذى يُنسَب إليه الضَّلال.

(٣) كأنَّ التاج معصوبًا عليه: يقول: كأنما عُقِدَ التاج عليه، وعصب برأسه، أى شُدَّ لهذا القليل الذي أخذوه منا وناله، أي ليس يليق به هـذا الفخر. وأبان: جبل، والذَّوْد: ما بين الثلاث إلى العشرة.

(٤) فحَسْبُكَ أن تُهاض: أى كفاكَ أن تخزى وتذلّ. والهيض: كسر بعد جبر، ضربه مَثَلاً. يَمُرُّ بها الرَّوِيّ: أى يَجرى ويسهل، والرَّوِيّ: حرف القافية.

(٥) فقبلك ما شُتِمتُ: يريد: قبل هجوك هُجيتُ، ومعنى «قاذَعُونى»: هاجُونى وشاتمونى، يقال: قذعتُه، إذا أسمعته ما يكره. فما نَزُرَ الكلامُ: أى لم يقلّ عندى ولم يكن نَزْرًا. «ولا شجانى»، أى ولا حزننى فأهتم له، وإنما يريد أن الجواب على ما سَبَّنى به لا يتعذَّر عليه، ولا يقلُّ عنده فيحزن له.

(٦) الثُّنْيانُ والثِّنيان: الذى دون البدء. والبدء: السيد والقَرْم: الفَحْل الكريم من الإبل. والهِجان: الإبل البيض، جعل نفسه كالفحل الكريم، وجعل يزيد بن عمرو العامرى كالبَكْر من الإبل، لأنه لا يقاومه في الهجاء، كما لا يقاوم البَكْرُ القَرْمَ، ولا يُطيقه.

(٧) «أثرتَ الغَيّ»، أى استخرجته وهَيَّجته، يريد بذلك فُجْرَه، وتعرُّضَه لهجاء النابغة. والأَزَبّ: الكثيرُ شَعرِ الحاجبين والأشفار. والظُّعان: حَبْلُ الهودج. والبعير الأَزَبّ. ويقال: كلُّ أَزَبَّ نَفُور. يقول: جلبتَ الشَّرَّ، واستقبحتَ الهَجْوَ، ثم فررتَ منه، كما يَفِرُّ الأَزَبُّ من حَبْل الهودج، ويحيد عنه.

فــإن يقْــدرْ عليــك أبــو قُبَيْــسٍ ... تُمــطّ بــك المعيشـــةُ فـــي ان[1]
وتُخْضَــبْ لحيَـــةٌ غـــدرتْ وخانَـــتْ ... بأحْمَــرَ مِـــن نجيــعِ الجـوْفِ آني[2]
وكنـــتَ أمينَـــه لـــو لـــم تخُنْـــه ... ولكـــنْ لا أمـــانَـــةَ لليمَـــانـــي[3]

ويردّ يزيد بن عمرو الكلابي عليه قوله: فهو لم يخن أبا قُبيس ولم يخنه بالغيب، فهو حافظ لعهده معه، وأنَّه (يزيد) أفضل من النابغة في القول والطعان، وإذا كان النابغة فحلاً بين الشعراء فقد خصاه يزيد وأصبح لا قيمة لفحولته بعد الآن[4]:

وإن يَقْــدِرْ علـــيّ أبـــو قُبَيْـــسٍ
تَجِــدْنـــي عنـــده حَسَـــنَ المكـــانِ
تجِــدْنـــي كنــتُ خيــرًا منــك غَيْــبًا
وأمضـــي باللِّســـان وبالسِّنـــان[5]
وأيّ النـــاس أغـــدرُ مـــن شـــآمٍ
لـــه صُـــرَدانِ منطلـــق اللّســـان[6]
وإنّ الغـــدْر قـــد علمـــت مَعَـــدٌّ
بِـــنَـــاه فـــي بَنِـــي ذُبْـيـــانَ بـــانـــي
وإن الفحْـــلَ تُنْـــزَعُ خُصْيَتَـــاهُ
فيُصبـح جَـافِـــرًا قَـــرِحَ العجـــان[7]

---

(١) أبو قُبَيس هو النعمان بن المنذر، وكنيته أبو قابوس. تُمَطّ: أى تُمَط، والمطّ والمدّ واحد.

(٢) تُخضب لحيةٌ غدَرتْ وخانتْ: نَسَبَ الغدرَ إلى اللّحية مجازًا، وإنما أراد صاحبها. ونَجيع الجَوْف: خالصُه، وقيل: طَرِيُّه، يعنى الدّم. والآنى: الشديد الحرارة، ويقال: هو الذي بلغ إناه، أى وقته.

(٣) ولكن لا أمانة لليمانى: إنما قال ذلك لأن بعض بنى عامر مما يلى اليمن، وكل من كان يَلى اليمنَ فهو يَمانٍ عند العرب، ومنه قولهم: الرُّكن اليمانى، وهو بمكة، فُنسب إلى اليمن؛ لأنه يقابلها.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص١١٣، ١١٤.

(٥) خيراً منك غَيْبًا: أى إذا غبتُ عنه ذكرتُه بالجميل ولم أغْتَبْه. أمضى باللِّسان وبالسِّنان: أى تجدنى أنفذ منك مقالاً وطِعانًا.

(٦) أغدرُ من شآمٍ: يريد منازل بنى ذبيان مما يلى الشام، فنسبه إليها. والصُّردَان: عَصَبَان أو عِرْقان مكتنفا اللّسان من باطنٍ.

(٧) الجافر: الذى تَرَكَ الضِّراب، وعَدَلَ عنه، فلا يقدر عليه. والعجان: ما بين الذَّكَر والدُّبُر، وأراد بهذا البيت مناقضة النابغة في قوله:

صَدُودَ البَكْرِ عن قَرْمٍ هِجانِ

١٣- نقائض الأوس والخزرج:

الأوس والخزرج قبيلة واحدة في الأصل، أخوان، ابنا حارثة بن ثعلبة، ينتهى نسبهما إلى مازن بن الأزد[١] وبمرور الزمن كبرَ الحيَّان، الأوس والخزرج وأصبح كُلٌّ منهما يُمثِّلُ قبيلة مستقلة عن الأخرى، وأدى الجوار والتلازم بينهما إلى كثرة الاحتكاك ومن ثَمَّ الحروب، وكانا يسكنان «يثرب»، وأظنُّ أن نار الفتنة بين الحيين كان يوقدها دائمًا اليهود الذين كانوا يسكنون «يثرب» معهُما، مستغلين العصبية عند كليهما، لأن الأوس والخزرج لو اتحدُوا سويًّا على قلب رجُلٍ واحدٍ لما استطاع اليهود العيش بين ظهرانيهم، وتبدأ الحربُ بين الحيين - الأوس والخزرج - فيما يُروى، أن مالك بن العجلان الخزرجي كان له مولى يُقال له بُجير جلس مع نفرٍ من الأوس، فتفاخروا، فذكر بُجيرٌ مالكَ بن العجلان الخزرجي بما يفضّله، وكان مالك سيد الحيين في زمانه، فغضبَ جماعةٌ من كلام بُجير، وقام سُمَير بن زيد بن مالك، أحد بني عمرو بن عوف الأوسى وقتل بُجيرًا، فبعث مالك بن العجلان إلى بنى عمرو بن عوف يطالبهم بإرسال سُمير حتى يقتله بمولاه بجير وإلاّ كانت الحربُ، وبعد تشاور وأخذ ورد، قبل مالكٌ أن يأخذ ديّة مولاه عشرًا من الإبل، وهي ضعف ديّة العبد، فأبى بنو الأوس ذلك وكانت الحربُ بينهما[٢].

وخلال هذه الحروب بين الحيين - الأوس والخزرج - ظهرت النقائض وكان يمثلها من جانب الخزرج ثلاثة شعراء هم: حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وأنس بن العلاء، بينما كان في الجهة المقابلة - الأوس - شاعرٌ واحد هو قيس بن الخطيم.

---

(١) جمهرة أنساب العرب، ص٢٣٢.

(٢) انظر: الخزانة (٤/٢٧٩).

١- نقائض قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت

وتبدأ هذه النقائض بعد يوم «السَّرَارة»، وكان يومًا عضَّ الحيين جميعًا شَرُّه، وسبب ذلك أن رجلاً من الخزرج قتل رجلاً من الأوس، فقامت الأوس وقتلَتْ الخزرجي، فالتقى الحيَّان بالسَّرارة فاقتتلوا بها أربعًا حتَّى نال كلُّ فريق من صاحبه[١]. ويلجأ الحيَّان إلى التحالف مع القبائل العربية، كُلٌّ منهما يريد القضاء على الآخر، لذلك ترى قيس بن الخطيم يُعلن تحالف الأوس مع عبس وذُبيان ومُزَيْنة، وهذا يَعْنِي هلاكَ الخزرج، لذا نرى نبرة التهديد ترتفع عند ابن الخطيم[٢]:

لعمْـري لَقَـد حالَفَـتْ ذُبيـانُ كُلُّها	وعَبْـسًا على مـا في الأديمِ المُمَددَّا[٣]
وأقْبَلْتُ مـن أرْضِ الحجـازِ بحلَبْـةٍ	تَغُـمُّ الفضـاء كالقَطـا المُتَبَـدِّد[٤]
تحمَّلْتُ ما كانـتْ مُزَيْنـةُ تَشْتكـي	مـنَ الظُّلـمِ في الأحلافِ حملَ التغمّدِ
متى ما تَقُدْ بالباطـلِ الحـقَّ يأبَـهُ	وإنْ قُـدْتَ بالحـقّ الرَّواسـيَ تَنْقَـدِ
متـى ما أتيْـتَ الأمْـرَ مِـنْ غَيرِ بابهِ	ضَلِلْـتَ وإنْ تَدخُـلْ مـن الباب تهتدِ
فَمَنْ مُبْلِغٌ عنّـي شَريـدَ بـنَ جابـرٍ	رَسـولاً إذا مـا جـاءهُ وابـنَ مَـرْثَدِ
فأقْسمْتُ لا أُعْطـي يَـزيـدَ رَهينَـةً	سِـوىَ السَّـيْفِ حتى لا تَنُوء له يدي

ويتصدَّى له حسّان بن ثابت، فإذا كان ابن الخطيم يعتز بقوة حلفائه، عبس وذبيان ومزينة، فإن حسان بن ثابت يقابل ذلك بأنه يعتز بقوة الخزرج فهم

(١) انظر: ديوان قيس بن الخطيم، ص١٢٣،١٢٤.

(٢) أبيات مختارة من قصيدة في ديوانه ص١٢٧، وهي والرد عليها على وزن البحر الطويل.

(٣) الأديم الممدَّد: الكتاب الذي قد مُدَّ. قال أبو عمرو: كتبوا كتبًا وتحالفوا على ما في الصحف.

(٤) حَلْبَة: جماعة من الخيل، والفضاء موضع بالمدينة، والمتبدد: المتفرق جاء من ها هنا وها هنا.

كالأسود في حومة المعارك، وأن الأوس قد ذاقَتْ منهم الهزائم قبل، ويختم حسان ردّه بهجاء مقذع لبني الأوس جميعًا[١]:

فلا تعْجلَنْ يا قَيْسُ وأربَعْ فإنّما ... قُصَارُكَ أنْ تُلْقَى بكلِّ مُهَنَّدِ

حُسَامٍ وأرْمَاحٍ بأيْدِي أعِزَّةٍ ... متى تَرَهُمْ يا ابْنَ الخَطِيمِ تبَلَّدِ

لُيُوثٍ لدَى الأشْبَالِ تُحْمَى عَرينُها ... مَداعِيسُ بالخطِّيِّ في كلِّ مَشْهَدِ

فقدْ ذاقتِ الأوسُ الْقِتَالَ وطُرِّدتْ ... وأنْتَ لدَى الكنّاتِ، كُلَّ مُطرّدِ

تُناغِي لدَى الأبْوابِ حُورًا نَواعِمًا ... وَكحِّلْ مآقِيكَ الْحِسَانَ بإثْمِدِ

نفتْكُمْ عنِ الْعَلْيَاءِ أُمٌّ لَئيمَةٌ ... وزَنْدٌ متى تُقْدَحْ بهِ النّارُ يَصْلِدِ

ثُمَّ يأتي يوم «الربيع» وهو من أعظم أيام الأوس والخزرج في الجاهلية، إذْ اقتتلُوا فيه قتالاً شديدًا حتّى كاد يفنى بعضُهم بعضًا، ورغم ذلك نرى قيس بن الخطيم يفخرُ بقوتهم في هذا اليوم، فقد أتقنوا الطعن في الخزرج، وردُّوا جموعهم مهزومة، ولولا أن الأوس يكرهون سفكَ الدِّماء لأفنوا الخزرج وعادت يثرب خالصة لهم، وأن يثرب تعلم أن بني النبيت عمرو بن مالك بن الأوس - قوم قيس بن الخطيم - هم ميزان العدل والقوة فيها وأن الخزرج يعلمون أن سيوف الأوس هي التي هزمتهم[٢]:

ونحنُ الفَوارسُ يَوْمَ الرَّبيـ ... ـعِ، قد عَلمُوا كيفَ فُرْسانُها[٣]

جَنبْنَا الجِرَابَ وَرَاءَ الصّريـ ... ـخِ حتى تَقَصَّفَ مُرّانُها[٤]

---

(١) ديوان حسان بن ثابت (٢٥/١).

(٢) الأبيات من قصيدة في ديوانه ص٦٦، وهي والرد عليها على وزن البحر المتقارب.

(٣) الرَّبيع: الجدول الصغير. وأهل المدينة يقولون: رَبيع؛ وأهل اليمامة: جدول.

(٤) المرّان: الرماح تُعْمَل من خشب.

تَــراهُـــنَّ يُخْلَجْـــنَ خَلْــجَ الــدِّلا ءِ تَختَلــجُ النَّـــزْعَ أشْطانُهَـــا[1]
ولاقَـــى الشَّـــقاءَ لَـــدى حَـــزْبِنـــا دُحَـــــيٌّ وَعَـــــوْفٌ وإخْـــوانُهَـــا
رددْنَـــــا الكتيبَــــــةَ مفْلولَــــةً بهَـــا أفْنُـــهَـــا وبِهَـــا ذانُـــهَـــا[2]
وقَـــدْ علِمُـــوا أنْ متَـــى نَنْبَعِـــثْ عَلَـــى مِثْلِهَـــا تَـــذْكُ نِيـــرانُهَـــا
ولَـــولا كَرَاهَـــةُ سَفْـــكِ الـــدِّمَـــاءِ لَعَـــادَ لِيَـــثْـــرِبَ أدْيَـــانُهَـــا[3]
ويَـــثْـــرِبُ تَعْـــلَـــمُ أنَّ النَّبِيـــ ـــتَ رَاسٍ بِيَـــثْـــرِبَ مِيزَانُهَـــا[4]
حِسَـــانُ الوُجُـــوهِ، حِـــدادُ السُّـــيُو فِ، يَبْتَـــدِرُ المَجْـــدَ شُبَّـــانُهَـــا
أتَتْهُـــمْ عَـــرَانِيـــنُ مِـــنْ مَـــالِـــكٍ سِـــــرَاعٌ إلى الـــرَّوْعِ فِتيَـــانُهَـــا[5]
وقَـــدْ عَلِمُـــوا أنَّ مَـــا فَلَّهُـــمْ حَديـــدُ النَّبِيـــتِ وأعيَـــانُهَـــا

ويردُّ حسَّانُ بن ثابت على قيس بن الخطيم فخره، لأن يثرب تعلم من هم ميزان الحق فيها، وأصحاب الكرم وقت الجدب، وتعلم أن الخزرج هم الذين يخيفون الأوس، وأنهم فرسانها الأقوياء بلا منازع.

ويرد حسان عليه فخره ببني النبيت، بأنّ مَنْ يفخر بهم أذلة عند الحرب، ولا وجود لهم لا هم ولا أعوانهم ومن يدور في فلكهم فلا مجال إذن لفخر قيس بن الخطيم بهؤلاء الأذلة[6]:

---

(١) يقول: الأشطان تختلجهنّ بالنزع، أي تجذبهن، وناقة خَلُوج: إذا فصل عنها ولدها وجُذِب إمّا بنحر وإمّا بموت؛ ونوق خِلاج. والأشطان: الحبال. وقال أبو عبيدة: لا يقال للحبل شَطَن إلاّ أن يكون اتخذ للبئر الشطون.

(٢) الأفْن: العيب؛ يقال: رجل مأفون، أي ضعيف المعرفة. والذَّان: أيضًا من العيب.

(٣) أديان: جمع دين، أي الأمور التي تعرفها. وقالوا: الدين، العادة.

(٤) راسٍ: ثابت. يقول: لا يخفُّ، هو راجح. والنبيت: من الأنصار من الأوس. وهم بنو عمرو بن مالك ابن الأوس وقوم قيس بن الخطيم بطن منهم.

(٥) مالك: مالك بن الأوس بن حارثة، والد عمرو بن مالك، وولد عمرو هم النبيت. عرانين: عرانين الناس، وجوههم وسادتهم وأشرافهم.

(٦) الأبيات من قصيدة في ديوانه (١/ ٢٤٠).

ويثرِبُ تعْلَمُ أَنّا بها ... إذا أُلْبِسَ الْحَقُّ ميزانُها

ويثْرِبُ تَعْلَمُ أَنّا بها ... إذا قَحَطَ القَطْرُ، نُوآنُها

ويثربُ تَعْلَمُ أَنّا بِها ... إذا خافَتِ الأوسَ، جيرانُها

ويثربُ تَعْلَمُ إذْ حارَبَتْ ... بِأَنّا لَدى الْحَرْبِ فُرسانُها

ويثربُ تَعْلَمُ أَنَّ النبيتَ ... عندَ الْهَزاهِزِ ذُلاّنُها

نُبِتْ بالنبيتِ وأَشْياعِهَا ... مَنِ انْ أوعِدتْ قَطُّ أَوْطانُها

فكيفَ إذا نازَلْتها لُيو ... ثُ غَريفٍ وشِبلانُها

متى ترنا الأَوْسُ في بيضِنا ... نَهُزُّ القنا تخْبُ نيرانُها

وَتُعْطِ الْمَقادَ على رَغْمِها ... وَيَنْزِلْ من الْهامِ عِصْيانُها

ويثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّ النبيتَ ... لَيْسَتْ بشيءٍ، وأَعوانُها

فلا تَفْخَرَنْ والْتَمِسْ مَلْجَأً ... فَقَدْ عادَ للأَوْسِ أَذْيانُها

ونَحْنُ إذا حَارَبتْ عامِرٌ ... أَمامَ الكتيبةِ أَعْيانُها

ونحنُ إذا نَزَلَتْ مُعْضِلاتٌ ... تُحَسُّ الْقَبائِلَ، إخوانُها

ويتعلّقُ بحسانَ بن ثابت فخره على الأوس بقوة الخزرج، وأنهم أثخنوهم قتلاً وتنكيلاً، فهم يمنعون الضيم أن يقع بهم، ويذيقونه للآخرين عنوة، وليس أمام الأوس إلا تلقى الطعن والتنكيل[1]:

مَنَعْنا على رَغْمِ القَبائِلِ ضَيْمَنَا ... بمرهفةٍ كالمِلْحِ مُخْلَصَةِ الصَّقْلِ

ضَرَبْناهُمْ حتى اسْتباحَتْ سُيوفُنا ... حِماهُمْ وراحوا موجعينَ من الْقَتْلِ

ورُدَّ سَراةُ الأوسِ إذ جاءَ جَمْعُهُمْ ... بطعْنٍ كافواه الْمُخَيَّسَةِ الْهُدْلِ

(١) الأبيات والرد عليها في ديوان حسان (١/٢٤٧)، وهي على وزن البحر الطويل.

ولا يروق هذا الكلام لأحد شعراء الأوس الذي يردّ عليه ردًّا قويًّا، فإن الذي أذلَّ جار مالك بن العجلان الخزرجي هو سُمَيْر بن زيد بن مالك الأوسى، فالذي يفعل ذلك هو الذي يأبى الضيم، ويذيق الذُّلَّ غيره من الناس:

وذلَّ سُمَـــــيْرٌ عَنْـــوةً جارَ مالكٍ   على رغمِهِ بَعـــــد التخمُّطِ والجَهْلِ

وجاءَ ابنُ عَجْلانٍ بِعِلْـجٍ مُجَـــدَّعٍ   فأدْبَرَ مَنْقُـوصَ المُـــروءةِ والْعَقْلِ

وصارَ ابنُ عَجْـــلانٍ نفِيّــا كَأنَّهُ   عَسِـــيفٌ علـى آثارِ أَفْصِلةٍ هُمْلِ

٢- نقائض قيس بن الخطيم وعبدالله بن رواحة

وأول هذه النقائض يبدأ بفخر قيس بن الخطيم بأيامهم، إذ بزعم أنهم انتصروا فيها على الخزرج، ويبدأ بيوم «بُعاث» الذي رُفِعَ فيه حَسَبُ الأوس بالسيف لا باللؤم، وأن بني الخزرج أطاعوا أميرهم الذي لَجَّ في المُحاربة ورفض السّلم فكان أول قتيلٍ في المعركة، فلم يجنِ إلاّ الهلاك لنفسه ولقومه، أمَّا يوم الفجار فهو يوم التغالب، إذ كانت الأوسُ فيه مثل الأسود وكانت نساءُ الخزرج تهزأُ من فرسانها ويقُلْن: ليتنا لم نحارب، لكثرة القتل فيهم. وقد عاد الأوسُ سالمين تاركين الخزرج قتلى[١]:

ويَــــوْمَ بُعَــــاثٍ أسلمَتْنَـــا سيــــوفُنَـا
إلى حَسَــــبٍ في جِــــذْمِ غَسَّــانَ ثاقِبِ[٢]

يجرِّدْن بيــــضًا كــــلَّ يــــوْمِ كريهَـــةٍ
ويُغْمِـــدْن حُمْـــرًا خاضِبَـاتِ المَضَارِبِ[٣]

أطاعتْ بنُـــو عَـــوْفٍ أميـــرًا نَهاهُـــم
عـــن السّـــلْمِ حَتَّـى كان أوَّلَ واجِبِ[٤]

قتلنـــاكـــم يـــوم الفجَـــارِ وقَبْلَـــهُ
ويـــومَ بُعَـــاثٍ كـــان يـــوْمَ التَّغَالُبِ

---

(١) الأبيات من مجمهرته في جمهرة أشعار العرب، (١٥٥/٢)، وهي والرد عليها على وزن البحر الطويل.

(٢) ثاقب: مضيء غير خاملٍ. يقول: رفعَتْنَا سيوفنا إلى حسب حي بصير بالحروب، لا إلى حسب لئيم لا يصبرُ عليها ويفشل ويَخُور. ويوم بُعاثُ. وقعة كانت للعرب من الأوس والخزرج خاصة، والجذم: الأصل.

(٣) مضرب السيف: نحو شبر من طرفه. حُمْرًا: من الدم، وعلى هذه الرواية يكون المراد بالمضارب: مواضع الضرب.

(٤) الواجب هنا: الهالك.

صبحْناكُـــم بيضـــاء يبْـــرقُ بيْضُـــها

تُبِـــينُ خلاخيـــلَ النســـاءِ الهوارِبِ[1]

أتـــتْ عصبـــةٌ للأوسِ تخطـــر بالقنـــا

كمَشْيِ الأسودِ في رَشـــاش الأهَاضِـــبِ[2]

رضِيتُ لعَـــوْفٍ أنْ تَقُـــول نساؤُهـــم

ويهْـــزَأن منهـــم: ليتَنـــا لم نُحَـــارِب

فلـــوْلا ذُرَا الآطـــام قـــد تَعْلَمُونَـــهُ

وتـــرْكُ الفضـــا شُورِكتُمُ في الكواعِب[3]

أصابَ صريحَ القـــومِ غـــرْبُ سيُوفِنـــا

وغـــادَرْنَ أبنـــاءَ الإمـــاء الحواطِبِ[4]

وأُبْنـــا إلـــى أبنـــائنـــا ونسائنـــا

ومـــا مَـــنْ تَـــرَكْنـــا في بُعَاث بآيِبِ[5]

---

(١) وكتيبة بيضاء: إذا كانت صافية الحديد. تبين: أي يهربن فيحسرن عن أسْوقهنّ.

(٢) الهضبة: المَطَرة الدائمة العظيمة القطر. وقيل الدُّفْعَة منه. وفي اللسان: والجوهري. والأهاضيب: واحدها هضاب: وواحد الهضاب هَضْب، وهي جلباتُ القَطْر بعد القَطْرِ، وتقول: أصابتهم أهضوبة من المطر والجمع الأهاضيب. والرشاش: المطر الخفيف. أهاضب: جمع أهضوبة. وقد حذفت ياؤها لضرورة القافية لأن أصلها: أهاضيب.

(٣) ذُرَا: جمع ذروة، وذروة كل شيءٍ أعلاه. والآطام: جمع أطم، وهو الحصن المبني بالحجارة. وقيل: هو كل بيت مربع مسطح. والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي تَهد ثدياها. وشورِكتم: من الشركة. أراد: لولا تحصنكم بالآطام ولم تنزلوا في الفضاء من السهل شاركناكم في نسائكم.

(٤) الصريح: الرجل الخالص النسب - يريد أنهم قتلوا السادة وتركوا من دونهم من الإماء والعبيد الذين يأتون بالحطب لأسيادهم.

(٥) يقول: بعد أن انتصرنا عليهم عدنا مظفرين إلى أبنائنا ونسائنا أمّا قتلاهم في يوم بُعاث فلن يعودوا وأنّى لهم ذلك!.

فلَيْتَ سُوَيْدًا راءَ مَنْ خرَّ منهُم
ومَنْ فرَّ إذْ نحْدُوهم كالجَلائِبِ[1]

وقول قيس بن الخطيم السابق كان يحوى الفخر والهجاء معًا، وأتى ردُّ عبدالله ابن رواحة مُتضمنًا الفخر بالخزرج، وردّ فخر قيس بن الخطيم دون أن يهجوه، فقد ركّز عبدالله بن رواحة في ردِّه على أمور يعتزُّ بها، وهي موضع اعتزاز للعرب جميعًا، فهم لا يتغيرون ولا يتلوّنون، يثبتون على أحسابهم، ويدافعون عنها دفاع الأقوياء، إذ يمشون إلى المعارك بكتائب قوية مزودة بالسلاح، ويعيب على قيس بن الخطيم فخره بالقبائل العربية التي تحالفت معهم، لأنه يعتز بقوة ليست له[2]:

إذا غُيِّرَتْ أحسَابُ قَوْمٍ وجَدْتَنا ... ذَوي نائلٍ فيها كِرَامَ المَضارِبِ
نُحامي على أحْسَابِنا بِتِلادِنا ... لِمُفْتَقِرٍ أو سائلِ الحق رَاغِبِ
وأعمَى هَدَتْهُ للسَّبِيلِ حُلومُنا ... وخَصْمٍ أقَمْنا. بَعْدَ ما لَجَّ، شاغِبِ
ومُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ تَرى المَوتَ وسطَهُ ... مَشَيْنا لَهُ مَشْيَ الجِمالِ المَصاعِبِ
بخُرْسٍ تَرَى الماذيَّ فَوْقَ جُلودِهِمْ ... وبَيْضًا نِقاءً مِثْلَ لَوْنِ الكواكِبِ[3]
فهُمْ جُسُرٌ تحْتَ الدُّروعِ كأنَّهُمْ ... أسُودٌ متى تُنْضِ السيوفُ تُضَارِبِ
مَعاقِلُهُمْ في كل يَوْمٍ كَريهَةٍ ... معَ الصَّبْرِ مَنْسوبُ السيوفِ القواضِبِ

---

(١) الجلائب: الجماعات من الخيل والإبل والغنم والناس، والواحدة جَلُوبة، وهي ما جُلب من شيء. وراء: رأى. وسُويد هو ابن الصامت الأوسي.

(٢) ديوان قيس بن الخطيم، ص٢٠٠،٢٠١.

(٣) خرس: جمع خرساء، وكتيبة خرساء إذا صمتت من كثرة الدروع أي لم يكن لها قعاقع، وقيل: هي التي لا تسمع لها صوتًا من وقارهم في الحرب (اللسان). الماذي: الحديد كله، الدرع والمغفر والسلاح أجمع، ما كان من حديد فهو ماذي (اللسان). نقاء (بكسر النون): جمع نقي.

فخـرْتُـمْ بجمْـعِ زارِكُـمْ في دياركم تَغَلْغَـلَ حتـى دُوفِعوا بالرَّواجِبِ[1]

ويفخر قيس بن الخطيم في قصيدة أخرى بقوة الأوس وعفافهم، فعندما مزّقوا الخزرج وقتلوهم شرَّ قِتْلة، وفرَّ مَنْ بقى حيًّا منهم، لم يستغل بنو الأوس هذا الانهيار ولم تقبل نفوسُهم الكريمةُ أن تسلبَ بيوتَ الخزرج كغنيمةٍ للحرب، ومن ثم فهو يمنُّ على الخزرج بذلك[2]:

غُـودِرَ عِنْـدَ المَكَـرِّ سَـيِّدُهُـمْ فيـهِ سِنَـانٌ تخَـالُـهُ لهَبَـا[3]

وابْنَـا حَـرامٍ وثَـابِـتٌ كُشِفَـتْ خَيْلاهُمَـا عَنْهُمَـا وقَـدْ عَطِبَـا[4]

زُرْنَاهُـمُ بالخَمِيـسِ ضَـاحِيَـةً نُـزْجِي إلى المَـوْتِ جَحْفَـلاً لجِبَا[5]

جَـاءتْ بنـو الأوسِ عـارِضًا بَـرِدًا تحْلِبُـهُ الرِّيـحُ مُقْبِـلاً حَلَبَـا[6]

أرْعَـنَ مثْـلَ الأتـيّ أعْقَبَـهُ صَـوْبُ مُلِـثٍ يُسَيِّـلُ الحَـدَبَا[7]

إنَّ بنـي الأوسِ حِيـنَ تَسْتَعِـرُ الـ ـحَـرْبُ لكَالنّـارِ تأكُـلُ الحَطَبَـا

إنَّ بنـي الأوْسِ مَعْشَـرٌ صَدَقُـوا الـ ـضَّـرْبَ وَسَنُّـوا الإسـاءَ والنَّدَبَـا[8]

---

(١) الرواجب: مفاصل أصول الأصابع التي تلي الأنامل، وقيل هي بواطن مفاصل أصول الأصابع... واحدتها: راجبة (اللسان).

(٢) الأبيات من قصيدة في ديوانه ص١٧١، وهي والرد عليها على وزن البحر البسيط.

(٣) لعله يريد: عمرو بن النعمان البياضي، سيد الخزرج يوم بعاث، وقد أصابه سهم في ذلك اليوم فقتله.

(٤) وابن حرام: لعله يريد بابن حـرام: المنذر بن حرام، من مالك بن النجار من الخزرج، وقد تحاكمت إليه الأوس والخزرج في حربهم يوم سُمَير؛ وابنه هو ثابت والد حسان بن ثابت (جمهرة أنساب العرب، ٣٢٦-٣٢٧).

(٥) ضاحية: عَلانيةً جِهارًا. نزجي: نسوق. والجحفل: الجيش العظيم. واللَّجِب: الكثير الأصوات.

(٦) بَرِد: أي فيه بَرَدٌ، أي جاءوا ولهم حَفيفٌ كسحابٍ فيه بَرَدٌ.

(٧) الأرعن: الجيش يُشَبَّه برَعْنِ الجبَل، وهو أنفٌ منه مُتَقَدِّم. والأتيُّ: سيلٌ يأتيك من غير أن يصيبك مَطَرُهُ. أعقبه: أي جاء بعده. صَوْبُ مُلِثّ: أي مطر دائم فلم ينقطع السيل، وهذا مَثَل، ويقال: ألَثّت السماء إذا دام مطرها.

(٨) الإساء: الدواء. والنَّدب: آثار الجراح.

فَصَمَدُوا رَأسَ كَبْشِ إِخْوَتِهِمْ حتّى تَوَلَّوا واسْتَنْفِروا هَرَبَا

بِكُلِّ لَيْنٍ ماضٍ ضَرِيبَتُهُ عَضْبٍ إذا ما هَزَزْتَهُ رَسَبَا

قالَتْ بَنُو الأَوْسِ مِنْ عِفافِهِمُ مُرُّوا ولا تَأْخُذُوا لَهُمْ سَلَبَا

تَسُوقُ أُخْرَاهُمُ أوائِلَهُمْ كَمَا يَسُوقُ المُعَارِضُ الجَلَبَا

لمّا دَعاهُمْ لِلمَوْتِ سَيِّدُهُمْ ثابَتْ إليهِمْ جُمُوعُهُمْ عُصَبَا

والفخرُ والمنّة عند قيس بن الخطيم في القصيدة السابقة لهما ما يبررهُما على أرض الواقع، لذلك نجدُ ردَّ عبدالله بن رواحة لا ينفي هزيمة الخزرج، ولا يردُّ على فخر قيس بن الخطيم بفخر مُماثل مما يؤكد أن الخزرج قد مُنِيَتْ بهزيمة مُنكرة، ويركز ابن رواحة في ردّه على هجاء قيس بن الخطيم ورهطه، فهم شرار الأوس وأغثهم نسبًا، وأنهم متحالفون مع الخيانة والفحش والكذب واللؤم، فقيس بن الخطيم ورهطه كانوا في بيوتهم لم يشهدوا الغنائم التي أخذها بنو الأوس في ساحة المعركة، وعلى ذلك فهو يفخر بشئ ليس له، وأنّه لو كان حاضرًا الحرب لكان ذنبًا فيها لا رأى له ولا قيمة[1]:

يا قَيسُ أَنْتُمْ شِرارُ قَوْمِكُمُ قِدْمًا وأَنْتُمْ أَغَثُّهُمْ نَسَبَا

حالَفْتُمُ الفُحْشَ والخيانَةَ والـ ـبُخْلَ جَميعًا واللُّؤمَ والكَذِبَا

يا قَيسُ إنَّ الأسْلابَ أَحْرَزَها مَنْ كانَ يُغشي الذَّوائِبَ القُضُبَا

وأنتَ في الدّارِ غيرُ مُحْتَضِرٍ حَزْبًا وتَدْعُو قِتالَنا لَعِبَا

لَوْ كُنتَ فيهِمْ والحَرْبُ لاقِحَةٌ لَكُنْتَ فيهِمْ مُغَلَّبًا ذَنَبَا

نحنُ اسْتَبَحْنا ما في دِيارِكُمُ يَوْمَ صَبَحْناكُمُ بها عُصَبَا

والنصر والهزيمة لم يكونا واضحين في وقعات الأوس والخزرج، إلاّ أن يوم

(١) ديوان قيس بن الخطيم ص١٦٩.

«الفضاء» كان للأوس على الخزرج، وفيه اقتتلوا قتالًا شديدًا حتَّى حجزَ الليلُ بينهم لذلك نرى فخر قيس بن الخطيم واضحًا، ينمُّ عن نصرٍ مُحَقَّق فهو يعدد من قُتِلَ من الخزرج، ويصوِّر فرارَهم أمام الأوس ويختم أبياته بفخر يملؤه الثقة بالقوة، لأن سيوف الأوس لم تترك حيًّا من الخزرج إلا الذين هربوا مشردين، وأن الأوس ستظل تلاحقهم حتى يكونوا عبيدًا لهم[(١)]:

سَقَيْنَا بالفضاءِ كؤوسَ حَتْفٍ ... بني عوفٍ وإخوتَهُمْ تزيدَا[(٢)]

لَقيناهُمْ بكُلِّ أخي حُرُوبٍ ... يَقُودُ وراءَهُ جَمْعًا عَتِيدَا[(٣)]

ومُشْرِفَةَ التَّلائلِ مُضْمَرَاتٍ ... طَوَى أحْشاءَها التَّعْداءُ، قُودا[(٤)]

أكُنْتُمْ تَحْسِبُونَ قِتالَ قَوْمي ... كأكْلِكُمُ الفَغَايا والهَبِيدَا[(٥)]

أصاب القَتْلُ ساعِدَةَ بنَ كَعْبٍ ... وغَادرَ في مجالِسِها قُرُودا

وقد رُدَّ العزائمُ في طَرِيفٍ ... وأقيالٍ يَصُوغُونَ الحَديدا[(٦)]

وإنَّ سُيُوفَنا ذهَبَتْ عَلَيْكُمْ ... بَني شَرِّ الخَنَى مَهلاً بَعِيدا

ويأبى جَمْعُكُمْ إلاَّ فِرَارًا ... ويأبى جَمْعُنا إلاَّ وُرُودا

وإنَّ وَعِيدَنَاكُمْ حِينَ نَمْشي ... بِهِنَّ على المَنُونِ ولا وَعِيدا

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي كُعَيبًا ... فَهَلْ يَنْهاكَ لُبُّكَ أنْ تَعُودا

---

(١) الأبيات من قصيدة في ديوانه ص١٤٥، وهي على وزن البحر الوافر.

(٢) تزيد: جَدُّ بني سلمة بن عليِّ بن تزيد بن جُشم بن الخزرج. جمهرة أنساب العرب ص٤٢١، وبنو عوف: هم بنو عمرو بن عوف بن الخزرج. انظر: جمهرة أنساب العرب ص٣٣٤.

(٣) عتيد: مُهَيَّأ.

(٤) التّلائل: الأعناق، واحدها: تليل. التّعداء: العَدْوُ. والقُودُ: الطّوال الأعناق.

(٥) الفَغايا، من الفَغَا، وهو: أن يركب النخلة غُبارٌ، فيغلظ جلد بُسْرِها ويصير فيه مثل وَشْي أجنحة الجنادب. يقال: قد أفْغَى النخلِ. والهَبيد: أن يؤخذ حَبُّ الحنظل فيُنقع في ماء أيّامًا، ثم يُصَبُّ ذلك الماء ويجدَّد له ماء آخر حتى تخرج مرارته ثم يُطبخ.

(٦) يريد أنهم حدّادون.

أراني كُلما صَدَّرْتُ أمْرًا بَني الرَّقْعاء جَشّمَكُمْ صَعُودا[1]
فَما أبْقَتْ سيُوفُ الأوْسِ مِنْكُمْ وحَدُّ ظُباتِها إلاّ شَرِيدا
فَلَنْ نَنْفَكَّ نَقْتُلُ مَا حَيِينا رِجالَكُمُ ونَجْعَلُكُمْ عَبِيدا

ويأتي ردّ عبدالله بن رواحة قويًّا، فهو لا يعترف بهزيمة قومه أمام الأوس، ويرد عليه فخره بالقوة، بفخر أقوى، فالذي ينزل يثرب يجد الخزرج أكرمها جدودًا ونسبا، وأنهم الأشدُّ قوة على الأعداء والأكثر رحمة للحلفاء، وأنهم أوفى الناس بالوعد، وأكثر أهل يثرب عددًا، ثم يركِّزُ ابن رواحة على وقعات سابقة فيما يبدو انتصرت فيها الخزرج على الأوس ومن ثم فهو يرد فخره بيوم «الفضاء» بفخر مماثل في وقعات سلفت[2]:

متى ما تأتِ يثربَ أوْ تزُرْها تجِدْنا نحنُ أكرمهَا جدُودا
وأغلَظها على الأعداء رُكنًا وألينَها لباغي الخير عودا
وأخطَبها إذا اجتمعوا لأمرٍ وأصدَقها وأوفاها عُهُودا
إذا دُعيَ ويَ ببلدتنا استتبَّتْ فنحنُ الأكثرونَ بها عَديدا
متى ما أدْعُ في جُشَمٍ وعَوْفٍ تَجِدني لا أغَمَّ ولا وحيدا
وحولي جَمْعُ ساعدةَ بن كعبٍ وتيمُ اللاتِ قد لبسُوا الحديدا
زَعمْتُمْ أنَّ ما نِلْتُم ملوكَ الـ ـحجازِ وأنما نِلْنا عبيدا
فما نبغي بقتلانا سِواكم وقَد نِلْنا المُسوَّدَ والمَسُودا
وكان نساؤكم في كلِّ دارٍ يُخَدِّشْنَ المعاصمَ والخدودا
تركنا حَجّنا بغدير فقعٍ ظَرابي في مجالسها قعودا
ورهطَ أبي أُميّةَ قد أبحنا وأوس الله أتْبَعْنا ثَمودا

---

(١) الرقعاء: الحمقاء. والصَّعود: العقبة الشاقة. أي: جشمكم أمرًا يشقُّ عليكم.
(٢) الأبيات من قصيدة له في ديوان حسان بن ثابت (٢٣٨/١)، وهي على وزن البحر الوافر.

٣- قيس بن الخطيم وأنس بن العلاء الخزرجي:

وهى نقيضة واحدة، بدأت من جهة قيس بن الخطيم يفخر فيها على أنس بن العلاء بوقعة يوم «الردم» وأن الأوس تركت الخزرج فريقين أحدهما قتيلاً والآخر طريدًا على وجهه يطلب النجاة من الموت، وأن الأوس هم حُماة الحرب وأبطالها دون سواهم[١]:

ألا أبْلِغـا ذا الخَـزْرَجِـيَّ رِسـالـةً ... رِسَالَـةَ حَـقٍّ لَسْـتُ فِيهـا مُفَنِّـدا

فإنّا تَرَكْنا كُـمْ لـدَى الـرَّدْمِ غُـدوةً ... فَـرِيقَيْـنِ: مَقْتُـولاً بـهِ ومُطَـرَّدا

صَبَحْنَاكُـمُ منّـا بـهِ كُـلِّ فـارِسٍ ... كَرِيـمِ النَّثـا يَحْمي الذِّمَارَ لِيُحْمَدا[٢]

أتَـذْكُـرُ أمْـرًا لَـمْ تَنَلْـهُ، وإنّمـا ... تَنَـاوَلَ سَجْـلَ الحَرْبِ مَنْ كان أنجدا

فذُقِ غِبَّ ما قَدَّمتَ، إنـي أنـا الـذي ... صَبَحْتُكُـمُ فيـهِ السِّمـامَ بِبُرْجُدا[٣]

ونحنُ حُماةُ الحَـرْبِ لَيْسَـتْ تَضِيرُنـا ... نَسُـوقُ خَمِيـسًا كالقَطـا مُتَبَـدِّدا

ويقتصر ردّ أنس بن العلاء على أن الخزرج عامة ورهطه على وجه أخص هم حُماة يثرب وأبطال الحرب فيها، ويُذَكِّرُ قيسَ بن الخطيم بوقعة لم يحددها، بأنهم أتوهم صباحًا وهزموهم وكان قيس حائرًا متلددًا في هذه الوقعة يَعُضُّ على أطرافه حزنًا وأسى كلما رأى فارسًا خزرجيًا[٤]:

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ص٢١٦،٢١٧، والقصيدة والرد عليها على وزن البحر الطويل.

(٢) صبحناكم: أي أتيناكم صباحًا وأغرنا عليكم. والنثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ، يقال: فلان حسن النثا وقبيح النثا. الذمار: الحرم والأهل والحوزة وكل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه.

(٣) السام: جمع السم القاتل.

(٤) الأبيات من قصيدة نسبت إلى أنس بن العلاء في ديوان قيس بن الخطيم ص٢١٩.

ونحنُ حُماةُ لِلْعشيرةِ أينما نكُنْ لا يُبالوا أن يَغيبُوا ونَشْهدا
نُحامي على جِذْمِ الأغَرِّ بمالِنا ونَبذُلُ حَزْراتِ النفوسِ لنُحمَدا[1]
صَبحْناهُمُ عِنْدَ القِتالِ بغارةٍ فأصْبحَ قيْسٌ بَعْدَها مُتَلَدِّدا[2]
يَعضُّ على أطْرافِهِ كُلَّما بدا لنا فارِسٌ يَبْغي القتالَ تَنجُّدا

(١) الأغر هو مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج (انظر جمهرة أنساب العرب ص٣٤٤). وحزرة الشيء: خياره؛ يقال: هذا حزرة نفسي أي خير ما عندي؛ سميت حزرة لأن صاحبها لم يزل يحزرها في نفسه كلما رآها، سميت بالمرة الواحدة من الحزر، ولهذا أضيفت إلى الأنفس. (اللسان - حزر).

(٢) متلددا: التلدد، التلفت يمينًا وشمالاً من الحيرة.

١٤- آخر نقائض العصر الجاهلي:

يوم الشَّيِّطين[١]:

وهو يومٌ لبكر بن وائل على تميم، وكان قد بُعث النبيُّ - صلى الله عليه وسلم. ولم يُسلم بعدُ أهلُ نجد والعراق، وسارَتْ بكر بن وائل نحو الشَّيِّطين للغارة على بنى تميم وقالوا: فى دين ابن عبدالمُطلب مَنْ قَتَلَ نَفْسًا قُتِلَ بها، فنغير هذا العام ثُم نُسْلِمُ عليها، والتقوا تميمًا وقتلُوهم قتلًا ذريعًا وأخذُوا أموالَهم، واستحرَّ القتلُ في بني العنبر وبني ضَبَّة وبني يربوع، وقيل قُتِل من تميم في ذلك اليوم ستمائةُ رَجُلٍ، لذلك نرى رُشَيْدُ بنُ رُميض العنزيّ[٢] بفخرُ بانتصارهم في هذه الواقعة حيث قطعوا المسافة بين ديارهم ووادي الشَّيِّطين في أربعة أيام، وهي مسيرة ثمانية أيام، فسبقوا كُلَّ خبر، حتَّى صبَّحُوهم وهُم لا يشعرون ويُعدِّد الشاعر فروع بني تميم التي مُزِّقتْ كُلَّ مُمزَّق[٣]:

وما كـان بـين الشَّيِّـطين ولعلـعٍ ... لنسـوتـنـا إلاَّ مناقـل أربـعُ

فجئنا بجمعٍ لـم ير النَّـاسُ مثـلَهُ ... وكـادَ له ظهـرُ الوديقـةِ يضلَـعُ

بأرعنَ دَهْم تُنشَـدُ البُـلقُ وسْـطَهُ ... له عـارضٌ فـيه المَنيّـة تلمـعُ

---

(١) الشَّيِّطَان، بفَتح أوّله، وكسر ثانيه وتشديده، بعده طاء مُهملة على لفظ التثنية: هما واديان لبني تميم، أخذهما بنو بكر بن وائل في ذلك اليوم. انظر: معجم ما ستعجم للبكري، تحقيق مصطفى السقا - عالم الكتب الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (٣/٨١٩)، (٤/١١٥٦).

(٢) في الاشتقاق لابن دُريد بتحقيق عبدالسلام هارون ص٣٢٠: وعَنَزَة اسمه عامر، وسُمِّى عَنَزَة لأنّه طعن رجلاً بعَنَزَة، والعَنَزَةُ: خشبة في رأسها زُجٌّ. وفي جمهرة النسب للكلبي ص٥٩٩: رُشَيْدُ بنُ رُمَيْض العَنَزِيّ، من رهط حبيب بن سعد بن النَّمر بن يَقْدُم بن عَنَزَة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وأعتقد أن هذا النسب غير صحيح، وأنّه ينتسب إلى عَنْز بن وائل، أخي بكر بن وائل وتغلب بن وائل. لأنّه من الطبيعي أن يفخر أحد من بني عنز بن وائل بانتصار أبناء عمومته بني بكر. انظر: جمهرة النسب ص٥٧٥.

(٣) أيام العرب قبل الإسلام ص٤٤٣. والعقد الفريد (٦/٦٤)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الطويل.

إذا حَانَ منه منزلُ القومِ أوقدتْ لأخراهُ أولاهُ سنًا وتيفّعُوا
صبحْنا به سعْدًا وعمرًا ومالكًا فظلَّ لهُم يومٌ من الشّر أشنعُ
وذي حسبٍ من آل ضبّة غادَرُوا يُجَرّ كما جُرّ الفصيلُ المقرّعُ
تقصّعَ يربوعُ بسُرّةِ أرضِنا وليسَ ليربوعٍ بها مقتصَّعُ
وقلْتُ ليربوعٍ أسِرُّ نصيحةً ولو أن يربوعًا إذا امتار يُرفَعُ
يُخلُّوا لنا صَحْنَ العراقِ فإنّهُ حِمىً منهُم لا يُسْتَطاعُ ممنّعُ

ويكونُ ردُّ مُحْرِزِ بن المُكعبر الضَّبى ردًّا مَهْزُومًا، فهو لا ينفي انتصار بكر الكبير على بني تميم، لأن قَتْلَى تميم في هذه الواقعة تحدثت بهم الرُّكبان، لكنه يجعل هذا الانتصار انتصارًا مذمومًا لأنّه انتصار اللئام والجُبناء الذي لا يحقُّ لأي عربي شريف أن يفخرَ به، لأن بني بكر أخذت تميمًا على غرة ولم تكُن مواجهة بين فرسان الفريقين، ولو كانت كذلك لأُبيدت بكر عن آخرها:

فَخَرْتُم بيومِ الشَّيِّطين وغيركم يَضُرُّ بيوم الشَّيِّطينِ وَيَنْفَعُ
وَجِئْتُم بها مَذْمُومَةً عَنزِيّةً تَكَادُ من اللُّؤمِ المُبَيِّنِ تَطْلعُ
فإنْ يَكُ أَقْوامٌ أُصِيبُوا بِغِرَّةٍ فَأَنْتُم من الغَارَاتِ أَخْزَى وَأَوْجَعُ
فَرِيقَانِ مِنْهُم مَنْ أَتَى البَحْرُ دُونَهُ وَمُودٍ كما أَوْدَتْ ثَمُودُ وَتُبّعُ
وَمَا مِنْكَ أَفْنَاءَ بَكْرِ بنِ وائلٍ لغَارتنا إلاّ ذَلُولٌ مُوقَّعُ



الفصل الثاني

الملامح الموضوعية للنقائض

الملامح الموضوعية للنقائض

١- أسباب النقائض:

بعد عرض النقائض في الفصل السابق تبيَّن لنا أن نقائض الجاهليين كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحروب العرب وأيامهم، ومن ثَمّ فهى نتاج خلاف حقيقي بين طرفين نقيضين، يقف أحدُهما ندًّا للآخر في ساحة المعركة وفي ساحة الشعر على السواء، حتَّى أن الأنماط القليلة من النقائض التي كانت بين الأقارب وحملت النُّصح والتحذير، فإنها أوضحت بجلاء أن طرفي النقائض كان الخلاف بينهما كبيراً، وأن نقطة التلاقي كانت بعيدة، وعلى ذلك فإن نقائض الجاهليين كلها نتجت عن تباين واختلاف حقيقين، وأن العداء كان الغالب فيها، فهى معركة أخرى مثل معارك السيف والرمح، وهي لا تقل ضراوة عنها، نقول ذلك لأن النقائض تحوَّلت في العصر الأموي إلى نقائض فنية ولم تك نتيجة خلاف حقيقي وجوهري بين طرفيها، بل رُبّما يكون الشاعران المتناقضان في العصر الأموي صديقين، ولكنهما يتناقضان كنوع من المنافسة الفنية والقدرة على الرد أمام الناس، فهو صراع فني، ورغبة في قهر الخصم، وأن ينال الشاعر بذلك شهرة بين الناس ويصبح الشاعر الأوَّل الذي قهر الخصم، وأن تتحدث الركُبان عن ذلك، وقد ساعد على ذلك نظام الحكم الأموي الذي غزّى هذه النقائض كي يلهو الناس عن شؤون الحكم والثورات والعلويين وكل القلاقل التي كانت تؤرق حكام بني أمية.

لذلك نرى النقائض الجاهلية أكثر تعبيراً عن واقع الحياة وأكثر صدقًا في التعبير عن النفس العربية، وذات الشعراء الجاهليين، بل كانت في بعض الأحيان تعبر عن روح قبيلة بأسرها، فالغرض الأساسي لها هو النصر على العدو قولاً بعد النصر عليه في معركة قتالية أو تقليل قيمة نصر العدوّ إذا هزمهم.

وكانت بعض النقائض تحمل طابع النصيحة، لأن أسبابها تختلف عن أسباب النقائض الأخرى، فهي تنتج عن موقف معين يختلف عليه أصحاب الفريق الواحد، يرى كلٌ منهم فيه رأيًا مختلفًا عن الآخر.

٢- القيمة الموضوعية للنقائض:

وإذا كانت المعارك هي السبب المباشر للنقائض في العصر الجاهلي فإن قيمة النقائض تكمن في هذا السبب، فهي توضح بجلاء الجوانب المختلفة لأسباب القتال، ورؤية كل طرف من أطراف المعركة لنتائجها، كما أنّها تعد رصدًا لهذه المعارك يختلف عن الرصد التاريخي لها، فالنقائض لا تهتم بذكر الموقعة ونتائجها بقدر ما تعني بإبراز الجوانب الأخلاقية التي حتّمت على كل طرف خوض المعارك، وكما أنها اهتّمت بإبراز خصال أجمعتْ عليها البيئة العربية في العصر الجاهلي مثل الإباء والأنفة ورد الظلم وحماية الجار والعرض، وأن التفريط في الدِّماء أهون على العرب من التفريط في هذه الخصال التي جعلتها البيئة حقًّا مشروعًا للقبائل والأفراد.

كما أن النقائض أصبحت مبارزات عقلية وفكرية بين طرفين، كُلٌّ منهما يحاول دحض رأى الآخر مثلما يحاول هزيمته في أرض المعركة تمامًا، بل لا نبالغ إذا قُلنا إن الاهتمام بالنصر القولي ربما حرص عليه العربي في العصر الجاهلي أكثر من الانتصار في معركة، لأنّ العرب يعرفون جيدًا أن الشعر هو سجلهم الحقيقي، وأن الهزيمة في النقائض تعني أن يتناول الناس أخبار تلك الهزيمة جيلًا بعد جيل، كما أنهم كانوا يعلمون أن الشعر يطير في أرجاء جزيرة العرب بسرعة فائقة، وأن الناس تتناوله في كل مكان، فبعد أن يقول الشاعر قصيدته أو مقطعته لم تعد ملكًا له وإنما تنتشر انتشارًا واسعًا شاء الشاعر أم أبى، لذلك حرص الجاهليون على النقائض لأنها تعبر عنهم وتحمل رؤيتهم للأحداث ومفاخرهم على الغير، فهي تحمل تاريخ القبيلة السياسي إن جاز لنا تسميته كذلك.

٣- **شعراء النقائض:**

لو نظرنا إلى شعراء النقائض في العصر الجاهلي لوجدنا أنهم أربعة وأربعون شاعرًا، وقد بلغت قصائدهم ومقطعاتهم مائة وثلاث عشرة قصيدة، كانت ميدان المناقضة بينهم. والمُلاحظ على هذه النقائض أنها صُبغَتْ بأخلاف أصحابها ولم تأتِ منفصلةً عنهم بحال. نقصد بذلك أخلاق الفروسية.

ولو نظرنا إلى الشعراء لوجدنا أن كثيرًا منهم كانوا فرسانًا شعراء فمنهم من غلبت عليه فروسيته وعُرف وشُهِر بها، ومنهم من غلبت عليه موهبته الشعرية فعُرف بها، ومنهم مَنْ تساوى عنده الأمران، أما الذين عُرفوا بالفروسية فهم الملوك ورؤساء القبائل وهم: التبع اليماني، وكليب بن ربيعة، وجساس بن مرة، ومرة بن ذهل، والحارث بن ظالم، وقيس بن زهير بن جذيمة، ولقيط بن زُرارة، وأبو براء عامر بن مالك (ملاعب الأسنة) والأسود بن المنذر، والنعمان بن المنذر، وسَلَمَة بن الحارث بن آكل المرار، ولبيد بن عنبسة الغساني، وعمرو بن الإطنابة.

أما مَنْ غلبت عليه موهبته الشعرية وعُرف بين الناس كشاعر دون أن تُنفى عنه صفة الفروسية فهم: النابغة الذبياني، وعبيد بن الأبرص، وامرؤ القيس، وحسان بن ثابت، وقيس بن الخطيم، وبشر بن أبي خازم، والفند الزِّمَّاني.

وهناك مَنْ جمع بين الحُسنيين، الشعر والفروسية بشكلٍ متكافئ، لا نستطيع أن نفصل بينهما مثل: المهلهل عدى بن ربيعة، والحارث بن عباد، وعامر بن الطفيل، والربيع بن زياد، وعبدالله بن رواحة.

وبهذا التصنيف نجد أننا أمام فرسان شعراء لهم مكانتهم الاجتماعية فرضَتْ

عليهم نمطًا أخلاقيًا مُحدَّدًا يحكم شعرهم، لأن الفروسية ليست وقفًا على الحروب والغارات والسلب والقتل وتحقيق النصر، لكنها «مظهر من مظاهر الحياة نشأ نتيجة عوامل اجتماعية وأخلاقية وحربية معينة، وتطور وفق أساليب حيوية شاملة، وقد ساعد على تطوره فطرة عربية سليمة وجدت في المثل السامية قيمها الحقيقية وهدفها الذي تسعى إليه»(1) لذلك نجد الفرسان العرب في الجاهلية يتحلّون بحميد الخصال التي تمجدها بيئتهم، ويتغنون بهذه الخصال في شعرهم، فخرًا بأنفسهم وقبيلتهم وهجاءً لعدوّهم، ورثاءً لقتلاهم الأبطال الذين دفعوا حياتهم للذود عن حياض القبيلة، والفروسية بهذا المعنى «تمثل جانبين من جوانب الحياة الجاهلية، جانب الحرب، وجانب المُثل العُليا وفي كلتا الحالتين بناء واحد وروح واحدة، لأنّ شخصية الفارس تملى عليه أن يكون إنسانًا ساميًا»(2) بفعله وخلقه.

---

(1) الفروسية في الشعر الجاهلي، الدكتور نوري القيس ص٢٧.

(2) السابق ص١٣.

٤- أغراض النقائض:

١- الفخر:

يُعَدُّ الفخرُ من الأغراض الشعرية التي حفل بها الشعر الجاهلي لأنّه يتوافقُ مع طبائع الأنفس العربية التي جُبِلَتْ على الرفعة والسمو والأنفة والاعتداد بالنفس، ومن ثَمَّ «قام الفخرُ على الفضائل الاجتماعية التي أقرَّتها الحياة العربية القديمة، إذ كان كُلُّ فردٍ يحاولُ أن يثبت امتيازه وتفوقه على غيره، وإشباعًا للشعور بالعزة وإرضاءً لحبِّ التسامي والشرف، واعتقادًا منهم بأن القوة والسيطرة جزءٌ لا يتجزأ من هذه الحياة ما دامَتْ الغلبةُ للقوى»(١) فالنفس العربية - غالباً - تحب أن تتغنى بكل أسباب الفخر إرضاءً للذات، ولعل هذا ما جعل العباس بن عبدالمطلب - رضى الله عنه - يوم فتح مكة يشير على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لأبي سفيان بن حرب شيئًا يفتخر به لأنّه رَجُلٌ يحب الفخر، ومن هنا كان نداء النبي - صلى الله عليه وسلم - من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يقف ضد النزعات الفطرية التي جُبلت عليها بعض الأنفس، ولم يكن أبو سفيان صنوًا وحده في هذا، فجزيرة العرب مليئة بكثيرين من السادة الذين يحبون الفخر والتمدح بالخصال الكريمة، لذلك أعتقد أن الفخر هو أقرب الأغراض الشعرية للنفس العربية في العصر الجاهلي فهو يتناغم معها ويعبر عن رغبتها في التباهي على الغير بما تملك من قدرة قتالية أو موهبة شعرية.

بقى أن نشير إلى أن معظم الرجال في العرب كانوا فرسانًا لقبيلتهم وبالتالي يتأكد لنا أن هؤلاء الفرسان هم الذين صبغوا الحياة العربية عامة بنمط خلقي

---

(١) شعر الفروسية، الدكتور نوري القيس ص٢٤٣، وانظر: في تاريخ الأدب الجاهلي، للدكتور علي الجندي، ص٣٩٨، والعمدة لابن رشيق (٢/٣٥٥).

مُحدد هو خلق الفرسان - إن جاز التعبير - ففي حالات الفخر اعتمدوا على الفخر بالأنساب والشجاعة في القتال وتمجيد الكرم، وعند الهجاء سلبوا عدوَّهم هذه الخصال ولم يلجأوا إلى الهجاء المقذع أو الألفاظ الجارحة التي ظهرت فيما بعد في رحلة الشعر العربي عبر العصور التالية للعصر الجاهلي.

ففي نقائض التُّبع اليماني وكليب نجد كُلاًّ منهما يفخر بنسبه، ويهدد عدوَّه، دون أن نلمح أثرًا للهجاء بين الطرفين فالتبع يعتز بانتمائه إلى حمير وقحطان، وكليب يعتز بنسبة إلى تغلب وبكر، يقول التبع:

بسيوف حمير والمقاول وسطها ... والخيل تبدو ساعة وتعودُ
قلأ خضبنّ سبالهم بدماهم ... ولتعفرن معاطسُ وخدودُ

ويرد عليه كليب:

لم أسر بالغمرات ان لم ألقكم ... شهباء مثل صرائم الأخدود
حتى أنازل تُبَّعًا بكتيبةٍ ... شهباء ليس ورودها كورودي
فرجالُ تغلب والأراقم وسطها ... والخيل بين مجنب ومقود
ورجالُ بكرٍ مُلجمون خيولهم ... ما بين قِرمٍ سيد ومسود

ويعود التبع إلى التهديد لأن بني تغلب قد أسرَتْ النِّمر بن قاسط ويقسم أنه سيفنى مَنْ أسروه، ويعتز في الوقت نفسه بقوة جبيشه:

لست بالتُّبع اليماني إن لم ... تصبحِ الخيلُ في سواد العراق
وعليها شبابُ صدقٍ كرام ... يحسنون الطِّعان يوم التلاق
إنما النِّمرُ خيرنا وهو منّا ... إنّ فقد الكرام في القلب باق
سرقُوه منّا وآباؤه الشمّ ... فعندى عقوبة السراقى
سوف أرميهم بشُعثٍ ومرد ... فوق جُرد مسومات عتاق
فإذا ما الحروب شابَتْ فكانَتْ ... مهجات النفوس عند التراقى

واســـتدارت وأظلمـــت وتظلت لمتاح وقلّصــت عـــن ساقـــي
ألقحـوا نارهـا وشـبوا لظاهـــا بـرمـاح مســنونـــة الأرواقـــي
ليـس حـيّ مفاخـــرا لـرجالي أو مُجار لـهـم غـــداة السـباق
وسـبأ في ملـــوك قحطـــان إلا عـاش ما عـاش في أشـد وثـاقي

وهنا يصفُ كليب التبع الثماني بأنّه «جاهل» لا يعرف شيئًا عن خصال عرب الشمال، وأن التهديد والوعيد لا يثنيهم عن شئ قد عزموا عليه، ولكي يوضح كليبُ صدق وصفه للتبع بالجهل فإنّه يقتل له النمر بن قاسط وهو في أسره عند تغلب، فإذا كان الأسر قد أحزن التبع وهدّد من أسروه فقد أنزلوا به ما هو أشد من الأسر:

غضـبَ التُّـبعُ اليمـاني جهـلاً إذ ثـوى النَّمـرُ عنـدنا في الوثـاقِ
بُرهـةً ثـمَّ صـارَ بعـد قتيـلاً ليـسَ حـيٌّ على المنـون بباقِ
وضربْنـا مفـارقَ الـرأسِ منـهُ بحسـامٍ يهـوي إلى الأعنـاق

ولعل ما يلفت النظر في النقائض الجاهلية أنها أحيانًا كانت تحمل الصدق في ثناياها، فالشعراء الفرسان كانوا يقولون ما يؤمنون به وما يعتقدون فيه دون تزييف للوقائع والمعارك، نلمح ذلك عند الأفوه الأودى الذي يسوق لنا شعره في قصة حوارية رائعة بينه وبين ابنته، ومن خلال الحوار يعترف الأفوه بهزيمة اليمنيين أما كُليب بن ربيعة، ولم يسند هزيمته إلى الحظ العاثر أو غدر الأعداء أو أنهم أخذوهم على غرة ولم يكونوا مستعدين، بل أنه يصل إلى أبعد من ذلك باعترافه الصريح أن اليمنيين لم يعد لهم بعد هذه الهزيمة الحق في الفخر، فقد أصبح الفخر لعرب الشمال دونهم، وهذا من وجهة نظرى لا يخرج عن خُلق الفرسان، الذين يبتعدون عن تزييف حقائق الأمور، والوقوف بواقعية شديدة أمام المصائب:

لمّا رأتْ بشرى تغيّر لونُها ... ومنْ بعد بهجتِه فأقبلَ أحمرا

ألوتْ بإصبعها وقالتْ إنّما ... يكفيكَ ممّا قد أرى ما قدَّرا

إنّي ذؤابةُ مَذْحِجٍ وسنامُهَا ... وأنَا الكريمُ ذرى القديمة كررا

قُولى لِمَذْحِجٍ عاودُوا لدخولكم ... لَوْلا يُجيبُوا دعوتى حَلبَ الصَّرا

كان الفخار يمانيًّا مُتقحطنًا ... وأراه أصبحَ شاميًّا مُتَنزِّرا

وعندما يفخر مُرَّةُ بن ذُهْل بانتصارهم على اليمنيين في «خزازى» ويرد على الأفوه الأودي، فإنه لم يتعد الفخر بقوة بكر وتغلب وضعف الخصم أمامهم، حتى أن اليمنيين أصبحوا إما قتلى أو أسرى:

شفتِ النفوسَ سيوفُنا من مَذْحِجٍ ... والحيِّ هِمْدان وذُروة حميرا

فالقومُ بين مجدَّلٍ ومصفَّدٍ ... بالقدّ يختارُ الثَّواري بالثرا

فَغَضْبتكم لما قتلنا جمعَكُم ... وإذا قتلْتُم غيرَكم فيه الزرا

ما انصفتْ أحكامُكم فاستنصفَتْ ... منها الأسنةُ والسيوفُ بلا افترا

وعادة ما يتبع الفخر بالقوة التهديد والوعيد للخصم، وقد برز ذلك في المناقضات بين الحارث بن عُباد والمهلهل عدى بن ربيعة، فكلٌّ منهما فارس شجاع له تاريخه في حروب قبيلته، وكلٌّ منهما موتور، فالمهلهل فقد صوابه بعد مقتل كليب ويرى أن الدنيا كلها لا قيمة لها بعد موت أخيه ومن ثم أخذ بقتل البكريين أينما وجدوا، حتى أن الحارث بن عُباد كان معتزلاً لهذه الحرب ولم يقف مع قومه البكريين، ولم ينجو الحارث من نار الحرب فقد قتلَ المهلهلُ ابنه بُجير، وأصبح الفارسان الشاعران أمام بعضهما وجهًا لوجه، كلٌّ منهما يطلب ثأرًا عند الآخر، وكلٌّ منهما لا يريد أن يتنازل عن حقه حتى لا يُمحى تاريخه القتالي الذي بناه عبر السنين بين أبناء قبيلته، فالتصميم على الحرب وأخذ الثأر هو سيد

الموقف إذن بين الشاعرين الفارسيين ـدا نرى المهلهل يفخر بوقعاته وانتصاراته ثم يهدد بالمزيد:

أَثْبتُّ مُرَّةَ والسُّيوفُ شَواهِرٌ ... وصَرفْتُ مقدمها إلى هَمَّامِ
وبني لُجَيْم قدْ وطأْنَا وطأةً ... بالخيْلِ خارجةً عن الأَوْهَامِ
وسقيْتُ تيْم اللَّاتِ كأْسًا مُرَّةً ... كالنَّار شُبَّ وقودُها بِضِرَامِ
وبيوتَ قَيْسٍ قد وطَأْنَا وطْأَةً ... فتركْنَا قَيْسًا غيْرَ ذاتِ مَقَامِ
ولقدْ قَتَلْتُ الشَّعْثَمَيْنِ ومَالكًا ... وابنَ المسَوّرِ وابنَ ذَاتِ دَوَامِ
ولقَدْ خَبَطتُّ بيوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً ... أَخْوالُنَا وهُمُ بنُو الأَعْمَامِ
ليْستْ بِراجِعةٍ لهُم أيَّامُهُم ... حتَّى تزُولَ شَوامِخُ الأَعْلَامِ
قَتلُوا كُلَيْبًا ثُمَّ قَالُوا أَرْتِعُوا ... كَذَبُوا ورَبِّ الحِلِّ والإِحْرَامِ
حتَّى تُلَفَّ كتِيبةٌ بِكَتِيبَةٍ ... ويَحُلَّ أَصْرَامٌ على أَصْرَامِ
وتقُومَ ربَّاتُ البيُوتِ حَواسِرًا ... يَمْسحْنَ عَرْضَ تَمَائِمِ الأَيْتَامِ
حتَّى نرى غُرَرًا تُجَرُّ وجُمَّةً ... وعظامَ رُؤْسٍ هُشِّمَتْ بعظَامِ
حتَّى يعضَّ الشَّيْخُ من حسَراتِهِ ... مِمَّا يَرى جَزَعًا على الإِبْهَامِ

وليس الحارث بن عباد من يقبل هذا التهديد، فهو فارس بكر بلا منازع، لذلك نراه يلجأ إلى التهديد أيضًا:

لا تَحْسَبَنَّ إذا هَمَمْتَ بِحَرْبِنَا ... أَنَّا لَدَى الهَيْجَاءِ غَيْرُ كِرَامِ
وَلَقَدْ عَلِمْتَ وَأَنْتَ فِينَا شَاهِدٌ ... وَسُيُوفُنَا تَفْرِي فُرُوعَ الهَامِ
إِنَّا لَنَمْنَعُ بالطِّعَانِ دِيَارَنَا ... والضَّرْبُ تَحْسَبُهُ شِهَابَ ضِرَامِ
وَلَقَدْ نَكَأْتُكَ نَكْأَةً مَشْهُورةً ... تَرَكَتْكَ مُنْخَسِفًا لَدى الأَقْوَامِ
ولقَدْ أَسَرْتُكَ ثُمَّ عُدْتَ بنِعْمَةٍ ... لَو كُنْتَ تشكُر لي بِهَا إِنْعَامِي
ضَمِنَتْ لَنا أَرْمَاحُنَا وسيُوفُنَا ... بِهَلَاكِ تَغْلِبَ آخِرَ الأَيَّامِ

فـلأتـركـن لبعـب ابنـة وائلٍ ... بعد الكرى شغلاً بغير منام
أفبعد مقتلكم بجيرًا عنوة ... ترجون ودًّا آخر الأيّام؟
كلاّ وربّ الرّاقصات إلى منًى ... كلاّ وربّ الحلِّ والإحرام
حتّى تُقيدونا النفوس بقتله ... وتروم في الشّحناء كلّ مرام
وتجول ربّات الخدور حواسرًا ... يبكين كلّ مغاور ضرغام

ولعلنا نلحظ في نقائض هذه الفترة - حرب البسوس - الفخر بالأنساب، بالرغم أن بكرًا وتغلبًا هما ابنا وائل فجذورهم واحدة، ونسبهم واحد، إلاّ أن مقتل كليب قد باعد بين الحيين بُعد السماء عن الأرض، فلم يكن لبني تغلب أعداء في الدنيا مثل البكريين ولم يكن لبني بكر أعداء على وجه الأرض يرهبونهم ويفرون منهم مثل بني تغلب، ومن هنا نجد المبرر قويًّا للجوء الشعراء من الفريقين إلى الاعتزاز بالأنساب الخاصة بكل فريق منفصلة عن الفريق الآخر، علمًا بأن مجد القبيلتين كان واحدًا لا يتجزأ قبل مقتل كليب، فالقبيلتان كانتا بمثابة القبيلة الواحدة، وقد سجلتا نصرهما على اليمنيين معًا في «خزازى» إلا أنهما اليوم يعودان للتشبث بالأنساب كل منهما بعيدًا عن الأخرى فالمهلهل يفخر بأنه تغلبي ويهدد بكرًا بالفناء:

إنّا بنو تغلب شمٌّ معاطسنا ... بيض الوجوه إذا ما أفزع البلدُ
فقد قتلت بني بكرٍ بربّهم ... حتّى بكيت وما يبكي لهم أحدُ
مازلت أقتلهم قتلاً وآسرهم ... حتّى اشتكت لهم الأحشاء والكبدُ
أقسمت بالله لا أرضى بقتلهم ... حتّى تبهرج بكرٌ حيث ما وُجدوا
كم قد قتلت بني بكرٍ بسيّدنا ... وليس يوفي كليبًا منكم أحدُ
قد قرّت العينُ من عجْلٍ بما قُهروا ... ومن سراة بني شيبانَ إذ حُصدوا
ومن جميع بني قيسٍ وقد شقيتْ ... ذُهلٌ بنا يومَ لاقونا وما سعدُوا

ومِنْ بنــي مالــكٍ والحارثـــين ومــا أغْنُــوا بجَمْعــهم في الحرب إذ قَصدَوا
واليشكـريُّـون إذْ جـاءوا بجَمْعهـــمُ حتّــي لَقــوْنا فَمــا قامُــوا ولا قَعَدُوا
هَانَتْ لُجَيْمُ غَـداة الرَّوع فاطَّـــردوا مثـل اليعافيـر في الصحـراء تَطَّـردُ
أبْلـــغْ حَنيفــةَ لا تَعْـدُدْ دِيارَهـــمُ لم يُنْجِهـمْ عِـــدَّةٌ مِنَّـــا ولا عَـــدَدُ

وفي الرد على هذا الفخر نجد أيضًا الحارث بن عُباد يعدد فروع بني بكر معتزًّا بهم وبقوتهم وبأمجادهم، ويقابل تهديد المهلهل بتهديد مماثل:

سَلْ حَيَّ تَغْلـبَ عـن بكـرٍ وَوقْعَتِـهِمْ بالحِنْوِ إذْ خَسِـرُوا وجَهْـراً ومـا رَشَـدُوا
وأيْقِنُـوا أنَّ شَيْـبَـــانًا وإخْوَتَهُـــمْ قَيْـسًا وذُهْـلاً وتَيْـمَ اللّاتِ قَدْ رَصَدُوا
وَيشْكُرُ وبَنُـــو عِجْـــلٍ وإخْوَتَهُــمْ بَنُو حَنِيفَـــةَ لا يُحْصَـــى لَهُـم عَـدَدُ
قَـــدْ قَـرَّتِ العيْنُ مِــن عِمْرانَ إذْ قُتِلَتْ وَمِنْ عَـدِىٍّ مع القَمْـقامِ إذْ جُهِـــدُوا
ومِـــن زَيَـــادٍ ومِـــن غُنْـمٍ وإخوتهـا ومِــن حَبِيـــبٍ أصابُــوا الذُّلَّ فَانْفَرَدُوا
ومِــن بنـي الأَوْسِ إذْ شُلَّـت قَبِيلَتُهُمْ لاْ يَنْفَـــعُونَ وقَـــدْ ضَـرُّوا ولا حُمِــدُوا
فَــرُّوا إلى النَّمْــرِ مِنَّــا وهُوَ عَمُّـــهُمُ فَمَـــا وَفَى النَّمْـــرُ إذْ طَــارُوا وهُمْ مُرُدُ
نَحْنُ الفــــوارسُ نَغْشَــى النَّاس كُلَّهُمُ وَنَقْتُـــلُ النَّــاسَ حَتَّى يُوحِــشَ البَلَدُ
والخَيـــلُ تَعْلَـمُ أَنِّي مِـــن فَوَارِسِـــهَا يَـــوْمَ الطِّـــعانِ وقَلْـــبُ القِـرْنِ يَرْتَعِدُ
وَقَـــدْ حَلَفْـتُ يَمِيـنًا لا أُصَالِحُهُـــمْ مَا دَامَ مِنَّـــا وَمِنْــهُمْ في المَـــلا أَحَـدُ

وكما أن الحرب قد فرَّقت بين الأخوين ابنى وائل، فإنها أيضًا في مرحلة متقدمة زمنيًّا قد فرَّقت بين الأخوين، الأوس والخزرج ابنى حارثة بني ثعلبة. وأصبح مجد كل فريق يختلف عن الآخر لأن السيوف تقابلت بعدما كانت متساندة متآزرة، لذلك نرى كلَّ فريق منهما يعتقد أنه لا وجود للآخر، وأن يثرب خالصة له دون الآخر، وقد ركَّز شعراء الطرفين على هذا المعنى كثيراً، فنجد ذلك عند قيس بن الخطيم في قوله:

ونحـــنُ الفـــوارسُ يـــوْمَ الـــرَّبيـــ ـع، قـــد عَلمُـــوا كيـــف فُرْسانُهـــا
جَنَبْنـــا الجِـــرَابَ وَرَاءَ الصَّـــريـ ـــخِ حتـــى تقَصَّـــفَ مُـــرَّانُهـــا
تَـراهُـــنَّ يُخْلَجْـــنَ خَلْـــجَ الـــدِّلا ءِ تَختَلِـــجُ النَّـــزْعَ أشْطانُهـــا
ولاقـــى الشَّـــقاءَ لـــدَى حَـــزْبِنـــا دُحَـــيٌّ وعَـــوْفٌ وإخـــوانُهـــا
رَددْنـــا الكتيبـــــةَ مفْلولـــةً بهـــا أفْنُـــهَـــا وبهـــا ذَانُـــهَـــا
وقَـــدْ عَلِمُـــوا أنْ متـــى نَنْبعـــثْ عَلـــى مِثْلِهـــا تَـــذْكُ نيـــرانُهـــا
ولـــولا كَراهَـــةُ سَفْـــكِ الـــدِّمـــاءِ لَعَـــادَ لِيَـــثْـــرِبَ أذْيـــانُهـــا
ويَـــثْـــرِبُ تَعْـــلَـــمُ أنَّ النَّبيـــ ـــتَ راسٍ بيَـــثْـــرِبَ مِيزَانُهـــا
حِســـانُ الوُجُـــوه، جِـــدادُ السُّيُو فِ، يَبْتَـــدِرُ المَجْـــدَ شُبَّـــانُهـــا
أَتَتْهُـــمْ عَـــرَانِيـــنُ مِـــنْ مـــالـكٍ سِـــرَاعٌ إلى الـــرَّوْعِ فِتيـــانُهـــا
وقَـــدْ عَلِمُـــوا أنَّ مـــا فَلَّهُـــمْ حَديـــدُ النَّبيـــتِ وأعيـــانُهـــا

ولا يترك قيس بن الخطيم لحسان بن ثابت طريقًا آخر، فما دام قد أصرَّ على نفي الآخر، وأن يثرب لهم وحدهم، وأن الخزرج لا وجود لهم ولا مكانة فقد فرض إذن الردَّ وطبيعته على حسان بن ثابت، فليس أمامه إلا نفي أي كيان ووجود للأوس، وأن يثرب هي لهم خالصة لبنى الخزرج من دون الناس:

ويثْـــرِبُ تعْلَـــمُ أنّـــا بهـــا إذا ألْبَـــسَ الْحَـــقُّ ميزانُهـــا
وَيثْـــرِبُ تَعْلَـــمُ أنّـــا بهـــا إذا قَحَـــطَ القَطْـــرُ، نُوآنُهـــا
ويثـــربُ تَعْلَـــمُ أنّـــا بهـــا إذا خَافَـــتِ الأوسَ، جيرانُهـــا
ويثـــربُ تَعْلَـــمُ إذْ حارَبَـــتْ بأَنّا لَـــدى الْحَـــرْبِ فُرسانُهـــا
ويثـــربُ تَعْلَـــمُ أنَّ النبيـــتَ عنـــد الهَـــزاهـــزِ ذُلاَّنُهـــا
نُبِـــتْ بالنبيـــتِ وأَشْياعِهَـــا مَنِ انْ أوعَـــدَتْ قَـــطُّ أوْطانُها
فكيـــفَ إذا نازَلَتْهـــا لُيـــو ثُ غَـــريـــفٍ وشِبلانُهـــا

متـى ترنـــا الأوسُ في بيضنـــا ... تَهُـــزُّ القنـــا تخْـــبُ نيرانُها
وتَغْـطِ الْمَقـــادَ على رَغْمِهـــا ... وَيَنْزِلْ من الْهَـــامِ عِصْيانُهـــا
ويثْـــربُ تعْلَـــمُ أنّ النبـــيتَ ... لَيْسَـــتْ بشـــيءٍ، وأعوانُهـــا
فلا تَفْخَـرَنْ والتَمِـــسْ مَلْجـــأ ... فَقَـــدْ عـــادَ للأوْسِ أدْيانُهـــا
ونحْـــنُ إذا حارَبَـــتْ عامـــرٌ ... أمـــامَ الكتيبـــةِ أغْيـــانُها
ونحـــنُ إذا نَزَلَـــتْ مُعْضِـــلاتٌ ... تُحُـــسُّ الْقَبائـــلِ، إخْوانُهـــا

والأمر نفسه نجده بين قيس بن الخطيم الأوس وعبدالله بن رواحة الخزرجي، إذ يعمد ابن الخطيم إلى الفخر بوقعات يدعى انتصار قومه على الخزرج فيها، فهو يمجد قوة قومه وبأسهم وضعف عدوّهم:

ويَـــوْمَ بُعَـــاثٍ أسلمَتْنَـــا سيـــوفُنَـا
إلى حَسَـــبٍ في جِـــذْمِ غَسَّـــانَ ثاقِـــب
يجرِّدْن بِيـــضًا كـــلَّ يَـــوْمِ كَرِيهَـــةٍ
ويُغْمِـــدْن حُمْـــرًا خاضِبَـاتِ الْمَضَـــارِب
أطاعَتْ بَنُـــو عَـــوْفٍ أميـــرًا نَهاهُـــم
عَـــن السِّـــلْمِ حَتَّـــى كان أوَّل واجِـــب
قتلنـــاكُـــم يـــوم الفِجـــارِ وقَبْلَـــهُ
ويـــومَ بُعَـــاثٍ كـــان يَـــوْمَ التَّغَالُبِ
صَبَحْنَاكُـــم بيضـــاءَ يَبْـــرقُ بَيْضُـــها
تُبِـــينُ خلاَخِيـــلَ النســـاءِ الهَـــوارِبِ
أتَـــتْ عصبـــةٌ للأوسِ تَخْطـــر بالقَنَـــا
كمَشْيِ الأسودِ في رَشَـــاشِ الأهَاضِـــبِ

رَضِيتَ لعَــوْفٍ أنْ تقُــولَ نساؤُهــم
ويهْــزأن منهــم: ليتَنــا لم نُحَــارِبِ
فلــوْلا ذُرا الآطــام قــد تَعْلَمُونَــهُ
وتــرْكُ الفَضَــا شُورِكتُمُ في الكواعِــب
أصابَ صريخ القــومِ غــرْبُ سيُوفِنــا
وغــادَرْنَ أبنــاءَ الإمــاء الحواطِــبِ
وأُبْنــا إلــى أبنــائنــا ونسائنــا
ومــا مَــنْ تــرَكْنــا في بُعاث بآيِــبِ
فلَيْــتَ سُــوَيْــدًا راءَ مَــنْ خَرَّ منهُم
ومَــنْ فَــرَّ إذْ نَحْــدُوهم كالجَلائِــب

ويفصل عبدالله بن رواحة في ردّه بين أحساب قومه (الخزرج) وأحساب الأوس مع أنهما في حقيقة الأمر شيء واحد، وذلك يعود إلى تمكن العداء بين الفريقين:

إذا غُيِّــرَتْ أحسَــابُ قَــوْمٍ وجَدْتَنــا
ذَوي نائــلٍ فيــها كــرَامَ المضَــارِبِ
نُحَامِــي على أحْسَــابِنا بِتِــلادِنــا
لِمُفْتَقِــرٍ أو سائــلِ الــحــق رَاغِــبِ
وأعمَــى هَدَتْــهُ للسّــبيلِ حُلومُنــا
وخصْمٍ أقَمْنا، بَعْــدَ مــا لجَّ، شاغِبِ
ومُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ تَــرى المَــوتَ وسطَــهُ
مَشَيْنــا لــهُ مَشْــيَ الجِمالِ المَصَاعِبِ
بخُرْسٍ تَرَى الماذيَّ فَــوْقَ جُلودِهِــمْ
وبِيْضًا نِقــاءً مِثْــلَ لَوْنِ الكواكِــبِ
فهُمْ جُسُــرُ تحْــتَ الــدُّرُوعِ كأنهُــمْ
أُسُودٌ متى تُنــضَ السُــيوفُ تُضَارِبِ
مَعاقِلُهُــمْ فــي كــل يَــوْمِ كَريهَــةٍ
معَ الصَّبْرِ مَنْسوبُ السيــوفِ القواضِبِ
فخَــرْتُــمْ بجَمْــعٍ زَارَكُــمْ في دياركم
تَغَلْغَــلَ حتَــى دُوفِعــوا بالرَّواجِــبِ

وتكون قصيدة بشر بن أبي خازم الأسدي بعد يوم الجفار نموذجًا للفخر بالقوة، والتعصب للقبيلة، إلاّ أننا نلمح فيها شيئًا آخر وهو أن الفخر بالقول لم يأتِ وحده بل كان مصحوبًا بالسخرية اللاذعة، لأن بني أسد حاربت بني عامر وهزمتهم، فدخلت تميم الحرب إلى جوار بني عامر لنجدتهم فكان السيف في أعناقهم، لذا نرى سخرية بشر بن أبي خازم من تميم التي رفضت قتل بني عامر وقبلت أن تُقْتَلَ هي:

سائِلْ تَميمًا في الحروبِ وعامِرًا ... وهَلِ المُجَرَّبُ مثلُ مَنْ لم يَعْلَمِ
غضِبتْ تميمُ أنْ تُقَتَّلَ عامِرٌ ... يومَ النِّسارِ فأُعْقِبُوا بالصَّيْلَمِ
كُنَّا إذا نَعَرُوا لحَرْبٍ نَعْرَةً ... نَشْفِي صُداعَهُمُ بِرَأسٍ مِصْدَمِ
نَعْلُو القَوانِسَ بالسُّيُوفِ ونَعْتَزِي ... والخَيْلُ مُشْعَلَةُ النُّحُورِ منَ الدَّمِ
يَخْرُجْنَ من خَلَلِ الغُبارِ عَوابِسًا ... خَبَبَ السِّباعِ بكُلِّ أكْلفَ ضَيْغَمِ
من كلِّ مُسْتَرْخِي النِّجادِ مُنازِلٍ ... يَسْمُو إلى الأقْرانِ غيرِ مُقَلَّمِ
ففَضَضْنَ جَمْعَهُمُ وأفْلتَ حاجِبٌ ... تَحْتَ العَجاجَةِ في الغُبارِ الأقْتَمِ
ورأوْا عُقابَهُمُ المُدِلَّةَ أصْبَحَتْ ... نُبِذَتْ بأفْضَحَ ذِي مَخالِبَ جَهْضَمِ
أَقْصَدْنَ حُجْرًا قبلَ ذلكَ والقَنا ... شَرَعٌ إليهِ وقد أكَبَّ عَلَى الفَمِ
يَنْوِي مُحاوَلَةَ القِيامِ وقد مَضَتْ ... فيهِ مَخارِصُ كلِّ لَدْنٍ لَهْذَمِ
وبَنِي نُمَيرٍ قد لَقِينا منهُمُ ... خَيلًا تَضِبُّ لِثاتُها لِلمَغْنَمِ
فَدَهَمْنَهُمْ دَهْمًا بكُلِّ طِمِرَّةٍ ... ومُقَطِّعٍ حَلَقَ الرِّحالَةِ مِرْجَمِ
ولقد خَبَطْنَ بَنِي كِلابٍ خَبْطَةً ... ألْصَقْنَهُمْ بِدَعائِمِ المُتَخَيَّمِ
وصَلَقْنَ كَعْبًا قبلَ ذلكَ صَلْقَةً ... بقَنًا تَعاوَرَهُ الأكُفُّ مُقَوَّمِ
حتَّى سَقَيْناهُمْ بكأسٍ مُرَّةٍ ... مَكْرُوهَةٍ حَسَواتُها كالعَلْقَمِ

ونقض هذه القصيدة لم يأت من قِبل بني عامر الذين فخر عليهم ابن أبي خازم، ولكن جاء من بني تميم الذين سخر منهم وكأنّ السخرية كانت أوقع في نفوس تميم من الهزيمة التي لحقت ببني عامر، حتى أنّ ضمرة بن ضمرة النهشلي التميمي يُحرِّم على نفسه الخمر والطيب والنساء حتّى يثأر لقومه، ويتحقق له ذلك، ويغير على بني أسد في يوم «الشقوق» ويفخر بانتصاره عليهم وأن الفرسان الذين اعتزّ بهم بشر بن أبي خازم أصبحت نساؤهم مرملات قد قتلهم ضمرة ومعه قومه من تميم:

الآن ساغَ لي الشرابَ ولم أكُنْ ... آتي التجار ولا أشد تكلّمي
حتى صبحتُ على الشّقوق بغارة ... كالتمر ينتز في حرير الحُرّم
وأبأتُ يوما بالجفارِ بمثلِهِ ... وأجزتُ نصفًا من حديثِ الموسم
ومشتْ نساءٌ كالظّباءِ عواطلاً ... من بين عارفةِ السِّباء وأيِّم
ذهب الرِّماحُ بزوجها فتركنه ... في صدر مُعتدلِ القناةِ مقوّم

٢- تطور الهجاء في النقائض:

لقد صُبِغَتْ - كما قلنا - قصائد ومقطعات النقائض في العصر الجاهلي بأخلاق شعرائها في أول الأمر، فهم سادة فرسان، لذا حرصوا على أن يكون هجاؤهم خاليًا من السباب والفُحش، واعتمدوا فقط على سلب الخصم من القيم الرفيعة التي يعتز بها العرب، لكن مع نهاية العصر الجاهلي وجدنا في النقائض نوعًا من السباب على يد الشعراء المحترفين.

وقد بدأ الهجاء في نقائض الشعر الجاهلي أقرب إلى اللوم والعتاب والتوبيخ، فهذا المهلهل يفخر بوقعاته ثأراً لأخيه كليب وأن كُليبًا لو نشر القبر عنه لأُخبر أنه زيرُ قتال وليس زير نساء كما وصفه قبل أن يقتله جساس.

ولَــوْ نَشــر المقابــر عــن كُليــبٍ ... لأُخْبِــرَ بالـذَّنــائــبِ أيُّ زِيــرِ

ويكون هجاء الحارث بن عُباد له هجاءً رقيقًا لو أخذنا في الحُسبان أن المهلهل هو الذي قتل بُجَير بن الحارث بن عباد فمن المنتظر أن يَصبَّ ابنُ عباد جام غضبه على المهلهل ويصفه بأوصاف تقشعر لها الأبدان، لكن ابن عُباد لم ينس - رغم الفادحة - أنه فارس بكر وسيّدٌ مُبَجَّلٌ من ساداتها، لذلك نراه يكتفى بالقول بأن القبر لو نشر عن كليب لعلم أن أخاه شر زير:

فلَــو نشَــرَ المقَابــرَ عــن كُليــبٍ ... لأَبْصَرَ بالـذَّنــائِــب شَــرَّ زيــرِ

وهذا ليس غريبًا على أخلاق الحارث بن عُباد، الذي اعتزل حرب البسوس حتى قتل المهلهل ابنَه بُجير، فدخل الحربَ مُرْغمًا، له هدفٌ واحدٌ فقط هو أن يقتل المهلهل بابنه، وعندما يأسر الحارث المُهلهل وهو لا يعرفه، يطلب منه أن يدله علىالمهلهل ويطلق سراحه، فيخدعه المهلهل ويأخذ منه عهدًا بذلك، وبعد أن يعطيه الحارث العهد يخبره المهلهل أنّه هو، ولا يملك الحارث بن عُباد إلاّ الانتصار على نوازع نفسه التي تدفعه إلى الثأر لابنه، فقد عاش طوال عمره لم

يخنث بعهد قط، ومن هنا أطلق المهلهل ولم يقتله، فتلك هي أخلاق السادة الفرسان الذين يحافظون على هيبتهم أمام الناس وأمام أنفسهم، فهم محكومون بقيم وتقاليد لا يستطيعون أن يتحرروا منها ولا يريدون، فهذه التقاليد وهذه القيم هي بمثابة العز والسؤدد لهم.

وعندما يبكى المهلهل أخاه كليب يوم قُتل، في قوله:

أهــاج قــذاء عيْنــي الإذكــارُ ... هــدوًّا، فالدُّمــوعُ لهــا انحْــدارُ
وصــارَ اللّيــلُ مشتــملًا علينَــا ... كــأنَّ الليــلَ ليــسَ لــه نهــارُ
دعــوتُكَ يا كُليــبُ فلــم تُجِبْــني ... وكيــفَ يُجيبُنــي البلــدُ القِفــارُ
أجِبْنــي يا كُلَــيْــبُ خــلاك دمٌّ ... لقــد فُجِعــتْ بفــارسـها نــزارُ
ســقاك الغيــثُ إنّك كُنْــتَ غيــثًا ... ويُســرًا حــين يَلْتمــسُ اليســارُ
أبــتْ عينــاي بعــدكَ أن تكــفَّا ... كَــأنَّ قَنــا القــتَــاد لهــا شَفارُ
أتَغْــدُو يا كُليْــبُ معــي إذا مــا ... جبــانُ القــوم أنجــاهُ الفــرارُ
أتغــدُو يا كُلَيْــبُ معــي إذا مــا ... فَســيلُ القــومِ شــطَّ به المــزارُ
خُــذِ العهــدَ الأكيــدَ عليَّ عُمْــرِي ... بتركِــي كُلَّمــا حــوتِ الــديــارُ
وهجْــر الغانيــاتِ وشــرب كــأسٍ ... ولُبْــسى جُبَّــةً لا تســتــعــارُ
ولســتُ بخالــعٍ درعِــي وسيــفي ... إلى أن يخْلــعَ الليــلُ النهــارُ
وإلا أن تبيــدَ سَــراةَ بكــرٍ ... فــلا يبقــى لهــا أبــدًا آثــارُ

نجد هذه القيم والمثل العربية تظهر في ردّ جساس، فهو يؤكد أنه يبكى هو الآخر، كليبًا القتيل:

ألا أبلــغْ مهلهــلَ مــا لــدينــا ... فــأدْمُعُــنــا كــأدمُعُــه غِــزَارُ
بكينَــا وابــلَ البــاغِــي علينَــا ... وكُــلٌّ ليــس مِنْــهُ بــه اصطبارُ
وكُــلٌّ قــد لقَــى ما قــد لقينَــا ... وشــرُّ العيــشِ مــا فيــه العِيــارُ

ونحـنُ مـع المنـايـا كُـلَّ يـومٍ ... ولا يُنجـي مـن المـوت الفـرارُ
فأقسمُ إن بقيـتُ لتكـرهنّـي ... إذا طـارتْ عـن العنـسِ الشِّـفارُ

وهذا يؤكد لنا أن جساساً يعرف قيمة كليب وأن مقتله خسارة للحيين بكر وتغلب على السواء ورغم ذلك فإن جساسًا قتله، وهذا يؤكد لنا أن جساسًا يريد أن يقول إن مقتل كليب خسارة كبرى نبكي عليها لكننا أحرار بعد قتله رغم خسارته، وأنّه لو بقي حيًّا لكان ذلك انتقاص من سيادتنا وكرامتنا، ومن ثم يُصبح قتلُه - رغم فداحته - خيراً لبني بكر.

ملمح آخر لهذه القيم في هجاء النقائض الجاهلية نجده عندما يُجير حاجبُ بن زرارة الحارث بن ظالم قاتل خالد بن جعفر الكلابي، ويعلن تحديه لبني عامر في قوله:

وأنّ تمـيمًا لـم تُحـاربْ قبيلـةً ... من النّـاس إلا أولعَـتْ بالكواهـلِ
ولو حـاربتْنا عامـرُ يـا بـنَ ظالمٍ ... لعَضَّتْ علينـا عامـرُ بالأنامـلِ
ولاسْتَيقَـنتْ عُليَـا هَـوازنَ أنّنـا ... ستُوطئهَا في دارِهَا بالقنـابـلِ

نجد أبا براء عامر بن مالك يرد على حاجب بن زرارة بعتاب رقيق بعيد عن المعايرة والسباب وفاحش القول، ويعترف بمكانة حاجب المرموقة بين أهله بني تميم، بل يعترف أيضًا بفروسيته وقوته:

ألِكْنـي إلى المـرءِ الزُّراريِّ حاجـبٍ ... رئيـسِ تَميـمٍ في الخطُوب الأوائـلِ
وفارسِـها في كـلِّ يـومِ كـريهـةٍ ... وخـير تمـيم بين حـافٍ وناعـلِ
لعَمْرى لقـد دافعـتُ عن حيِّ مالكٍ ... شآبيـب من حَـزبٍ تَلَقَّـحُ حائـلِ
على كـل جَـرْداءِ السَّـرَاةِ طمـرَّةٍ ... وأجْـرَدَ خَـوَّارِ العِنَـانِ مُناقِـلِ

وعندما يفخر عامر بن الطفيل على بني ذبيان بقوة بني عامر ويوجه كلامه إلى

النابغة الذبياني مُهدِّدًا ومتوعدًا[1]، يجتمع شعراء ذبيان بعدما أعدُّوا قصائد هجاء مقذع لعامر بن الطفيل، وعندما يجتمع بهم النابغة الذبياني ويسمع كلامهم يقول لهم: أفحشتُم على الرَّجل وهو شريف، لا يُقَال له مثل ذلك، دعوني أُجبه وأُصَغِّرُ إليه نفسه وأفضل إليه أباه وعمّه، فإنّه يرى أنه أفضل منهما وأعيره بالجهل[2]:

فإنْ يَكُ عامِرٌ قد قال جَهْلاً ... فإنَّ مَظِنَّةَ الجَهْلِ الشَّبابُ

فكُنْ كأبيكَ، أو كأبي بَراءٍ ... تُوافِقْكَ الحُكومَةُ والصَّوابُ

ولا تَذْهَبْ بحِلْمِكَ طامِياتٌ ... مِنَ الخُيلاءِ ليس لهنَّ بابُ

فإنّكَ سوف تَحْلُم أو تَناهى ... إذا ما شِبْتَ أو شابَ الغُرابُ

فإنْ تكنِ الفَوارِسُ يومَ حِسْيٍ ... أصابُوا مِن لقائكَ ما أصابُوا

فما إنْ كانَ مِن نسبٍ بَعيدٍ ... ولكنْ أَدْرَكُوكَ وهمْ غِضابُ

فَوارِسُ مِن مَنُولَةَ غيرُ مِيلٍ ... ومُرَّةَ، فوقَ جَمْعِهِمُ العُقابُ

ولو نظرنا إلى الأبيات السابقة في نطاق التقاليد العربية في العصر الجاهلي نجد أن الظاهر فيها المدح وليس الهجاء، فالنابغة يعترف بحكمة أبي عامر بن الطفيل الذي مات، ويعترف بحكمة عمّه أبي براء الذي لا يزال حيًّا، وهذا في ذاته يُعدُّ مفخرةً، لأن الأب والعم هما مَنْ يُعتزُّ بهما عند العرب في الجاهلية، والإنسان ما هو إلا امتدادٌ لأبيه وعمّه، إلاّ أن النابغة لم يقصد بالتأكيد مدح الطفيل بن مالك أو أبي براء عامر بن مالك، ويعلم أن وقع شعره هذا سيكون قاصمًا لظهر عامر بن الطفيل أكثر من السباب والفحش، والذي يدلُّ على ذلك أن عامر بن الطفيل

---

(١) وذلك في قصيدته التي تبدأ بقوله:

ألا مَنْ مُبلغٌ تمغنَّى زِيادًا ... غداةَ القاعِ إذْ أزِفَ الضِّرابُ

(٢) انظر في ذلك: العمدة لابن رشيق (٢/١٦٣).

عندما بلغته أبيات النابغة، اغتم وقال: «ما هجاني أحدٌ حتّى هجاني النابغة، جعلني القوم رئيسًا وجعلني النابغة سفيهًا وجاهلاً وتهكم بي»[1]، ويتطور الأمرُ بعض الشيء، ونرى هجاءً يحوي ألفاظًا قريبة من السباب، ربما تعود لظروف خاصة، فبعد أن يقتلَ الحارثُ بن ظالم خالدَ بن جعفر، وخالد بن جعفر هو الذي قتل زُهير بن جذيمة سيد بني عبس، ترفض بنو عبس أن تجير الحارث، لكن قيس بن زهير يقول شعرًا مادحًا الحارث الذي أخذ بثأرهم:

جَـزاكَ اللهُ خَـيْرًا مِـنْ خَليـلٍ ... شَفَـى مِـنْ ذِي تُبُـولتِـهِ الخَليلَا
أَزَحْـتَ بِهَـا جـوًى وَدَخِيـلَ حُزْنٍ ... تَمَخَّـخَ أَعْظُـمِي زَمَـنًا طَـويـلَ
كَسَـوْتَ الجَعْفَـرِيَّ أَبـا جُـزَيْءٍ ... ولم تَحْفِـلْ بِـهِ سَيْـفًا صَقِـيلَا
أَبَـأْتَ بِـهِ زُهَـيْرَ بَنِـي بَغِيـضٍ ... وكُنْـتَ لِمثْلِـهَـا ولهـا حَمُـولَا
كَشفْـتَ لَـهُ القِنَـاعَ وكُنْـتَ مِمَّنْ ... يُجَلِّـى العَـارَ والأَمْـرَ الجَلِيـلَا

فيكون رد الحارث بن ظالم على قيس بن زهير هجاءً يحوي ألفاظًا تقرب من السباب - كما قلنا - فهو يُصَغِّرُ اسم قيس تحقيرًا له ويصفه بالكذب.

أَتَـانِـي عَـنْ قُيَيْـسِ بنـي زُهَيْرٍ ... مَقَـالَـةُ كَـاذِبٍ ذَكَـرَ التُّبُـولَا
فلَـوْ كُنْتُـمْ كَمَـا قُلْتُـمْ لَكُنْتُـمْ ... لِقَاتِـلِ ثَـأْرِكُـم جَـزْرًا أَصِيـلَا
ولكِـنْ قُلْتُـمْ جَـاوِزْ سِـوَانَـا ... فقَـدْ جَلَّلْتَنَـا حَـدَثًـا جَلِيـلَا
وَلَـوْ كَـانُـوا هُم قَتَـلُوا أَخَاكُـم ... لَمَـا طَـرَدوا الَّـذي قَتَـلَ القَتِيلَا

وأعتقد أنّ الظرف الذي كان فيه الحارث بن ظالم هو الذي أملى عليه ذلك، لأن بني عامر كانوا يهاجمون أية قبيلة تجيره فضاقت عليه الأرض بما رَحُبت ومن ثم كان ينتظر من قبيلة قوية مثل بني عبس، أن تحميه لاسيما أن حرب داحس والغبراء كانت لم تبدأ بعد وأن عبسًا كانت قوية بأبناء عمومتها بني ذبيان.

(١) العمدة لابن رشيق (٢/١٦٣).

ونلمح تطورًا في هجاء النقائض الجاهلية عند أبي حنش، عُصْم بن النعمان، في ردّه على سلمة بن الحارث بن آكل المُرار، فهو يبحث في تاريخ أبيه الحارث بن آكل المرار حتى يجد عورة كبرى وهى غدره بخمسين رجلاً من بكر وقتلهم ظلمًا بابنه الذي لدغته حيَّة، ومن ثم يؤكد أبو حنش أن سلمة غادرٌ مثل أبيه:

أحـاذرُ أن أجيئــك ثُـمَّ تحبُـو   حبـاء أبيـك يـوم صنيبعـات
وكانـت غـدرةً شنعـاءَ سـارَتْ   تقلَّـدَهـا أبـوك إلى الممـات
تتـابـعَ سبـعةٌ كـانُـوا لأمٍّ   كأجـرام النعـام الحـائـرات

ولا يكتفي أبو حنش بذلك بل يُعيِّر بني آكل المرار بُسبَّة ونقيصة ربما لم يعرفها العرب من قبلُ، فالمهلهل عدى بن ربيعة يخوضُ حربًا أربعين سنة ثأرًا لأخيه كُليب، ولا تضع الحربُ أوزارها إلا بعد مقتل جساسَ قاتل كُليب، وبخوض الأحوص بن جعفر بن كلاب حروبًا متتابعة لثأر أخيه خالد بن جعفر والأمثلة على ذلك كثيرة لا تُحصى، فالأخ عند العرب له منزلة مقدسة، وهو مقدم عن الزوج والأبناء بل عن الأم والأب، لأنه السند الحقيقي وقت المحن، كما أنّه يشاطر أخاه ربما الحياة كلها بخلاف الأم والأب والزوجة والأبناء، لذلك عندما يُعلن سلمة بن الحارث أن جائزة من يقتل أخاه شرحبيل مائة من الإبل، ويقتل أبو حنش شُرحبيلَ ثم يريد بنو آكل المرار قتل أبي حنش بأخيهم يعيرهم أبو حنش بتلك السُّبة التي لم يعرفها العرب قبل، فهم الذين حرَّضُوا على قتل أخيهم من أجل الملك وهذا عارٌ كبير، ومن ثم نجد هذا الهجاء قاسيًا مُرًّا:

قُـلْ لِـذا الآكـلِ المُرارِ خُـذْ الملـ   ـك ولا تبكـينَّ قتيـل الطـلابِ
قـدْ تركنـا أخـاكَ في حمـس النَّقْـ   ـعِ صريعـاً مُضـرَّج الأثـوابِ
أسْلَمتْـهُ علـى الكُـلاب تميـمٌ   بعـد طعـنِ الكُلِى وضـربِ الرقـابِ
وأجبنـاكَ إذ دعـوْتَ وذو التَّـا   ج شُرَحْبـيل ثـمَّ غـير حجـابِ

تنتمـــي حــولــك الأراقــمُ في النَّقْـ ــع كأُسْــدٍ طـــريـــرة الأنيـــاب
فانْثَنـــتْ عنــه دارمٌ وبنـــو الفِـــزْ رِ ويـــربـــوعهـــا وحـــيُّ الربـــابِ
بـــين كابـــي الجبـــــين مُنْعـــفِرُ الخـ ــدِّ وعـــانٍ مُشـــنّب الأصـــحابِ
فقتلْنَـــا لـــكَ ابـــن أُمِّـــكَ والْمُلْـ ـــك عَقِـــيمٌ مُقَطِّـــعُ الأنســـابِ
أصبحُـــوا بالكُـــلاب تعتفـــرُ الضَّبْـ ـــعُ عليهـــم وعـــاويـــاتُ الذئـــابِ
فاعْتدِل يا ابـــن ذي المُـــرار عـــن القصْـ ــدِ ولا يغـــرُرْكَ تيـــهُ الشـــبابِ
واخـــترْ بـــين ما يقـــولُ لـــكَ النَّـــا سُ وحـــرب تَحُـــرُّ بـــردَ الشـــرابِ

ويصل الهجاءُ في النقائض إلى مداه في نهاية العصر الجاهلي، نرى ذلك في ردّ حسان بن ثابت على قيس بن الخطيم، الذي يصف أمّ الأوس بأنها لئيمة:

فَقدْ ذاقتِ الأوسُ الْقِتَـــالَ وَطُـــرِدَتْ وأنْـــتَ لـــدَى الكَنَّـــاتِ، كُـــلَّ مُطَرَّدِ
تُناغِي لَدَى الأبْـــوابِ حُـــورًا نواعِـــمًا وَكَحِّـــلْ مآقِيـــكَ الْحِسَـــانَ بإثْمِـــدِ
نَفَتْكُـــمْ عَـــنِ الْعَلْيَـــاءِ أُمٌّ لَئِيمَـــةٌ وَزَنْـــدٌ متى تُقْـــدَحْ بِـــهِ النَّارُ يَصْلِدِ

ونلمحه أيضًا عند عبدالله بن رواحة الذي جمع كل النقائص والفواحش وجعلها من نصيب قيس بن الخطيم وقومه الأوس، فهم الأغث نسبًا، وهم الذين حالفوا الفحش والخيانة والبخل واللؤم والكذب:

يا قَيْـــسُ أنْتُـــمْ شِـــرارُ قَوْمِكُـــمُ قِـــدْمًا وأنْتُـــمْ أغَشُّهُـــمْ نَسَبَـــا
حالَفْتُـــمُ الفُحْـــشَ والخيانَـــةَ والـ ـــبُخْـــلَ جَمِيـــعًا واللُّـــؤمَ والكَذِبَـــا

٣- النُّصح والعتاب واللَّوم:

لعلَّه من الغريب أن نلقى نقائض تحوى نصحًا أو لومًا أو عتابًا، لكن هذا النمط من النقائض لم يكُن بين عدوين في ساحة المعركة كما ألفنا في حالتي الفخر والهجاء، لكنه كان بين أفراد الأسرة الواحدة أو القبيلة الواحدة، ولم ينشأ عن قتال وإنما عن اختلاف في وجهات النظر بين الطرفين، وهذا الخلاف يكون كبيراً أو صغيراً حسب درجة القرابة بين طرفي المناقضة، فالخلاف بين الأخوين، أو الأب وابنه يختلف كثيراً عن الخلاف بين فردين من قبيلة واحدة وهو ما نطلق عليه أبناء العم، لأن القبيلة مهما كبرت فإن جميع أفرادها هم أبناء عمومة لأنهم يلتقون في النسب عند جدٍّ أعلى واحد. ولوجود هذه الفروق التي فرضتها قرابة النسب بين الطرفين سنتناول كل نمط منها على حدَة.

أ- نقائض الإخوة:

تعد رابطة الإخِوَّة من أقوى الروابط بين الناس في كل عصر وعلى وجه أخص في العصر الجاهلي، فعندما كان يرى العربي أخاه يقاتلُ يسحبُ سيفه ويقاتل إلى جواره دون أن يسأل هل يقاتل أخوه على حق أم على باطل، فهي رابطة الدَّم القوية التي نمَّتْهَا وقوتها عصبية العرب في هذا العصر، ولعل نقيضة المهلهل عدى ابن ربيعة مع أخيه كليب هي أبرز مثال لذلك، فالمهلهل يرى أن كليبًا قد أسرف في العداء لابن عمّه وأن الحكمة تقتضى أن يخفض كُليبٌ جناحه لابن العم (جساس) قبل أن تتفاقم الأمور إلى موقفٍ حرجٍ بين الطرفين، فهو ينصح أخاه نصحًا أمينًا فيه الحرص عليه قبل أي شيء آخر:

أخٌ وحـريـمُ سَـيّءٌ إنْ قطعْـتَهُ ... وسُـنَّةُ عزٍّ هـدْمُهـا لـكَ هـادِمُ
وقفتَ على ثِنْتَـيْنِ إحـداهُمـا دَمٌ ... وَحَـربٌ بهـا مِـنّا تجـرُّ الغلاصِمُ

ومنْقصــــةٌ فـــي هـــــذه ومـذلّــةٌ وشـرٌّ شــمرٌ بَيْنَكُـــم مُتفـــاقمُ

فمــا أنْــت إلاَ بـــينَ هاتين غائـــصٌ وكِلْتـاهُمـــا بَحْــرٌ وذُو الغـــيّ نـادِمُ

وكُـلُّ حميـــمٍ أو أخٍ ذي قــــرابـــةٍ لكَ اليومَ حتّى آخـرِ الدّهْـرِ لائِـــمُ

فـأخِّــرْ فإنّ الشـرّ يَحْسُــــنُ آخِـرًا وَقــدّمْ فـإنّ الحُرَّ للغيـــظِ كَاظــمُ

لكن كليبًا يرى في خفض جناحه لابن العم نوعًا من التسيب الذي يمكن أن يهدم مملكته لأنه ربما يقلد أحدٌ آخر جساسًا في التجرؤ عليه لذلك نراه يمضي في تهديده ولا يأبه بنصح أخيه:

سـأمْضِـي لهُ قِدمًا ولـو شـــابَ في الــذي

أهـــمُّ بـــهِ فيمــا صَنَعْـــتُ المـقَـــادِمُ

مخــافَــةَ قــوْلٍ أنْ يُخَـالِـــفَ فِعْـلُـــهُ

وأنْ يـهْـــدِمِ العِــزَّ المُشَـــيَّـــدَ هــادِمُ

وبالرغم من نصح المهلهل لأخيه، وطلبه منه أن يكظم غيظه ورفض كليب لهذه النصيحة ومن ثم مقتله فإن المهلهل يحارب ثأرًا له أربعين سنة ويبكيه بقصائد تقطر أسىً وحزنًا، ولم يُلق عليه المهلهلُ تبعةَ مقتله لأنه لم يسمع نصحَه أو يرتدع عن غيّه، فهي الإخوّة العربية كما أسلفنا. وقريب من هذا ما نجده بين قيس بن زهير ابن جذيمة وأخيه مالك بن زهير، فبعد أن أطَلّت الفتنة برأسها بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء، وقام قيس بن زهير بقتل عوف بن بدر الفزاري، وكان أخوه مالك متزوجًا من بني فزارة ومقيمًا عندهم أرسل إليه ناصحًا أن يغادرهم حتى لا يقتلوه:

أمـالكُ لا تـأمــنْ فـــزارةَ واخشهـــا فإنّــكَ إن تأمــنْ فـزارةَ هـــالـــكُ

أمـــالكُ إن تحســبْ مكانــكَ فيهــم صــوابًا فقــد أخطـأتَ في الرأى مالكُ

إلاّ أن العناد يتمكن من مالك، ويرى أنه في مأمن لأنه لم يقتل أحدًا، ومن ثم لا يستمع إلى نصيحة أخيه:

يا قيسُ حسبُكَ ما أتيتَ فخلّني ... وبني فزارة إنّني مُتماسِكُ
أترى حذيفةَ آخذي بجريرةٍ ... لم تجنها كفّى وأنتَ الفاتِكُ

ويدفع مالك ثمن عناده حياته فيقتله حملُ بن بدر بأخيه.

ولعلنا نلحظ على هذا النمط من النقائض، نقائض الإخوة، أن النصيحة فيه صادقة، فالناصح في الأمرين (المهلهل وقيس) يخاف على أخيه مغبّة الغدر، ويرجو له السلامة، والمنصوح (كليب ومالك) لا يستمع للنصيحة ويركب رأسه ويكون هلاكه في الإعراض عن نصيحة أخيه.

ب - نقائض الأب وابنه:

وهي نقيضة واحدة بين جساس وأبيه مُرة بن ذُهل بُعيد مقتل كُليب مباشرة وعِلْم مُرة بما صنع ابنه، واقتراحه أن يسلمه لآل كليب حقناً للدِّماء، لذا يرى جساس أن هذا ليس وقت اللوم، وعلى أبيه أن يستعد لمعركة لن ترحم أحدًا، وأنّ النجاة تكمن في الاستعداد للقتال لا في الفرار منه؟ وأن كُليباً بغي وتجبَّر وكان لابد من قتله، واللوم والعتاب لن يعيدا كليباً حيًّا فالخطر وقع لا محالة:

تَأَهَّبْ عنك أهبةَ ذى كفاحِ ... فإنّ الأمرَ جَلَّ عن التّلاحِ
فإنّي قدْ جنيتُ عليكَ حربًا ... يَغصُّ الشيخُ بالماء القَراحِ
تَسعَّرُ نارها وهجاً وجاءَتْ ... إذا خمدَتْ كنيرانِ الفِضاحِ
وَما تنفكُّ نائحةٌ تُعزِّى ... لما ندبَتْ وتعلنُ بالنواحِ
تعدَّتْ تغلبُ ظُلْماً علينا ... بلا جُرْمٍ يُعَدُّ ولا جُناحِ
سوى كَلْبٍ عوى في بطنِ قاعٍ ... ليمنعَ حَمْيَةَ القاعِ المُباحِ
فلمّا أنْ رأينا واسْتَبنَّا ... عُقابَ البغي رافعةَ الجناحِ

صرفْـــتُ إليـــه نحسًا يـــوم سُـــوءٍ ... لـــه كـــأسٌ مـــن المـــوتِ الذُّبَـــاحِ
تُثَكِّـــلُ دانيـــــاتُ البغْـــى قـــومًا ... وتـــدعُـــو آخـــرين إلى الصَّـــلاحِ
ذرينـــى قد طَربْـــتُ وحـــانَ منِّـــي ... طِـــرادُ الخيـــلِ عارضَـــةَ الرِّمـــاحِ
ولا لـــى همَّـــةٌ أرجُـــو حَسَـــاهَـــا ... ســـوى الخَطِّـــيِّ والفـــرسِ الوقَـــاحِ

ونلمح في رد مُرة على ابنه جساس أنّه لا ينقض ما قال ابنه ظاهرًا، وإنما ينقض معنى خفيًّا فرضته ظروف الموقف، فجساس لم يصرح بأن أباه يخشى الحرب جُبْنًا، ولكن أبياته تدل على هلع مرة من هذه الفعلة، وقد نجح جساس في ذلك نجاحًا كبيرًا، فهو لم يصرح مباشرة بجبن أبيه، وعندما يلمّح له بذلك بصورة مستترة، يُثَارُ مُرَّة ونجده في رده يركز على نقض هذا المعنى الخفي الذي لم تظهره أبيات جساس مباشرة فيؤكد على أنه قوى وأنه فارس لا يهابُ الموتَ أو يخشى الخطر، وأنه سيقاتل مع ابنه مهما كانت النتائج:

فـــإنْ تَـــكُ يا بُنَـــيَّ جنيْـــتَ حرباً ... فـــلا وكِـــلٌ ولارثُّ السِّـــلاحِ
ولكنِّـــي علـــى العِـــلَّات أجـــرى ... إلى المـــوتِ المحيـــطِ مـــع الصَّبـــاحِ
وإنِّـــى حـــينَ تَشْتَـــجِرُ العَـــوَالى ... أُعـــيدُ الـــرُّمـــحَ فى أثـــرِ الجِـــراحِ
شديـــدُ البـــأسِ ليـــس بذِي عيـــاء ... ولكنّـــى أبُـــوءُ إلـــى الفـــلاحِ
ســـألبَـــسُ ثوبهـــا وأذُبُّ عنْـــهَـــا ... بأطْـــرافِ العَـــوَالـــى والصِّفَـــاحِ
فـــمَـــا يبقَـــى لِعـــزَّتِـــه ذليـــلٌ ... فيمنعُـــــهُ مـــن القـــدرِ المُتـــاحِ
وأنْفـــى الـــذُّلَّ عن قـــوم يقولُـــوا ... طَحَـــا نـــونُ المنيَّـــةِ فى الطَّـــواحِ
وأجْـــزى من حـــياة الـــذُّلِّ مـــوتٌ ... وبعـــضُ العـــارِ ما يمحُـــوه مـــاحِ

جـ - نقائض أبناء العم:

وهي أكثر من النمطين السابقين لاتساع مساحتها داخل القبيلة الواحدة وليست الأسرة - كما مر بنا - ونلمح ثلاثة أنماط لهذا النوع من النقائض في ثلاث قبائل كبرى هم: عبس، وذبيان، وتميم.

أما بنو عبس فنجد نقيضة بين قيس بن زهير بن جذيمة، والربيع بن زياد العبسى، الذي كان مقيمًا في بني بدر من ذبيان عندما بدأت حرب داحس والغبراء، ويخشى قيس بن زهير أن يبقى الربيع بن زياد على الحياد، فهو من الفرسان المعدودين في جزيرة العرب لذا نراه يثير حميته وعصبيته، ويذكره بفضل أبيه الذي لم يترك أبناء عمّه مهما كانت الحوادث ومهما كانت النتائج ويذكره بأن بنى بدر قد قتلوا ابن عمه مالك بن زهير:

أينجُو بنُو بدرٍ بمقتلِ مالكٍ	**ويخذُلُنا في النائباتِ ربيعُ**
وكانَ زيادُ قبلَهُ يُتَّقَى بهِ	**منَ الدَّهرِ إنْ يومُ ألمَّ فظيعُ**
فقُلْ لربيعٍ يحتذي فِعْلَ شيخِهِ	**وما النَّاسُ إلا حافظٌ ومضيعُ**
وإلا فما لي في البلاد إقامةٌ	**وأمرُ بني بدرٍ على جميعِ**

ويكون ردّ الربيع بن زياد متوقعًا، فعليه أن يكمل مسيرة أبيه وأن لا يسجل نقطة سوداء تظل عالقة ببنى زياد أبد الدهر، فبالرغم من أنه لم يتسبب في هذه الحرب إلاّ أنه لا يستطيع التخلي عن أبناء العم:

إنْ تكُ حربُكم أمسَتْ عوانا	**فإنّي لم أكُن ممّنْ جَناهَا**
ولكن ولد سورة أرّثُوهَا	**وحشُّوا نارَها لمن اصطلاهَا**
فإنِّي غير خاذِلِكُم ولكنْ	**سأسْعَى الآن إذ بلغَتْ مَداهَا**

أما في بني تميم فالأمر يختلف كثيراً لأنّه يتعلق بخيانة فرع منها وهم بنو

يربوع، إذ سهّلوا للعدد المرور من أرضهم ليضرب أبناء عمومتهم بني سعد، وعندما ينتصر بنو سعد على عدوهم بني شيبان يهدّد قيس بن عاصم أبناء عمّه الذين ارتكبوا سُبّةً كبرى:

جزى اللهُ يـــربُــوعــاً بأسْــوإِ سَعْيِــــهَا
إذا ذُكِــرتْ في النّـــائبـــاتِ أُمُــورُهَـــا

ويَـــوْمَ جَـــدُودٍ قــــدْ فَضَحْـــتُمْ أَبــاكُـــمُ
وسَالَمْتُـمُ والخَيْـلُ تَـــدْمَـــى نُحُـــورُهَـــا

فأَصْبَحْــتُــــــمُ واللهُ يَعْلَـــمُ ذَاكُـــمُ
كمهْنُـــوءَةٍ جَـــرْبَـــاءَ أَبْـــرِزَ كُـــورُهَـــا

ستخْـزِمُ سَـعْدٌ والـــرِّبَـــابُ أُنـــوفَـــكُـمْ
كمـا غَـاطَ في أَنْـفِ الظّـــؤورِ جَـرِيـــرُهَـــا

أَفَخْـــرًا علـــى المَـــولَى إذَا مـــا بَطِنْتُـــمُ
ولُـــؤْمـــاً إذَا مـا الحَرْبُ شُـبَّ سَعِـــيرُهَـــا

أَتَـــانِـــي وَعِـــيدُ الحَـــوْفَـــزَانِ ودُونَـــه
مِـن الأَرْضِ صَحْـــراوَاتُ فَلْـــجٍ وقُورُهَـــا

أَقِـــمْ بسَبِيـــلِ الحَيِّ إِنْ كُنْـــتَ صَـــادِقـــاً
إِذَا حَشَـــدَتْ سَـــعْدٌ وثَـــابَ نَفيرُهَـــا

عَصَمْـنَا تَمِيـمًا فِي الحُـــرُوبِ فأَصْبَحَـــتْ
يَلُـــوذُ بِنَـــا ذُو مَـــالِهَـــا وفَقِيـــرُهَـــا

ويكون موقف بني يربوع حرجًا، فقد تخلّوا عن رابطة الدّم التي احترمتها

التقاليد العربية، ومن ثم نرى مالك بن نويرة اليربوعي يلجأ إلى الهجاء ردًّا على ابن عمّه:

سأسْألُ من لاقى فوارسَ مِنْقرٍ
رِقابَ إماءٍ كَيْفَ كانَ نَكيرُها
وكُنْتُمْ بغاثاً إذْ لَقِيتُمْ نِدادكمْ
مِنَ القَوْم ضأْناً لابنِ كُوز عُشُورُها[1]
فهذا أوانُ القَذْعِ بيْني وبيْنكمْ
كَوادِنَ جُنْدٍ نَفَّلتْها أيورُها[2]
مجُوسيّةٌ كعْبُ بن سعْدٍ وينتهى
إلى بيْتِ قَيْسٍ غدْرُها وفُجُورُها

ولعلنا نلحظ أن ردَّ مالك بن نويرة قد تجنَّب الخوض في فِعْلة بني يربوع، فلم يبررها وإنما لجأ إلى الهجاء تغطية لموقف العار الذي لحق ببني يربوع، ولِعِلْمِ مالك ابن نويرة أن أى تبرير يقوله سيكون مرفوضًا ليس على مستوى قبيلة تميم ولكن على مستوى القبائل العربية كلها، لأنهم خالفوا عُرفًا وتقليدًا تربى عليه العرب وتوارثوه جيلاً بعد جيل فأى تبرير سيكون مرفوضًا أما في بني ذبيان فالأمر يختلف، فقد نزل بنو ذبيان وادي ذي أُقر، وهو حِمى للنعمان بن الحارث الغساني، ملكُ الغساسنة، وكان النابغة الذبياني يتردد عليه مادحًا وتربطه به علاقة قوية، وعلى ذلك فإن النابغة لا يبحث عن مصلحة القبيلة العليا ويفضل عليها النفع الشخصي فيحث قومه على ترك الوادي لأنهم لا طاقة لهم بقوة الملك الغساني:

لقد نَهَيْتُ بَنِي ذُبيانَ عن أُقُرٍ وعن تَرَبُّعِهم في كلِّ أصفارِ

وقلتُ: يا قومُ إنّ اللّيْـث مُنْقبِـضٌ على براثِنِـه لوثْبـة الضّـاري
لا أعْرِفـنْ رَبْـرَبًا حُـورًا مدامعُها كـأنّ أبكـارَهـا نِعـاجُ دوّارِ
يَنظُرْنَ شزْرًا إلى مَن جاء عن عُـرُضٍ بأوْجُـهٍ مُنكِـراتِ الـرِّقّ أحـرارِ
خلْفَ العضاريطِ لا يُوقَيْنَ فاحشـةً مُستمسِكـاتٍ بأقتـابٍ وأكْـوارِ
يُذْرينَ دمْعًا على الأشفـارِ مُنحَـدِرًا يأْمُلْنَ رحْلَةَ حِصْـنٍ وابـنِ سَيّـارِ
إمّا عُصيتُ فإنّـي غيـرُ مُنْفَلِـتٍ منّـي اللِّصـابُ فجَنْبَا حَرّةِ النّـارِ
أو أضعُ البيتَ في سـوداءَ مظلمـةٍ تُقيِّـدُ العَـيْرَ لا يَسْرِي بها السّارِي
تُدافعُ النّاس عنّـا حـينَ نركبُهـا مـنَ المظالـمِ تُدْعـى أُمَّ صبّـارِ
ساقَ الرُّفَيْداتِ مـن جَوْشٍ ومن عِظَمٍ وماشَ مِن رَهْطِ رِبْعـيٍّ وحَجّـارِ
قرْمَيْ قُضاعَةَ حَلا حَـوْلَ حُجْرَتِـه مَـدّا عليـه بسُـلاّفٍ وأنفـارِ
حتى استقَـلَّ بجَمْـعٍ لا كِفـاءَ له يَنْفِـي الوُحُوشَ عن الصحراءِ جَـرّارِ
لا يَخْفِضُ الـرِّزَّ عـن أرضٍ ألَمَّ بهـا ولا يَضِـلُّ على مصباحِه السّـارِي
وعَيّرَتْنـي بنـو ذُبيـانَ خَشْيَتَـه وهـلْ عليَّ بـأنْ أخشاكَ مِن عـارِ!

وهذا التصرف من النابغة يكون مرفوضًا من القبيلة أو بتعبير أدق من بعض بطون القبيلة، لأن النابغة يُغلِّف عمله لصالح الغساسنة بالحلم والعقل والخوف على مصير قبيلته وهو زعم زائف، لأن ذلك يتنافى مع قيم العرب في الجاهلية، فهم لا يعرفون الخوف ولا يخشون الخطر، ومن سوء طالع النابغة أن أحد بني قُضاعة قد أغار على قوم النابغة ويستاق إبلهم فيسخر منه أبناء عمومته، وينبرى بدر بن حذار الفزاري للرد عليه ساخرًا من دعوته للعقل والحكمة لأنها لم تثبت أمام فرد واحد تجرَّأ عليهم، فالضعف لا يمكن أن يجلب احترام الغير:

أَبْلغْ زيــادًا وحَيْــنُ المــرءِ يــدركُــه		وإن تَكَيَّــس أو كــان ابــنَ أحــذارِ
أضطـرّكَ الحــرزُ مِن ليْلــى إلى بَــرَدٍ		تختاره مَعْقــلاً عن جُــشٍّ أعيــارِ
حتى لَقِيتَ ابنَ كهفِ اللّؤمِ في لَجَــبٍ		يَنْفِــى العصــافيرَ والغُربــانَ جَــرَّار
فالآنَ فــاسْــعَ بأقــوامٍ غــرَرْتَهُــمُ		بنــى ضِبــابٍ، ودَعْ عنك ابنَ سَيّــار
قــد كــان وافِــدَ أقــوامٍ فجــاء بهــم		وانتــاشَ عانِيَــه مِــن أهْلِ ذى قــارِ

٤- الحكمـــة:

نالت الحكمةُ حظًّا وافرًا في شعر الجاهليين، فكانَتْ تدور في ثنايا شعرهمْ ويقدم الشاعر من خلالها خبرته بفهم الحياة وتقلباتها، ووعيه بصروف الدهر وعِبر الأيام، وكان هؤلاء الشعراء يمثلون طبقة من أذكى طبقات الجاهليين، وأكثرهم ثقافة، وأدقها حسًّا، ممّا أتاح لهم النفاذ إلى إدراك غير قليل من حقائق الحياة وطبائع الأحياء، فصاغوها في شعرهم حِكمًا يرسلونها تعبيراً عن خبرتهم وتجاربهم الذكية الدقيقة، يفتحون بها أعين الناس لإدراك ما حولهم من شئون الحياة ونقدها، وهي تدل على صفاء أذهانهم، وصدق نظرهم في الحياة وأحوال الناس[١]، والحكمة بهذا المفهوم تُعبّر عن خطرات فلسفية تنبع من فطرة سليمة، وهي قديمة في شعر الجاهليين قِدمَ الشعر الجاهلي ذاته[٢]، ولكن من المستبعد أن نجد حكمةً وسط قرع طبول الحرب التي أنتجت لنا هذه النقائض، لذا نراها تطل على استحياء في نقيضة واحدة بين الحارث بن عُباد والمهلهل، فابن عُباد يبدى رأيه في حرب البسوس ويوضح أنّه نهى جساسًا عن قتل كليب ونصح المهلهل أن يكف عن قتل بني بكر لكن لم يستمع أحد لنصيحته وحكمته وقد تفانى الحيان بكر وتغلب، ووسط هذه الحكمة يغلي الدم في رأس الحارث بن عُباد عندما يتذكر ابنه بُجير الذي قتله المهلهل، فيفخر بصنيع جساس وقتله كليب:

وَنَهَيْــــتُ جسَّـــاسًا لِقَــاءَ كُلَيْبِهِــمْ	**خَوْفَ الذي قَدْ كَــانَ مـــن حَدَثَـانِ**
ولقَــدْ أَبَــى والبَّغــيُ مُهْلِـــكُ أَهْلَـهُ	**إلاّ مَنِيَّتَـــهُ بِحَــــدِّ سِــنَـــانِ**
وَنَهَيْـــتُ بَعْــدُ مُهَلْهِلًا عــن حَرْبِـنَا	**وَزُحُـــوفِ أَقْـــرانٍ إلــــى أقْــرانِ**
فَأَبَــى مُهَلْهِـــلُ فَاسْتُبِـيح قَــرَارُهُ	**قَسْــرًا بِكُــلِّ أَخٍ بقَـــى وطعَـــانِ**

(١) أمراء الشعر في العصر الجاهلي، الدكتور صلاح الدين الهادي ص٣٨٤.
(٢) العصر الجاهلي، الدكتور شوقي ضيف ص٢١٨.

وأقَــرّتِ الفتْــيانُ أنّ فتَـــى العُـــلاَ ... جَسَّــاسُ أَضْحَــكَ رَغلَــةَ الضِّبْــعَانِ

شبِــعَتْ نُسُــورُ الجَــ من قَتْلَاهُـــمُ ... بحُجُولِهـــا وَحَواصِـــلِ الغِرْبَـــانِ

فَتَـــرَى النُّسُورَ عَوَاكفًا مِــنْ حَوْلِهـم ... تَنْهَشْنَــهُمْ وَكَــوَاسِــرَ العِقْبَـــانِ

قَتَــلَ الثّلاثين الــذيـــنَ تَعُدُّهُـــمْ ... وَأَظُــنُّ قَــد أنْبَــأَكُـــهُ الــرّجُـــلانِ

عَــنْ كَــرِّ جَسَّــاسِ بن مُـــرَّةَ فِيكُمُ ... وَقَدِيمُـــــهُ أَبْـــصَرْتَـــهُ بِبَـــيانِ

تَــرَكَ النّسَــاءَ عَلَى كُلَيْـــبٍ حُسَّـــرًا ... بِالأَمْـــسِ خَارِجَــةً عَــنِ الأَوْطَـــانِ

فإذا بَكَيْـتَ علـى كُلَيْـبٍ فاذْكُــــرَنْ ... قَتْــلَ الكُهُــولِ وَمَصْـــرَعَ الفِتْـــيَانِ

وإذا كان ابن عُباد يُعدُّ من حكماء العرب، فإنّ شماتته في قتْل كليب جعلت من المهلهل هو الآخر حكيمًا، فالموت لا يفرح به إنسان لأنّه قدر الجميع والجميع ذاهب إليه لا محالة مهما طال العمر، وقد ذهب إليه كليْب وكذلك جسّاس قاتله فلا مجال للشماتة عندئذ:

لا تفـــرحَـــنّ بكـــثـــرة البهـــتَـــانِ ... فالمـــوتُ مَقْـــدورٌ بكـــــلِّ مكـــانِ

إن كان جَسّـــاسُ أصـــابَ معـــاشـــرًا ... وأُصيـــب يـــوم تجـالـــدٍ وطعَـــانِ

فكلاهُمَـــا ذاقَ الفنَـــا وكـــــلاهُمَـــا ... أردى وتلـــكَ مصـــــارعُ الفتيــــانِ

وكـــلاهُمَــــا ذاقَ الحِمَـــامَ وكُـــلُّ مَنْ ... يبقـــى وجـــدّك في البـريـــةِ فَـــانِ

وبـــه أصابَـــتْ وائـــلُ أوتـــارَهَــــا ... يـــوم الهجـــولِ وكـــانَ غيـــر جبـانِ

ليـــسَ المريـــح كمستـــعيبٍ في الوغي ... والصـــدقُ ليـــسَ كمنطـــق البهـــتَانِ

إنّ السّيـــوف بكُـــورُها ورواحُـــــهَـــــا ... تركتـــكَ مـــرةَ خـــاويَ الأركـــانِ

إن لم تـــزركُم خيلُنَـــا بعــــصابـــةٍ ... تفـــني بـــيوم لقـــائهـــا الثقـــلاَنِ

فحـــزُّوا أشفـــاركم وحـــزُّوا بعــــدها ... منّـــا الحلـــوق ببغـــية كـــل مكـانِ

الفصل الثالث

ملامح وقضايا فنية

ملامح وقضايا فنية

١- أوزان النقائض:

بلغت قصائد النقائض الجاهلية التي خضعَتْ للدرس مائة وثلاث عشرة قصيدة ومقطعة، وجاءت على تسعة أوزان من بحور الشعر، احتلّ البحر الطويل المرتبة الأولى ويليه البحر الوافر، وتساوى البحران الكامل والخفيف، وقريب منهما بحر الرجز، ثم البحر البسيط، وكانت بحور السريع والرمل والمتقارب أقل البحور استخدامًا. والجدول التالي يوضح ذلك:

البحر	عدد القصائد	النسبة المئوية بالنسبة لمجموع القصائد الكلية
الطويل	٣٢	٢٨,١٨
الوافر	٢٥	٢٢,١٢
الكامل	١٤	١٢,٣٩
الخفيف	١٤	١٢,٣٩
الرجز	١٣	١١,٥٠
البسيط	٩	٧,٩٦
السريع	٢	١,٧٧
الرمل	٢	١.٧٧
المتقارب	٢	١,٧٧

ولو نظرنا إلى النقائض الأموية لوجدناها استخدمت خمسة بحور فقط، هي الطويل والوافر والكامل والرجز والبسيط[1]، ومن هنا تكون النقائض الأموية أقل استخدامًا للبحور الخليلية من نقائض العصر الجاهلي، فالبحر الخفيف الذي ورد في نقائض الجاهلية بنسبة (١٢,٣٩٪) على قدم وساق مع البحر الكامل لم يرد له ذكر في نقائض الجاهليين، كما أن النقائض الأموية خلت تمامًا من أوزان بحور السريع والرمل والمتقارب التي تواجدت بنسبة ضئيلة في نقائض الجاهليين (١,٧٧٪) لكل منها.

كما أن البحر الطويل يعد أكثر البحور الشعرية استخدامًا في نقائض الجاهليين (٢٨,١٨٪) يليه البحر الوافر (٢٢,١٢٪) والأمر في النقائض الأموية كان مختلفًا، فقد تقاربت نسبة الطويل مع نسبة الوافر مع تقدم الوافر على البحر الطويل، فقد ورد البحر الوافر في نقائض الفرزدق بنسبة (٣٩,٤٪) وفي نقائض جرير بنسبة (٣٧,٥٪) وفي نقائض الأخطل بنسبة (٢٥٪) بينما كان استخدام الفرزدق للبحر الطويل بنسبة (٣٩,٤٪) وجرير بنسبة (٣٥٪) والأخطل بنسبة (٢٥٪)[2].

---

(١) شعر النقائض في العصر الأموي، دراسة في التقاليد الفنية، عبدالفتاح أحمد أحمد يوسف، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية الآداب جامعة الزقازيق ١٩٩٩م، ص٣٣.

ونشير هنا إلى أن هذا الكلام والنسب التي سنعتمد عليها من رسالة الباحث تعد غير دقيقة لأن الباحث اعتبر شعر النقائض في العصر الأموى محصورًا بين الثلاثة: الفرزدق وجرير والأخطل علمًا بأن شعر النقائض بين القبائل والأفراد من غير المشهورين يفوق في مجمله كمًّا شعر الثلاثة الكبار وعلى ذلك ربما تكون هناك أوزان بين شعر القبائل والأفراد لم يشر إليها الباحث.

(٢) السابق ص٤٢.

٢- ملامح أوزان النقائض:

١- اختلاف الوزن واتحاد القافية:

بالنظر إلى قصائد النقائض الجاهلية نجد أن ما جاء منها مختلف الوزن مع اتحاد القافية يعد قليلاً، إذ ورد في أربع مقطعات صغيرة، وكانت الأولى عبارة عن بيتى قيس بن زهير بن جذيمة يحذر فيهما أخاه مالك، والبيتان على البحر الطويل:

أمالكُ لا تأمنْ فزارةَ واخشها ... فإنَّكَ إن تأمنْ فزارةَ هالكُ
أمالكُ إن تحسبْ مكانكَ فيهم ... صوابًا فقد أخطأتَ في الرأى مالكُ

فيرد عليه أخوه مالك بن زهير ببيتين على وزن البحر الكامل:

يا قيسُ حسبُكَ ما أتيتَ فخلّني ... وبني فزارة إنَّني مُتماسِكُ
أترى حذيفةَ آخذي بجريرةٍ ... لم تجنها كفّى وأنتَ الفاتِكُ

وقد وردت المقطعتان الأخريتان بين الربيع بن زياد والنابغة الذبياني، فالربيع يقول: خمسة أبيات على وزن البحر الوافر:

لئن رحلتْ جمالى إنَّ لى سعةً ... ما مِثْلُها سَعَةً عَرْضًا ولا طُولاَ
بحيثُ لو وُزنتْ لَخْمُ بأجمعِهَا ... لم يَعْدِلُوا ريشةً من ريشِ سمويلا
تَرْعَى الرَّوائمُ أحرارَ البقُول بها ... لا مِثْلَ رَعْيكم مِلْحًا وغَسْويلا
فابرُقْ بأرضك يا نعمان متّكِئًا ... مع النطاسيّ يومًا وابن توفيلا

فيرد عليه النعمان بن المنذر بخمسة أبيات على وزن البحر البسيط.

شرِّدْ برحلك عني حيثُ شئتَ ولا ... تكثِرْ عليّ ودَعْ عنك الأباطيلا
فقد ذُكرتَ به والرَّكْبُ حامِلُه ... وِرْدًا يُعلِّل أهلَ الشام والنِّيلا

فمـا انتـفاؤك منْهُ بعد ما جزَعـت	**هُـوجُ المطـيّ به إبْـراقَ شِمْليـلا**
قد قيـلَ ذلك إنْ حقًّا وإنْ كـذبـاً	**فمـا اعـتذارُكَ مـن شـئ إذا قيـلا**
فالْحقْ بحيـث رأيـت الأرضَ واسعـةً	**وانشُرْ بها الطّرْفَ إنْ عـرضًا وإن طـولا**

وهذه المقطعات كانت في زمن متأخر من العصر الجاهلي، لأن النعمان بن المنذر مات وقد بُعث النبيّ - صلى الله عليه وسلم.

وقيس بن زهير قد عاش إلى زمن البعثة لكن أيضًا نلاحظ أنها كانت بين شعراء غير محترفين ونقصد بذلك شاعري النقض اللذين يتحتم عليهما الرد على مقطعتي الشاعرين الأولين باستخدام الوزن والقافية اللذين استخدمهما الشاعران الأولان، وهما النعمان بن المنذر، ومالك بن زهير، فالأخير لم نجد له شعرًا بين أيدينا غير هذين البيتين، يكون مجموع الأبيات التي أتت مخالفة للنظام الفني للنقائض سبعة أبيات لذلك نرى أنها لا تمثل ظاهرة في نقائض الجاهليين. وهي تمثل نسبة (٣،٥٣٪) من عدد القصائد مع ملاحظة قلة الأبيات.

٢- وحدة الوزن واختلاف القافية:

وهذا النمط من القصائد ورد قليلاً هو الآخر في أربع مقطعات، لأربعة شعراء هم، سلمة بن الحارث بن آكل المرار ملك تغلب، وأبو حنش عُصم بن النعمان التّغلبي، والحارث بن ظالم المرى، وحاجب بن زرارة التميمي، وباستثناء الحارث ابن ظالم نجد أن الشعراء الثلاثة الباقين لم يكونوا مشهورين بقول الشعر، وقد حافظ الشعراء على الوزن الخليلي في الرد لكنهم اختلفوا في القافية فلم تأت موافقة للقصيدة المنقوضة. فسلمة بن الحارث يوجه كلامه إلى أبي حنش يبدأها بقوله:

الا أبلــغْ أبــا حنــشٍ رسُــولاً فمـا لـكَ لا تجـيء إلـى الثّـوابِ

ومـالـك لا تجـيء إلى هِجـانٍ منصّبـة الغـوارب بالهضـاب

وهـي علـى وزن البحر الوافر وقافيتها الباء المكسورة، فيرد عليه أبو حنش عُصم ابن النعمان مستخدمًا البحر نفسه (الوافر) لكن القافية جاءت تاءً مكسورة:

أحـاذرُ أن أجيئـكَ ثُـمَّ تحبُـو حيـاء أبيـكَ يـوم صنيبـعات

وكانـت غـدرةً شنعـاءَ سـارَتْ تقلّـدَهـا أبـوك إلى الممـات

تتـابـعَ سبـعةٌ كـانُـوا لأمٍّ كأجـرام النعـام الحـائـرات

والأمر نفسه نجده بين الحارث بن ظالم الذي يوجه قصيدة إلى حاجب بن زرارة، مستخدمًا البحر الطويل والقافية كانت باءً مكسورة، وقد بدأت القصيدة بقوله:

لعمْـرى لقـد جاورتُ في حَـيِّ وائـلٍ ومـنْ وائـلٍ جـاورتُ في حيٍّ تغْلِبِ

فأصبحتُ في حَيِّ الأراقم لم يَقُلْ لِيَ القومُ يا حار بنَ ظالمٍ اذْهبِ

فيرد عليها حاجب بن زرارة مستخدمًا البحر نفسه والقافية جاءَتْ لامًا مكسورة، وقد بدأت القصيدة بقوله:

لَعَمْرُ أبيك الخَيْرِ يا حارِ إنَّني لَأمْنعُ جارًا من كُلَيبِ بن وائلِ

وقد علمَ الحيُّ المَعدِّيُّ أنَّنا على ذاك كُنَّا في الخُطوبِ الأوائلِ

وبالرغم أن حرفي القافية لم يأتيا حال الرد مطابقين لحرفي القافية في القصيدتين المنقوضتين إلاَّ أننا نلاحظ أن حركة القافية كانت ثابتة، في كُلِّ مناقضة إذ جاءت جميعها مكسورة، وهذا النمط ورد بنسبة (٣,٥٣٪) بالنسبة لعدد النقائض الجاهلية كلها.

٣- وحدة الوزن والقافية واختلاف حركة القافية:

وهذا النمط كان عند أربعة شعراء أيضًا، وهم ليسوا ممَّنْ اشتُهِرَ بقول الشعر، وهم: كُليب بن ربيعة، والتبع اليماني، وهند بن خالد بن صخر السُّلَّمي، ونُبَيْشة ابن حبيب السُّلَّمي.

والمناقضة الأولى كانت بين التبع اليماني، وكُليب بن ربيعة بعد يوم أراط، وهي تعد من أقدم النقائض في الشعر الجاهلي، بل ومن أقدم قصائد الشعر الجاهلي، لأن زمنها يعود إلى قبل حرب البسوس بفترة ليست بالقصيرة، وتأتي قصيدة التبع على وزن البحر الكامل وقافيتها الدال المضمومة، والقصيدة تبدأ بقوله:

يـــاذ الكــلام كَــأنَّنـــي مَـــوْرُود ... مــن دار حِمْــير فالفــؤاد عمــيـــدُ

ويرد عليه كُليب مستخدمًا البحر نفسه والقافية نفسها، لكن حركة القافية تختلف عن حركة القافية عند التُبع فجاءت دالاً مكسورة، ورد كليب يبدأ بقوله:

ياذا الكــلام نســيتَ عقــد جــدودي ... فلِمَ أنفْــتَ وأنــتَ غـــير حمـيــدِ

أما النقيضة الأخرى فكانت بين هند بن خالد السُّلَّمي ونُبَيْشَة بن حبيب السُّلَّمي أيضًا، وبدأت بهند بن خالد الذي يفخر بانتصاره يوم الكديد مستخدمًا البحر الوافر وقافية الدال المكسورة وبدأ مقطعته بقوله:

قتلتُ بمـالــكٍ عمْــرًا وحصــنــا ... وجليّتُ القتــامَ علــى الـخــدودِ
وكُــرْزا قـد أبــاتُ بــه شُــرَيْــحًا ... علـى أنَـسِ الفــوارس بالكَــديــدِ

فردَّ عليه نُبَيْشَةُ مستخدمًا البحر نفسه والقافية نفسها مع اختلاف حركة القافية، إذ جاءت دالاً مضمومة، وقد رد عليه بثلاثة أبيات فقط هي قوله:

تبخّــلُ صُنعَــنا في كــلِّ يـــومٍ ... كمخضــوب البـنـــانِ ولا تصــيدُ
وتأكــلُ مــا يعـــافُ الكــلبُ منهُ ... وتــزعــمُ أنَّ والـــدك الشـــريـــدُ
أبـــى لـي أن أقــرَّ الضيــمّ قيــس ... وصــاحبُــه المَـزُورُ بـــه الكــديـــد

وهذا الملمح ورد بنسبة (٣.٥٣٪) من جملة عدد النقائض الجاهلية.

٤- اختلاف الوزن والقافية:

وهذا النمط وجدناه في مقطعتين وقصيدتين، أما المقطعتان فهما لقيس بن زُهير العبسي والربيع بن زياد العبسي، وبدأتْ المُناقضة بمقطعة قيس بن زهير وهي أربعة أبيات على وزن البحر الطويل وقافيتُها العين المضمومة:

أينجُو بنُو بدرٍ بمقتل مالكٍ ... ويخذُلُنا في النائبات ربيعُ
وكانَ زيادُ قبلَهُ يُتَّقَى بهِ ... من الدَّهرِ إنْ يومُ ألمَّ فظيعُ
فقُلْ لربيعٍ يحتذي فِعْلَ شيخِهِ ... وما النَّاسُ إلا حافظٌ ومضيعُ
وإلا فما لي في البلاد إقامةٌ ... وأمر بني بدر على جميع

ورد عليه الربيع بن زياد بثلاثة أبيات على وزن البحر الوافر وبقافية الهاء المفتوحة:

فإنْ تكُ حربُكم أمسَتْ عوانا ... فإنِّي لم أكُنْ ممَّن جناها
ولكن ولد سورة أرَّثُوها ... وحشُّوا نارَها لمن اصطلاها
فإنِّي غير خاذِلِكم ولكنْ ... سأسْعى الآن إذ بلغتْ مَداها

أما المناقضة الثانية فكانت بين امرئ القيس بن حُجر، وعبيد بن الأبرص بعد مقتل حُجر بن الحارث أبي امرئ القيس، وقد بدأها امرؤ القيس بأرجوزة وصلَتْ أحد عشر بيتًا رجزيًا وقافيتُها اللام المفتوحة:

يا لهْفَ هِنْدٍ إذْ خَطِئْنَ كاهِلا
تاللهِ لا يذْهَبُ شَيْخي بَاطِلا
حتَّى أُبِيرَ مَالِكًا وكاهِلا
ألقاتلِين المَلِكَ الحُلاحِلا
خَيْرَ مَعَدٍّ حَسَبًا ونائِلا

وخيْرَهُــمْ قَـدْ عَلِمُوا شَمَـــائِـــلا
نَحْنُ جَلَبْنَا القُــرَّحَ القَــوافِـــــلا
يَحْمِلْنَنا والأَسَـــلَ النَّـــواهِــــلا
وحَــيّ صَعـب والوَشِيجَ الذّابِـــــلا
مُسْتَثْفِــراتٍ بالحَصَـى حَــوافِـــــلا
يَسْتَشْـــرِفُ الأواخِــــرُ الأَوائِـــلَ

فردَّ عليه عبيد بن الأبرص ناقضًا قوله في قصيدة طويلة، منها عشرة أبيات خاصة بالرد على امرئ القيس، والقصيدة على وزن مجزوء الكامل وقافيتها النون المفتوحة.

يَـــاذَ المُخَـــوِّفُـــنَـــا بِقَتْـــ ـــلِ أبيـــهِ إذْلالاً وَحَــيْـــنَـــا
أزَعَمْــــتَ أنَّـــكَ قَـــدْ قَتَـــلْـ ـــتَ سَـــرَاتَنَـــا كَـذِبـــاً وَمَيْنَـــا
هَـــلاَّ عَـــلَى حُــجْـــرِ بْـــنِ أُمِّ قَطَـــامِ تَبْـــكِـــي لا عَلَيْنَـــا
إنَّـــا إذا عَـــضَّ الثِّـــقَـــا فُ بِـرَأْسِ صَعْـدَتِنَـا لَـــوَيْنَـــا
نَحْمِـــي حَقِيقَـــتَـــنا وبَـعْــ ـضُ القَـوْمِ يسْـقُطُ بَيْنَ بَيْنَــا
هَـــلاَّ سَـــأَلْـــتَ جُمُـــوعَ كِنْـــ ـــدَةَ يَـــوْمَ ولَّـــوْا أَيْـــنَ أيْنَـــا
أيَّـــامَ نَـــضْــرِبُ هَـــامَهُـــمْ بِبَـــوَاتِـــرٍ حَتَّـــى انْحَنَيْنَـــا
وجُمُـــوعُ غَسَّـــانَ المُـــلُـــو كِ أتَيْنَهُـــمْ وقَـــدِ انْطَـــوَيْنَـــا
نَحْـــنُ الأُلَـــى فَـــاجْمَـــعْ جُمُـــو عَـــكَ ثُـــمَّ وجِّهْهُـــمْ إلَيْنَـــا
واعْـــلَـــمْ بِـــأنَّ جِيَـــادَنَـــا آلَيْـــنَ لا يَقْضِيـــنَ دَيْـــنَـــا
ولَقَـــدْ أبَحْنَـــا مَـــا حَمَـــيْـــتَ ولا مُبِيـــحَ لِـــمَـــا حَمَيْنَـــا

وهذه المناقضة من وجهة نظري، أدّت إلى خطأ في تأريخ فن النقائض الجاهلية، فالذين تكلموا عن هذا الفن من أساتذتنا اعتبروا هذه المناقضة هي الأولى في الشعر الجاهلي ومن ثم حكم عليها الجميع بأنها مناقضة في طور الميلاد ثم تطورت بعد ذلك، غير أن النقائض الجاهلية سبقت هذه النقيضة بحوالى نصف قرن تقريبًا منذ ما قبل حرب البسوس، وأن هذه النقيضة لا تدل على ميلاد فن النقائض. لكنها أتت غير مكتملة - مثل غيرها - لأسباب تعود إلى الشاعر الناقض الذي لم يشأ أن يرد على الشاعر المنقوض مستخدمًا البحر الذي استخدمه والقافية التي استخدمها أيضًا، وفي ظنّي أن هذه تعود إلى عدم قدرة الشاعر الناقض الفنية في الرد مستخدمًا البحر والقافية اللذين فرضا عليه من الشاعر الأول. قد يقول قائل كيف تحكم على شاعر كبير مثل عبيد بن الأبرص بأنه لم يستطع الرد على امرئ القيس مستخدمًا بحر الرجز الذي هو أيسر البحور في الشعر العربي، نقول الرد على ذلك ديوان عبيد بن الأبرص نفسه الذي وردت فيه قصائد وأبيات كثيرة مختلة الوزن[١]، ولا يتسع المجال لذكر أمثلة عديدة هنا، وهي في ديوانه واضحة لا تخطئها العين والأذن.

كما أنني أظن أن الذين اعتبروا هذه النقيضة هي الأولى في الشعر الجاهلي ساقهم إلى ذلك الظن الخاطئ اعتبار شعر امرئ القيس هو أول شعر يصل إلينا، وقد نص ابن رشيق على أن امرأ القيس ليس أوّل الشعراء في قوله: «وقال العلماء بالشِّعر أن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنّه قال ما لم يقولوا، ولكنّه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها لأنّه قيل أوّل من لطّف المعانى، واستوقف على الطلول ووصف النساء بالظّباء والمها»[٢] والظاهر من

---

(١) انظر: ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق الدكتور حسين نصار، ومصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، مصر ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

(٢) العمدة لابن رشيق (٧٢/١).

النّص تقدم امرئ القيس في ألوان وصور من الشعر ربّما لم يسبقه إليها أحد حسب رأى ابن رشيق وإن كُنّا لا نُسَلِّم به كليةً، إلاّ أن مَنْ أرّخُو للنقائض اعتبروا أن امرأ القيس هو أول الشعراء الذين وصل شعرهم إلينا، وأعتقد أن هذا وهم لأن ما بين أيدينا يعود إلى ما قبل امرئ القيس بنصف قرن تقريبًا. كما أن ابن رشيق نفسه يقرُّ في موضع آخر صراحة أن أوّل مَنْ قصة القصائد هو المهلهل عدي بن ربيعة[1] وقد سبقه إلى ذلك الرأى محمد بن سلام الجمحي[2]، ونحن نرى أن شاعرًا آخر قد عاصره وكان له قصائد طوال أيضًا وكان أسنَّ من المهلهل ولم يذكره أحد وهو الحارث بن عُباد البكري، مما يجعلنا نعيد النظر في هذه المسألة برمتها.

وعلى كل حال فإنه من وجهة نظرنا فإن الشعر أقدم من المهلهل والحارث بن عُباد، وإن لم يصل إلينا في قصائد فقد وصل في مقطعات يعود تاريخها - كما قلنا - إلى ما قبل امرئ القيس بزمن ليس بالقصير.

بقى أن نشير إلى أن هذا الملمح ورد بنسبة (٣,٥٣٪) من جملة عدد قصائد النقائض في العصر الجاهلي، والجدول التالى يوضح كل هذه النسب السابقة:

---

(١) العمدة لابن رشيق (١/٦٧).

(٢) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلاّم الجُمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة دار المدني، جدة ١٩٧٤م (١/٣٩).

نوع النقائض	عدد القصائد	النسبة المئوية
نقائض كاملة وزن وقافية وحركة قافية	٩٧ قصيدة	٨٥,٨٤٪
نقائض مختلفة في الوزن ومتحدة في القافية	٤	٣,٥٣٪
نقائض متحدة الوزن مختلفة القافية	٤	٣,٥٣٪
نقائض مختلفة الوزن والقافية	٤	٣,٥٣٪
نقائض متحدة الوزن والقافية مختلفة في حركة القافية فقط	٤	٣,٥٣٪

٢- التكـــرار:

من المعلوم أن الشعر الجاهلي كان يعتمد على المشافهة - القول والسمع - ولم ينتشر بين القبائل عن طريق نصوصٍ مكتوبة بل عن طريق رواة لهذا الشعر، ينقلونه عن الشاعر مباشرة، وينشرونه بين الناس ومن هنا ندرك أن التكرار «ليس ترفًا أسلوبيًّا يُمكن الاستغناء عنه، بل هو ظاهرةٌ تعبيريةٌ لا غنى عنها في المواضع التي ورد فيها»[(١)]، ويأتي التكرار في الشعر الجاهلي انعكاسًا لحالة شعورية ما في نفس الشاعر، هذه الحالة تلح على الشاعر إلحاحًا، فلا يجد مناصًا من التعبير عنها بالتكرار لكي يجعل «الأمر المكرر حاضرًا غير غائب، ويلح في إظهاره بالصيغة نفسها أو مع شئ من التعبير حسب ما يتطلب المعنى أو السياق»[(٢)] ومن ثَمَّ يتضحُ لنا أن مستوى الإبداع في التكرار لا يكمن في توالى الألفاظ والعبارات المتشابهة وإنّما يكمن في الإيحاء الدلالي لتوالي هذه الألفاظ وتلك العبارات.

وقد اعتمدت النقائض الجاهلية على التكرار اعتمادًا كبيرًا، ولأن الشعراء الجاهليين لم يقتنعوا بنقض المعاني فقط وإنَّما كانوا يعمدون إلى استخدام الألفاظ والعبارات التي وردت في القصيدة التي يريدون نقضها، وكأنهم ينقضون المعنى واللفظ والدلالة معًا، وقد لاحظنا أن التكرار في النقائض الجاهلية أخذ ثلاثة ملامح، تكرار العبارة، وتكرار شطر من البيت، وتكرار بيت بأكمله مع تغيير بسيط.

---

(١) ظاهرة التكرار بين النجاة والبلاغين، الدكتور السيد خضر، رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية الآداب، جامعة طنطا ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ص٩٣.

(٢) السابق ص٩٧.

١- تكرار العبارة:

وهو نمط ألفناه يكثر عند التهديد والوعيد، ولم يأت منفصلاً عن الإطار العام للمناقضة بل كان صميمها، وهذا النمط التكراري لم يكن من قبل كل شاعر على حدة، بل كان الشاعر الأوَّل يقول قصيدته فيختار الشاعر الناقض عبارة من كلامه يعيدها كما هي، فهي تكرار من الشاعر الناقض على نموذج فُرض عليه من الشاعر الأول. نرى ذلك في قول التبع اليماني موجهًا كلامه إلى كُليب بن ربيعة:

يـــاذ الكـــلامِ كَـــأنَّنـــي مَـــوْرُود　　　مـــن دار حِمْـير فالفـــؤاد عمـــيـــدُ

فالتبع بدأ البيت بعبارة «ياذا الكلام» ثم يتبعها بالفخر بآبائه من حمير، وعلى ذلك يعمد كُليب إلى المقابلة الناقضة لقوله نقضًا شاملاً، فيتخذ عبارة التبع نفسها كأساس للمناقضة «ياذا الكلام» ويفخر بجدوده بعدها مباشرة في مقابل فخر التبع بأجداده.

ياذا الكــلام نســيتَ عقــد جــدودي　　　فَلِـمَ أنفـتَ وأنــتَ غـــير حمـــيـــد

لم أســر بالغمـــرات ان لم ألقـــكـــم　　　شهـــباء مثل صـرائـــم الأخـــدود

ونلمح نوعًا آخر من هذا التكرار، وهو تكرار القسم عندما يشتد الأمر بين كليب وجساس يبدأ كليب شعره بالقسم:

إنِّـــى وربِّ القـــمـــرِ المنِـــيـــرِ

والحجـــر الأســـودِ ذى السّـتـــورِ

لئـــنْ رعَـــتْ في البلـــد المحجُـــورِ

وأفزعَـــتْ جَـــارى مـــن الطيـــورِ

نـــائيـــة في وكـــرهَـــا المخـــدُورِ

لأهتكـــنّ الضَّـــرعَ بالمطـــرُورِ

ويرد عليه جساس مستخدمًا القسم أيضًا مع اختلاف يسير في الألفاظ مع ثبات المعنى وهو دلالة القسم عند الشاعرين.

إنِّـــي وربِّ الشّـاعِـــر الغَـــرُورِ

وبـــاعـــثِ الموتَـــى مِـــنَ القُبُـــورِ

وعالـــمِ المكنـــونِ فـــي الضَّمِـــيرِ

إنْ رُمْـتَ مِنْـــها مَعْـــقَرَ الجـــزُورِ

لأثـبـــــنّ وَثْـبَـــــةَ المُغــــيــرِ

الذّيــبِ او ذِي اللّبـــدةِ الهَصُـــورِ

بصَـــارِمٍ ذِي فَـــنَـــنٍ مشْهُـــورِ

ويتكرر هذا الملمح بين كليب وجساس، فعندما يفخر كليب بقوته وسطوته وأنه حمَى الناس جميعًا في بقعة عريضة من الأرض حين يقول:

لقـــد حَمَيْـــتُ من جميـــع النَّـــاس

مـــن بيـــن أَفْـــراد إلى أَقْسَـــاسِ

أمنعُـــه فكيـــفَ مـــنَ جسَّـــاس

يُحيطُـــه الليّـــثُ أبـــى الفـــراسِ

جهْـــمُ المُحَـــيَّا سابـــكُ الأضـــراسِ

قَصَـــاقـــص أهبـــطُ فـــي المـــراسِ

فيكون رد جساس باستخدام ألفاظ كليب نفسها «جانبي أفساس» بل ويزيد عليها «إلى أبانين إلى أوطاس» مؤكدًا معنى العز والسؤدد، ولكي تؤتى المناقضة أُكلها فإنه ينسب هذا الفخر لبني بكر وليس لكليب أو لبني تغلب.

بنـــا حَمَيْـــتَ جَانبـــيْ أقســـاس

إلى أبانين إلى أوْطاسِ
بحيٍّ بكرٍ دُون باقي النّاسِ
فإنْ تَعُدْ بنا إلى المراسِ
عَلِمْتَ أنَّ العزَّ فوق الرّاسِ

وثمة ملاحظة هي أن كليبًا كان يتحدث بضمير المتكلم المفرد «حميتُ» ورد جساس كان بضمير الجمع «بنا» ثم يوضح جساس المقصود من هذا الجمع **«بحى بكر دون باقى الناس»** فجساس يرى عزَّته وعزةَ كُليبٍ في بني بكر بينما كليب يرى عزَّته في نفسه بمعزلٍ عن بكر وتغلب على السواء، وعلى ذلك تكون المناقضة هنا دلالة على نفسية طرفيها وعلى دواعي إبراز الذات عندهما. وتأتي العبارة المكررة أحيانًا للتأكيد والإقرار من الطرف الناقض، وهذا ما نراه عندما يقول جساس مخاطبًا أباه بعدما قتل كليبًا:

تأهَّبْ عنكَ أهبةَ ذى كفاحِ ... فإنَّ الأمرَ جَلَّ عن التَّلاحِ
فإنِّي قَدْ جنيْتُ عليكَ حربًا ... يَغُصُّ الشيخُ بالماء القَراحِ

فجساس يعترف بأنه جنى حربًا على أبيه ومن ثم يكون رد أبيه مستخدمًا العبارة نفسها:

فإنْ تَكُ يا بُنيَّ جنيْتَ حرباً ... فَلا وكِلٌ ولا رثُّ السِّلاحِ
ولكنِّي على العِلّات أجرِى ... إلى الموتِ المحيطِ مع الصَّباحِ

ولعلنا نلمح كلمة «يا بُني» في البيت الأول، فهي مُفعمة بالأبوة والعاطفة، ثم يتبعها مرة بـ «جنيتَ حربًا» التي قالها جساس، وهو غير راضٍ عن تصرفه، لكن العاطفة تتغلب هنا فإنه لهذه الحرب لأنه حسمها منذ البداية بقوله «يا بُنى».

ومن أنماط تكرار العبارة التي تختلف قليلاً في اللفظ مع ثبات الدلالة ما كان بين الحارث بن ظالم وحاجب بن زرارة وعامر بن مالك ملاعب الأسنّة، وتبدأ العبارة في قول الحارث بن ظالم موجهًا كلامه لحاجب بن زرارة عندما امتنع عن إجارته:

لعمري لقد جاورتُ في حَيِّ وائلٍ ... ومن وائلٍ جاورتُ في حَيِّ تَغْلِبِ

فأصبحتُ في حَيِّ الأراقم لم يَقُلْ ... لِيَ القومُ يا حار بنَ ظالمٍ اذْهبِ

فالحارث يريد من عبارته «حي وائل» التلميح إلى العزة العربية المتمثلة في وائل ابن ربيعة (كليب) ومن هنا يرد عليه حاجب بن زرارة مستخدمًا دلالة العبارة وليست العبرة بلفظها في قوله:

لَعَمْرُ أبيك الخيرِ يا حارِ إنَّني ... لأَمْنعُ جارًا من كُلَيْبِ بن وائلِ

وقد علم الحيُّ المَعَدِّيُّ أنَّنا ... على ذاك كُنَّا في الخُطوبِ الأوائلِ

لكن هذا القول لا يروق لشاعر ثالث يدخل في المناقضة وهو أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنّة الذي يطلب ثأر ابن عمه خالد بن جعفر الذي قتله الحارث ابن ظالم، فهو لا يريد أن يحميه أحد من الناس، فلذلك نراه يرد ناقضًا قول حاجب ابن زرارة مستخدمًا دلالة العبارة عند حاجب:

لَعَمْرُ أبيك الخيرِ يا حارِ إنَّني ... لأَمْنَعُ جارًا من كُلَيْبِ بن وائلِ

وقد علمَ الحيُّ المَعَدِّيُّ أنَّنا ... على ذاك كُنَّا في الخُطوبِ الأوائلِ

فأبو براء يستخدم العبارة هنا في مجال النقض والنصح معًا، لأنّه لا توجد مقارنة بين حاجب بن زرارة وبين أبناء وائل، ولا يفوت أبو براء أن يعلن أن أبناء وائل بن ربيعة أنفسهم - وليس مَنْ يتشبه بهم - لو أنّهم حموا قاتل ابن عمّه ما تركهم.

٢- أنماط أخرى من التكرار:

١- تكرار معظم البيت:

وتقصد به تكرار البيت عدا كلمة أو كلمتين لقلب المعنى، ولم نلمح ذلك في شعر النقائض إلا مرة واحدة بدأت بالمهلهل عدى بن ربيعة، الذي يتمنى أن يُنشر القبرُ عن أخيه كليب ليعلمِ أنه فعل ببني بكر ما يريده أخوه منه وفاءً لثأره:

وَلَوْ نَشَرَ المقَابرَ عن كُليبٍ لَأُخْبِرَ بالذَّنائبِ أي زِيرِ

ويمسك الحارث بن عُباد بالبيت ويعيده مع تغيير طفيف من حيث اللفظ وقلب كبير للمعنى، فقد غير «أيّ» التي تفيد التعجب والزهو[1] بكلمة «شر»، وكلمة «لأُخبر» بكلمة «لأبصر»:

فلو نشَرَ المقَابرَ عن كُليبٍ لَأَبْصَرَ بالذَّنائِب شَرَّ زيرِ

ومع أن التغيير حدث في كلمتين فقط إلاّ أنه قلب المعنى على المهلهل فالحارث يتمنى هو الآخر أن يُنشرَ القبرُ عن كليب ليرى أن أخاه شر زير على الأرض. أضف إلى ذلك أن المهلهل استخدم لفظ «لأخبر» والحارث بدّله بما هو أقوى في اليقينية «لأبصر» فالرؤية أقوى دلالة من السمع.

---

(١) انظر في معناها: اللسان «أيا» (١/٢٨٠).

٢- تكرار الشطر أو معظمه:

ونقصد به تكرار شطر من البيت كاملاً أو تكراره مع تغيير كلمة واحدة فيه لقلب المعنى. أما عن تكرار الشطر كاملاً فنجده عندما يقول قيس بن الخطيم:

وَيَثْرِبُ تَعْلَمُ أنَّ النَّبِيتَ   رَاسٍ بِيَثْرِبَ مِيزَانُها

فيرد عليه حسان بن ثابت بقوله:

ويَثْربُ تعْلمُ أنَّا بها   إذا ألْبِسَ الْحَقُّ ميزانُها
ويَثْربُ تعْلَمُ أنَّا بها   إذا قَحَطَ القَطْرُ، نُوآنُها
ويثربُ تَعْلَمُ أنَّا بها   إذا خافَتِ الأوسَ، جيرانُها
ويثربُ تَعْلَمُ إذْ حارَبَتْ   بأنّا لدى الْحَزْبِ فُرسانُها
ويثربُ تَعْلَمُ أَنَّ النبيتَ   عندَ الْهِزاهِزِ ذُلاَّنُها
نَبتْ بالنبيتِ وأشْياعِها   مَنِ انْ أوعِدتْ قَطُّ أوْطانُها
فكيفَ إذا نازَلَتْها لُيو   ثُ غريفٍ وشِبلانُها
متى ترنا الأوْسُ في بيضِنا   نَهُزُّ القنا تخْبُ نيرانُها
وَتُعْطِ الْمَقادَ على رَغْمِها   ويَنْزِلْ من الْهامِ عِصْيانُها
ويثْربُ تعْلَمُ أنّ النبيتَ   ليْسَتْ بشيْءٍ، وأعوانُها
فلا تَفْخَرنْ والْتَمِسْ مَلْجأً   فقَدْ عادَ للأوْسِ أذْيانُها
ونحْنُ إذا حارَبتْ عامرُ   أمامَ الكتيبةِ أعْيانُها
ونحنُ إذا نَزَلَتْ مُعْضِلاتٌ   تُحُسُّ الْقَبائِلَ، إخْوانُها

ونلحظ أن قيس أراد أن يخبر بأن يثرب تعلم قوة وحكمة بني النبيت قومه

وأنهم ميزانها وقت المحن، في بيت واحد من الشعر، إلاّ أن حسان بن ثابت يكرر الشطر نفسه مرتين، ويكرر **(ويثرب تعلم أنّا بها)** خمس مرات لنفي قول قيس بن الخطيم السابق، فلم يقابل حسان البيت ببيت إنّما قابله بسبعة أبيات يمثل التكرار فيها أساسًا لنقض المعنى الذي أراده قيس بن الخطيم، وكأن حسان بن ثابت يريد أن يخرس قيس بن الخطيم، فلم يقابله بالمثل وإنّما بسبعة أمثال ما قال.

ومن هذا النمط ما نجده بين الحارث بن عباد والمهلهل، فبعد أن يقتل المهلهل بُجير بن الحارث بن عباد يقول الحارث متوعدًا:

قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... لَقِحَـتْ حَـرْبُ وَائِـلٍ عَنْ حِيَالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... لَيْسَ قَـوْلِي يُـرَادُ لكِـنْ فِعَـالِي
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... جَـدَّ نَـوْحُ النِّسَـاءِ بِالأعْـوَالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... شابَ رأسِـي وَانْكَرَتْنِـي الْقَـوَالِي
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... لِلسُّـرَى وَالْغُـدُوِّ والأصَـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... طَـالَ لَيْلِي عَلَى اللَّيَـالِي الطِّـوَالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... لاعْتِنَـاقِ الأبْطَـالِ بِالأبْطَـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... وَاعْـدِلا عَـنْ مَقَالَـةِ الجُهَّـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... لَيْسَ قَلْبِي عَـنِ الْقِتَـالِ بِسَـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... كُلَّمَا هَبَّ رِيـحُ ذَيْـلِ الشَّمَـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... لِبُجَـيْرٍ مُفَكِّـكِ الأغْـلالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ النَّعَامَـةِ مِنِّـي ... لِكَـرِيـمٍ مُـتَـوَّجٍ بِالجَمَـالِ

قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ النَّعَـامَـةِ مِنِّــي لا نَبِيـــعُ الرِّجَـــالَ بَيْـــعَ النِّعَالِ
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ النَّعَـامَـةِ مِنِّــي لِبُجَيرٍ فَــدَاهُ عَمِّـــي وَخَــالِــي
قَــرِّبَـاهَــا لِحَـيٍّ تَغْلِـبَ شُــوسًا لاعْتِنَـــاقِ الْكُمَـــاةِ يَـــوْمَ القِتَالِ
قَــرِّبَـاهَـا وَقَــرِّبَـا لأمَتِـي دِرْ عًا دِلاصًا تَــرُدُّ حَــدَّ النِبَـــالِ
قَــرِّبَـاهَـــا بِمُرْهَـفَـــاتٍ حِـــدَادٍ لِقِّـــرَاعِ الأَبْطَـــالِ يَـــوْمَ النِّـــزَالِ

فيرد عليه المهلهل ناقضًا ما قال مكررًا الشطر الأول الذي كرّره المهلهل مع تغيير «النعامة» فرس الحارث بن عُباد بـ «المُشهر» فرس المهلهل:

قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي لِكُلَيْــبَ الَّـذِي أَشَـــابَ قَــذَالِــي
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي وَاسْــألاَنِــي وَلاَ تُطِيــلا سُــؤَالِــي
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي سَــوْفَ تَبْــدُو لَنَــا ذَوَاتُ الحِجَــالِ
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي إنَّ قَــوْلِــي مُطَــابِــقٌ لِفِعَــالِــي
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي لِكُلَيْــبٍ فَــدَاهُ عَمِّـــي وَخَــالِــي
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي لاعْتِنَـــاقِ الْكُـمَـــاةِ والأَبْطَـــالِ
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي سَــوْفَ أُصْلِــي نِيــرَانَ آلِ بِـــلاَلِ
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي إنْ تَــلاَقَــتْ رِجَالُهُــمْ وَرِجَــالِــي
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي طَــالَ لَيْلِــي وأَقْصَــرَتْ عُــذَّالِــي
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي يَا لَبَكْــرٍ وَأَيْــنَ مِنْكُــمْ وِصَــالِــي
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي لِنِـــضَـــالٍ إذَا أَرَادُوا نِضَــالِـــي
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي لِقَتِــيلٍ سَفَتْــهُ رِيــحُ الشَّمَـــالِ
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي مَــعْ رُمْـــحٍ مُثَقَّـــفٍ عَسَّـــالِ
قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ الْمُشَهَّــرِ مِنِّــي قَــرِّبَــاهُ وَقَــرِّبَــا سِــرْبَــالِـــي

ولعلنا نلحظ أن التكرار في الشطر الأوّل عند كُلٍّ من الشاعرين يمثل ركيزة بني عليها كُلٌّ منهما قصيدته، فالحارث بن عباد عندما يكرر **«قربا مربط النعامة منى»** يوشك أن يكون تكراره بقصره وحدّته بلاغًا حربيًّا يعلن النفير العام[1] فيقابله المهلهل هو الآخر ببلاغ حربيٍّ مماثل **«قربا مربط المُشهر منى»**، ويتخذها هو الآخر ركيزة لقصيدته الناقضة لقصيدة الحارث بن عُباد، وقد حرص المهلهل على أن يقابل المعنى والدلالة معًا في قصيدة ابن عباد ويمكن أن نتبين دلالات المقابلة وهي:

الشطر المكرر الثابت الدلالة	أسبابه عند الحارث	أسبابه عند المهلهل
إعلان الحرب	- بسبب قتل بجير الذي بفديه بعمّه وخاله.	- بسبب قتل كليب الذي بفديه بعمّه وخاله.
	- للانتقام من القاتل.	- للانتقام من القاتلين.
	- لأن قوله ليس المراد لكن فعله.	- لأن قوله مطابق لفعله.
	- لأن قتل ابنه قد أشاب رأسه	- لأن قتل كليب قد أشاب رأسه.
	- طال ليله حزنًا على ابنه.	- طال ليله حزنًا على أخيه.

ولعلنا لاحظنا ثبات التكرار «قربا مربط النعامة منى»، «وقربا مربط المشهر منى» من حيث التكرار اللغوي الذي نتج عنه أيضًا ثبات التكرار الصوتي[2] والإيقاعي للشطر ككل إلاّ أن الأمر يختلف عند النظر إلى دلالة التكرار فالدلالة ليست ثابتة لأن «تصاعد التكرير يقود إلى تصاعد التنوع الدلالي لا إلى تماثل

---

(١) انظر شعرنا القديم والنقد الجديد، الدكتور وهب رومية، ص٢٢٩.

(٢) انظر التكرار الصوتي في: الشعر الجاهلي، قضاياه الفنية والموضوعية، الدكتور إبراهيم عبدالرحمن، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٢٣١.

النص، فكلما تكاثر التشابه تكاثر الاختلاف»[1] فكلما كرّر الحارث بن عُباد **«قربا مربط النعامة منى»** يضاف إليها مع التكرار معنى جديدًا يضاف إلى المعنى السابق حتى نصل في النهاية إلى كمٍّ تراكمي من المعاني، ومن ثمّ تصبح آخرة مرة كُرِّرَتْ فيها تشمل جميع المعاني السابقة وكذلك الحال مع المهلهل، فالشطر المُكَرَّر إذن يحمل في كل مرة تكثيفًا دلاليًا يختلف عن المرة السابقة حتى وإن ثبت الشطر من حيث الألفاظ الواردة فيه، وهنا تكمن بلاغة التكرار، وقد تنبّه القدماء إلى هذا، فالشريف المُرتضى في أماليه عندما يتحدث عن تكرار قوله تعالى: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان**﴾ في سورة الرحمن يؤكد على أن التكرار يحُسن لاختلاف ما يقرره به[2]، أيّ أنها في كل مرة كُرِّرَتْ فيها في السورة القرآنية تحمل دلالات تختلف عن دلالاتها السابقة في تصاعد تراكمي. وقد ربط المرتضي بين ذلك وما نحن بصدده بقوله: «وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم، قال مُهلهل بن ربيعة يرثى أخاه كُليبًا (أبيات للمهلهل كرر فيها **على أن ليس عدلاً من كليب**) فخرجت هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار لاختلاف المعاني التي عدَّدناها على ما ذكرناه. وقال الحارث بن عُباد:

قَــرِّبَــا مَــرْبَــطَ النَّعَامَـةِ مِنِّــي لَقِحَـتْ حَــرْبُ وَائِـلٍ عَنْ حِيَالِ

ثم كرر قوله: «قَرِّبَا مربط النعامة» في أبيات كثيرة من القصيدة للمعنى الذي ذكرناه»[3].

---

(١) من النقد المعياري إلى التحليل اللساني، الشعرية البنيوية نموذجًا، الدكتور خالد سبيكي، مجلة عالم الفكر، العددان (١،٢)، الكويت ١٩٩٤م، ص٤١١.

(٢) أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م (١/ ١٢٣).

(٣) انظر السابق (١/ ١٢٣-١٢٦).

٢- تكرار القسم «لعمرى»:

ويراد به التأكيد على أمر ما والإصرار عليه، فالحارث بن ظالم يستخدمه للدلالة على أنه جاور أفضل قبائل العرب شأنًا تعريضًا بحاجب بن زرارة وذلك في قوله:

لعمْـــرِى لقــد جاورتُ في حَــيِّ وائـلٍ ... ومــنْ وائـلٍ جــاورتُ في حَيِّ تَغْلِبِ

فأصبحـــتُ في حيِّ الأراقـم لم يَقُــلْ ... لِىَ القــومُ يا حار بــنَ ظالـمٍ اذْهَــبِ

فيرد عليه حاجب بن زرارة مستخدمًا القسم نفسه مع تغيير طفيف، فهو لا يقسم بعمره هو وإنما بعمر أبي الحارث بن ظالم، ويستخدمه حاجب بن زرارة لتأكيد معنى العزة والسؤدد الذي يفوق عز وائل بن ربيعة وسؤدده:

لعمْــرُ أبيـك الخَـــيْرِ يا حار إنّنِـــى ... لأمْنَــعُ جــارًا من كُلَيْـــبِ بن وائـــلِ

وقــد علــمَ الحــيُّ المعَــدِّيُّ أنّنَـــا ... على ذاك كُنَّــا في الخُطـوبِ الأوائـــــلِ

وفي المناقضة نفسها يدخل أبو براء عامر بن مالك. ويردّ على حاجب بن زرارة مستخدمًا القسم «لعمري» ليؤكد هو الآخر قوة بني عامر التي قهرت حاجب بن زرارة وقومه، وبعد أن كان يتغنَّى بالعز والفخر أصبح ذليلاً بعد هزيمته:

وفارسِــها في كــلِّ يــومِ كـــريهـــةٍ ... وخــير تَمـيمٍ بين حــافٍ وناعـــلِ

لَعَمْـرِى لقـــد دافعـــتُ عن حيِّ مالكٍ ... شآبيـــب مــن حَـرْبٍ تَلَقَّــحُ حائــلِ

على كــل جَـرْداءِ السَّـــراةِ طمـــرَّةٍ ... وأجْـرَدَ خَـوَّارِ العِنَـــانِ مُناقِـــــلِ

ونرى القسم «لعمرى» يتبادل بين يزيد بن عمرو الكلابي، وعبدالله بن جذل الطعان لكنه يختلف من حيث الدلالة عند كُلٍّ من الشاعرين، فيزيد يستخدمه

حين أرسل قصيدة إلى عباس بن الأصم يحرضه على الثأر لمقتل مالك بن خالد من قاتليه بني كنانة:

لعَمْرى وما عَمْرى علَىّ بهيّنٍ
لقدْ خبّرَ الرّكْبُ اليمانِي فأوجعَا

نعوْا مالكًا فقُلْتُ ليس بمالكٍ
ولم أستَطعْ عن مَالِكٍ ثَمَّ مَدْفعَا

فالقسم هنا للدلالة على الفجيعة الكبرى التي حَلَّت عليهم عندما علموا بمقتل مالك، ولم يكن يزيد بن عمرو يوجه كلامه إلى ابن جذل الطعان وأظن أنه لم يكن ينتظر منه ردًّا على قوله، لكن ابن جذل الطعان يرد عليه مستخدمًا القسم نفسه الذي يعطى دلالة السخرية والاستهزاء من يزيد بن عمر:

لعَمْرى لقد سَحَّتْ دُموعُك ضِلّةً
تُبكّى على قَتْلى سُلَيْمٍ وأَشْجعَا

فهلاّ شُتَيْرًا أو مَصَادَ بنَ خالدٍ
بَكيتَ ولم تَتْرُكْ لها الدّهْر مَجْزَعَا

تُبكّى على قَتْلَى سُلَيْمٍ سَفَاهَةً
وتَتْرُكُ مَن أمْضى مُقيمًا بضَلْفَعَا

كمُرْضِعةٍ أَوْلادَ أُخْرَى وضَيَّعَتْ
بَنِيهَا فلم تَرْقَعْ لذلِك مَرْقَعَا

ولعل تشبيه ابن جدال الطعان يزيد بن عمرو الكلابي، وهو الفارس، بأنّه مثل المرضعة ما هو إلا استكمال لصورة السخرية التي يريد ابن جذل الطعان أن يثبتها ليزيد بن عمرو.

٤- تكرار العلم:

وهذا النمط من التكرار يكون مُصاحبًا لحالة الرثاء عندما يفقد الإنسان عزيزًا عليه فإنّه يكرر اسمه في القصيدة التي يرثيه بها مرات متتالية، نلحظ ذلك في شعر المهلهل الذي دخل هذه الدراسة وشعره الذي خرج عن إطار النقائض، فقد كرر **«على أن ليس عدلاً من كليب»** إحدى عشرة مرة في قصيدة له[١]، وفي العصر الأموى كرّرت ليلى الأخيلية هي الأخرى اسم «توبة» عندما قُتِل تسع مرات عدا الضمير الذي يعود عليه[٢]، وهذه الظاهرة لم تكن بعيدًا عن شعراء العصر الحديث، فقد كرّر نزار قباني اسم زوجته «بلقيس» أكثر من خمسين مرة في قصيدة تحمل الاسم نفسه عندما رثاها بعدما قُتِلَتْ هي الأخرى[٣]، وطبيعة التجربة هنا هي التي تفرض الاسم المكرر، ونفرضه على الشاعر فرضًا فيلجأ إليه، ليس لإقناع أحد - كما هي مهمة التكرار - لأنّ الشاعر يتحدث إلى نفسه المفجوعة، ويعود سر جمال اللفظ المكرر في هذه الحالة إلى كثافة الحالة النفسية التي تقترن بها اللفظة حتّى أن اللفظة بمرور تكرارها تتخلّى عن لفظيتها إلى ما وراءها من إيحاءات حتى تجسد لنا المأساة التي يمر بها الشاعر.

وهذا النمط نجده عند المهلهل وهو يرثى أخاه كليبًا في قوله:

أهـاجَ قِـذاءَ عَيْنـي الإذكـارُ — هـدوًّا، فالـدُّمـوعُ لهـا انحـدارُ
وصـارَ اللّيـلُ مشتـمِلًا علينـا — كـأنَّ الليـلَ ليـسَ لـه نهـارُ

---

(١) شعراء النصرانية (٢/١٦٩،١٧٠).

(٢) انظر: أمالي المرتضى (١/١٢٤، ١٢٥).

(٣) انظر: نزار قباني شاعرًا سياسيًا، الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، دار الفكر الحديث، الطبعة الثالثة، القاهرة ٢٠٠٢م ص٢٢٩.

دعـوتُكَ يا كُليـبُ فلـم تُجِبْـني　　وكيـفَ يُجيبُنـي البلـدُ القِفَـارُ

أجِبْنـي يا كُلَـيْـبُ خَـلاك ذمٌ　　لقـد فُجِعَـتْ بفـارسـها نـزارُ

سـقاك الغيـثُ إنَّك كُنْـتَ غيـثًا　　ويُسـرًا حـين يَلْتمـسُ اليسـارُ

أبَـتْ عينـاي بعـدكَ أن تكـفَّا　　كَـأنَّ قَنَـا القـتَـاد لهـا شَفارُ

أتَغْـدُو يا كُلَيْـبُ معـي إذا مـا　　جبـانُ القـوم أنجـاهُ الفـرارُ

أتغـدُو يا كُلَيْـبُ معـي إذا مـا　　فَسـيلُ القـومِ شـطَّ به المـزارُ

خُـذِ العهـدَ الأكـيـدَ عليَّ عُمْـري　　بتركِـي كُلَّمَـا حـوتِ الـديـارُ

وَهجْـر الغانيـاتِ وشـرب كـأسٍ　　ولُبْـسي جُبَّـةً لا تسـتـعـارُ

ولسـتُ بخالـعٍ درعِـي وسيـفي　　إلى أن يَخْـلَـع الليـلُ النهـارُ

وإلا أن تبيـد سَـراةُ بكـرٍ　　فـلا يبقـى لهـا أبـدًا آثـارُ

فقد كرَّر اسم أخيه «كليب» أربع مرات وعبَّر عنه بالضمير الظاهر ست مرات وبالضمير المستتر ثلاث مرات، وقد استطاع الشاعر من خلال التكرار أن يصور لنا هول المأساة التي حلَّت به شخصيًّا عندما قُتِل كليب، فكليب واضح وماثل أمامنا في كل بيت، ومن هنا تتجدد مأساة فقده عند التكرار وتجعلنا برغم مرور أكثر من ألف وسبعمائة عام عن الوقعة نشاركه هذه المحنة عندما تقرأ هذه الأبيات، والذي جعل هذا الشعر حيًّا حتى اليوم هو الصدق في المشاعر الكامنة خلف تصوير المأساة ونجاح الشاعر في إبراز هذه المشاعر بألفاظ تعبر عنها تمامًا، والمشاعر الإنسانية أعتقد أنها ثابتة في كل عصر، فمهما اختلفت البيئات والعصور يظل الموت والموت المفاجئ ألمًا يعترى النفس البشرية. وزاد من جمال التكرار هنا هو أن الاسم المكرر كأن مسبوقًا بأداة النداء «يا» لتزيد الدلالة بالحسرة والألم والتوجع، وفي قصيدة أخرى للمهلهل نجده

يكرر «كليب» ولا يخرج التكرار عن دلالة الحسرة والألم التي عبَّرنا عنها آنفًا:

الــدّارُ قفرٌ عفــاها بعــد ســاكنهــا ... بالرّيح بعد ارتحــال الحي بما فيهــا
وغالها الدّهــرُ إنّ الدهــرَ ذو غِيَــلٍ ... فأصبحــتْ بلقــعًا قفــرًا مغانيهــا
كُليــبُ لا خيــرَ في الدينا ومن فيهــا ... إنْ أنــتَ خلَّيْتَــها فيمــنْ يُخَلِّيهــا
كُليــــبُ أى فتــى عــزٍّ ومكرمــةٍ ... تحــت السَّفاسِفِ إذ يعلــوكَ سَافيها
نعــى النُّعَــاةُ كُليبًا لِي فقُلْــتُ لهم ... مادَتْ بنــا الأرضُ أم مــادَتْ رواسيها
ليْــتَ السَّــماءَ على مَنْ تحتها وقعَتْ ... وحالَــتِ الأرضُ فانجابَــتْ بمَنْ فيــها
والخيــلُ قد أثبتَتْ قومي حوافــرَها ... واستوجبَــتْ بعد أنصــالٍ دواميهــــا
نرمــي الرمــاحَ بأيديــنا فنوردُهَــا ... بيضًا ونُصدرُهَــا حُمْــرًا أعــاليهــا
لا أصــلحَ اللهُ مِنَّا مَــنْ يُصالحكــمُ ... ما لاحــتِ الشمــسُ في أعلى مجاريهــا

وتجدر الإشارة هنا إلى أن جساس بن مرة وهو يرد على كليب قد كرر هو الآخر اسم «كليب» في قوله:

بَلِّــغْ مهلهــلَ عن بكــرٍ مُغلغلــةً ... مَنَّتْــكَ نفسُــكَ من غــيٍّ أمانيهــا
تبكــي كُليبًا وقــدْ شالَــتْ نعامَتُــه ... حقًّــا وتضمــرُ أشيــاءَ تُرجِّيهــــا
فاصْــبِرْ لبكرٍ فإنَّ الحــربَ قد لقحَتْ ... وعَــزِّ نفسَــكَ عَمَّــنْ لايــو اليــها
فقــدْ قتلنــا كليبًا لم نُبــالِ بــــه ... بنــابِ جــارٍ ودون القتــلِ يكفيها
نحمــي الذِّمــارَ ونحمــى كُلَّ أرملةٍ ... حقــاً وندفــعُ عــنها مــن يُعاديهــا
والجــارُ نُــؤْمنُــهُ إنْ حــلَّ ساحتَنَــا ... والعــارُ تمنعــهُ الأشــرافُ واليهَــا

وشتان بين تكرار كُلٍّ منهما للاسم، فالتكرار عند المهلهل أتى مُحمَّلاً بكم من الحسرة والمرارة والأسى، كما دلَّل على علاقة الإخوة الوثيقة التي كانت تجمع المهلهل وكليبًا، أو على الأقل من جهة المهلهل، فقد دلَّلَ التكرار على مدى

تعلقه بأخيه، أما التكرار عند جساس فكان يعلوه الفخر والاستهزاء بالقتيل، فهو الذي قتله، وهو من وجهة نظر جساس بطولة تحسب له، ومن ثم نرانا أمام مشاعر متناقضة عند كل من الشاعرين، لأن الأمر هنا فاق مسألة نقض المعاني كما هو متعارف عليه في شعر النقائض.

وثمَّة إشارة هنا وهي أن معظم شعر المهلهل به هذه الظاهرة فلم يغب عنه كليب شعرًا وفعلاً أثناء الحرب[1].

ونلمح تكرار العلم في موضع آخر في شعر النقائض، نراه عند يزيد بن عمرو الكلابي وهو يرثى مالك بن خالد بن صخر بن الشريد السُّلَّمى في قوله:

لعَمْرى وما عَمْرِى عَلَىّ بهَيِّنٍ
لقدْ خبَّرَ الرَّكْبُ اليمانِي فأوجَعا

نَعَوْا مالِكًا فقُلْتُ ليس بمالكٍ
ولم أسْتَطعْ عن مالكٍ ثَمَّ مَدْفعَا

فأبْلِغْ سُلَيمًا أنَّ مقْتَلَ مالِكٍ
أذَلَّ سُهُولَ الأرْضِ والحَزْنَ أجْمَعا

فلله عيْنا مَنْ رَأى مِثْلَ مالكٍ
قتيلاً بحَزْنٍ أو قتِيلًا بأجْرَعا

فلا تَشْرِبَنْ خَمْرًا ولا تَأْتِ حاصنًا
أبا أنَسٍ حتَّى يَزُوكَ مُقنَّعا

فلَوْ مَالِكٌ يَبْغِى التِّرَاتِ لَقد رَأوْا
نَواصِىَ خَيْلٍ تنفُضُ السُّمَّ مُنْقَعا

---

(1) انظر شعر المهلهل في شعراء النصرانية (٢/١٦٠-١٨١).

أنـــازلـــةٌ غـــدْوًا فـــراسٌ بفخْـــرهـــــا

عُكـاظ ولم نجْـــزِئْ لهـــا الصّـــاع مُتْرَعـــا

فقد كرَّر اسم «مالك» ست مرات منها ثلاث مرات في بيت واحد عدا الضمير الدال عليه، ولعلَّ الذي يلفت النظر أن شعر تكرار العلم في شعر الرثاء في جميع العصور كان من قبل الأخ مثل المهلهل أو الحبيبة مثل ليلى الأخيلية أو الحبيب مثل نزار قباني في العصر الحديث. أما قصيدة يزيد بن عمرو الكلابي فكانت نوعًا مختلفًا، فهو ليس بأخ للقتيل وليس القتيل من قبيلته، فيزيد بن عمرو الكلابي من عامر بن صعصعة ومالك بن خالد من بنى سُليم، فرابطة الدَّم متنفية تمامًا، وهذا يؤكد لنا أن رابطة الصداقة التي نشأت بين الشاعر والقتيل كانت مثل رابطة الدَّم أو تزيد لأنّ بني سُليم أنفسهم لم يرثوا مالك بن خالد مثل هذا الرثاء المُرّ.

٤- أسلوب التبليغ:

وهو أسلوب يكثُرُ استخدامه عند الفخر أو إعلان الندية للخصم، ومن ثم فهو من الأساليب التي تأتي بكثرة في شعر النقائض لأنها تقوم على الندية والفخر بين طرفين كل طرف يريد أن ينتصر لنفسه ويحط من قدر خصمه، وكان أسلوب التبليغ أحد الأساليب التي استخدمت في نقائض الجاهليين، نلمح ذلك في رد جساس بن مرة الذي تصله قصيدة تهديد من المهلهل فيرد عليه مستخدمًا «بلِّغ» بصيغة الأمر:

بلِّـــغْ مهلهـــلَ عن بكـــرٍ مُغلغلـــةً ... مَنَّتْـــكَ نفسُـــكَ من غـــيٍّ أمانيهـــا

وعندما يزداد تهديد المهلهل يقابله جساس أيضًا بتهديد مماثل مستخدمًا أسلوب التبليغ «ألا أبلغ» مُعلنًا تحديه لقوة المهلهل مهما كانت:

ألا أبلـــغْ مهلهـــــلَ مـــا لـديـنـــا ... فَـــأَدْمُعُـــنـــا كـــأدمُعُـــــه غِـــزَارُ

وقد استخدم كليب بن ربيعة أسلوب التبليغ أيضًا وهو يرد على تهديدات التّبع اليماني، مستخدمًا صيغة الأمر «أبلغ» وهي تدل على الحزم والعزيمة وثبات الجأش:

أبلـــغ التبـــعَ اليمـــانـــــي أنَّـــا ... فـــوقَ جُـــرْدٍ مســـومـــــات عتـــــاق

نضـــربُ الهـــامَ بالمهـــنَّـــدِ ضـــربًا ... وســـنومَ العـــدا وطـــول الســـياق

رُبَّ ملـــكٍ مُتـــوَّجٍ قـــدْ قتلـــنـــا ... كـــان ذا عـــزةٍ عظيـــم الـــرواق

فسلبناه مُلْكَـــهُ واسْـــتَـــبَـــحْـــنـــا ... مُلكَـــهُ لا يـــقـــيـــه مِـــنْ ذاكَ واق

والمهلهل هو الآخر يستخدم الصيغة نفسها في تهديد بني حنيفة البكريين:

أبْلـــغْ حَنِيفـــةَ لا تَغـــدُدْ دِيارَهـــمُ ... لم يُنْجِهـــمْ عِـــدَّةٌ مِنَّـــا ولا عَـــدَدُ

والصيغة نفسها يستخدمها عمرو بن الإطنابة وهو يهدد الحارث بن ظالم المري

بعدما قتل الأخير خالد بن جعفر ببطن عاقل وهو نائم، ويصحب استخدام ابن الإطنابة لأسلوب التبليغ الهجاء وليس كما ألفنا التهديد من قبل:

أبْلِـــغ الحارث بـن ظالـم الرِّعــ ـــديــــدَ والنــاذرَ النُّـذُور علَـــيَّا
أنمـــا يَقْـــتُل النِّيـــام ولا يقـــ ـــتلُ يقْظـان ذا ســلاحٍ كمـيّــا

ويأتي أسلوب التبلغ للاستدراج، أي خداع الخصم حتى يقع في المحذور، وهذا ما نلمحه عندما يستخدمه سلمة بن الحارث بن آكل المرار الكندي وهو يحاول استدراج قاتل أخيه شُرحبيل:

الا أبلِـــغْ أبـــا حنـشٍ رسُـــولاً فمــا لـكَ لا تجــيء إلـى الثّـــوابِ
ومــالــك لا تجـــيء إلى هِجـــانٍ منصَّبـــة الغـــوارب بالهضـــاب

وقد استخدم عباس بن مرداس السُّلّمى هذا الأسلوب أيضًا ولكن بصيغة الأمر للمثنى وهو يرد على ابن جذل الطعان.

ألا أبْلِغــا عنـــى ابــنَ جِــذْلٍ ورَهْطَـــهُ
فكَيْــفَ طَلَبْنَــاكُــمْ بكُــرْزٍ ومَــالِــكِ

وبصيغة الأمر للمثنى يستخدم قيس بن الخطيم هذا الأسلوب للرد على أنس ابن العلاء الخزرجي، والذي يلفت النظر أن قيس بن الخطيم لم يُسمِّ أنس بن العلاء باسمه ولكن قرن أسلوب التبلغ بالاستهزاء، فقال «ذا الخزرجي» لأنه من وجهة نظر قيس بن الخطيم لا يستحق الذكر:

ألا أبْلِغــا ذَا الخَــزْرَجـــيّ رِســالَــةً رِسَالَــةَ حَــقٍّ لَســتُ فِيهــا مُفَنَّـــدا

وقد استخدم الأسلوب للتحريض للأخذ بالثأر من طرف لا يمتُّ للقتيل بصلة وهذا ما نلمحه في قول يزيد بن عمرو الكلابي وهو يحرض عباسًا الأصم

للأخذ بثأر مالك بن خالد والغريب أن الشاعر ومن يحرضه لا يمتان بصلة للقتيل:

فـــأبْلِــغْ سُلَيـــمًا أنّ مَقْتَـــلَ مَـــالِـــكٍ

أذَلّ سُـهُولَ الأرْضِ والـحَـــزْنَ أجْمَـــعَـــا

ونرى استخدامًا آخر لأسلوب التبلغ عند عامر بن الطفيل وهو يفخر على النابغة الذبياني:

ألا مَـــنْ مُبْلـــغٌ عَنِّـــي زيـــادًا ‏ ‏ ‏ غَـــدَاةَ القَـــاعِ إذْ أزِفَ الضِّـــرَابُ

والصيغة نفسها يستخدمها النابغة وهو يرد على بدر بن حُذار في قوله:

ألامَـــن مُبْلِـــغٌ عنِّـــــى حُـــزَيْـــمًا ‏ ‏ ‏ وزَبّـــانَ الـــذى لـــم يَـــرْعِ صِهْـــرِى

فـــإيّـــاكـــم وَعُـــــورًا داميـــــاتٍ ‏ ‏ ‏ كـــأنّ صِـــلاءَهُـــنّ صِـــلاءُ جَمْـــــرِ

وهذه الصيغ جميعها وإن اختلفت في بعض المواضع لفظًا فهي تتفق من حيث الغاية، فالأمر لا يقف عند تبليغ الآخر لكن يتعداه، فهى قبل ذلك تعبر عن صلابة نفس القائل وقوته وحزمه، ومن ثمَّ فهى إبلاغ وتحذير للخصم، حتَّى يرعوى.

ولعلنا نلاحظ أنها كثرت في مجال الدفاع عن النفس والرد على الخصم وقلَّت في القصائد المنقوضة، ممّا يؤكد أنها وسيلة دفاعية استخدمها الشعراء الفرسان على وجه التحديد.

الخاتمة

بعد رحلة طويلة، شاقة وممتعة في آنٍ واحد انتهينا من رصد وتحليل النقائض في الشعر الجاهلي، واستخرجنا ملامح تلك النقائض، موضوعية وفنية، وقد تطلب منّا إنجاز هذا العمل أن نبحث في كل مصادر الأدب الجاهلي علّها تعيننا بنقيضة أو تصحح لنا خطأ، أو تضيف معلومة تفيد البحث، ورغم ذلك لا نستطيع أن ندعي أننا قُمنا بحصر نقائض العصر الجاهلي حصرًا تامًا، وأنه لم يفت منا نقيضة واحدة، فهذا زعم لا أدعيه، لكن في الوقت نفسه لم أقصر في البحث عن هذه النقائض ولم أترك كتابًا في الأدب الجاهلي أعلمه إلا وقرأته كي أُفاد منه.

وقد بدأت برصد النقائض ورتبتها ترتيبًا تاريخيًّا، الأقدم فالأحدث وقد بدأتها بنقائض ما قبل حرب البسوس في نهاية القرن الخامس الميلادي، وأنهيتها بنقيضة في بني بكر قيلت وقد بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكن بني بكر لم يدخلوا الإسلام آنذاك، وقد تحريت الدّقة التامة في هذا الرصد التاريخي إلا أننى لا أستطيع أيضًا أن أزعم أنه دقيق ولم يشبه الخطأ، فالحقبة الجاهلية لم تدرس من قبل حسب الترتيب التاريخي الدقيق، ومن ثم كان اعتمادي في ذلك على ترتيب الوقعات التاريخية، فمرحلة ما قبل حرب البسوس هي أقدم المراحل ثم تلتها مرحلة حرب البسوس ثم امرئ القيس وهكذا، ولأن الجزيرة العربية واسعة الأطراف كان يمكن للأحداث والوقعات أن تتوافق في وقت واحد لاسيما في نهاية العصر الجاهلي لذلك الجزم بدقة هذا الترتيب أيضًا أمر لا ندعيه.

وكانت محاولتي في ترتيب النقائض ترتيبًا تاريخيًا تهدف إلى رصد الظواهر الموضوعية والفنية وتطورها في العصر الجاهلي، إلاّ أننا لم نظفر بأي تطور في فنيات النقائض، فقد بدأت مكتملة العناصر، الوزن والقافية ونقض المعنى، أما عن النقائض التي وصلت إلينا وهي غير مكتملة فكانت في الحقبة الوسطى من العصر الجاهلي، وأشهر هذه النقائض ما كان بين امرئ القيس، وعبيد بن الأبرص، وأعتقد أن اعتقاد النقاد بأن هذه أقدم نقيضة وهي غير مكتملة جعلهم يتوهمون أن هذه هي طفولة فن النقائض وأخذوا يتتبعون هذا الفن بعد ذلك متوهمين نضجه في نهاية العصر الجاهلي، ونحن نجزم بأن نقيضة امرئ القيس، وعبيد بن الأبرص نقيضة عادية لا علامة لها بتطور هذا الفن ولم تكن الأولى فيه أيضًا، وربما الذي جعل عبيد بن الأبرص لا يلتزم الوزن والقافية في تلك النقيضة الموقف - الذي لا نعلمه ولسنا على يقين منه - فربّما فُرِضَ عليه الرَّد فرضًا، كأن تكون قصيدة امرئ القيس قد وصلته وهو في نادى قومه وتُلِيَتْ عليهم فما كان من عبيد إلاّ الرد الفورى الارتجالي الذي جاء متسرعًا وهذا ظنٌّ منا. أما من ناحية الموضوعات فقد رصدنا أهم الملامح الموضوعية لهذا الفن وتبين لنا أن الهجاء تطور على يد حسان ابن ثابت، وعبدالله بن رواحة في نهاية العصر الجاهلي وبدأ يأخذ مأخذًا يختلف بعض الشيء عن نظيره قبلهما، فقد وجدنا شيئًا من السباب في الهجاء وهذا لم نألفه عند الشعراء السابقين لهم.

بقى أن نشير إلى أن تحديد المصطلح والملامح لم يخضعا لنقائض العصر الجاهلي ولا حتى نقائض صدر الإسلام التي كثرت بين مكة والمدينة بعد هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إليها، وإنّما خضعا إلى نقائض العصر الأموي وخاصة ما كان بين فحول هذا الفن - جرير، والفرزدق، والأخطل - وقد

سمّى القدماء هذا الهجاء المتبادل بين هؤلاء نقائض، وعلى ذلك كُلّما ذكر هذا المصطلح تبادر إلى الذهن هذه المعارك اليومية بين هؤلاء الشعراء.

ومن وجهة نظرنا الخاصة لا نختلف على المصطلح الذي ارتضاه القدماء والمحدثون معًا، وإنّما نختلف على حصره على نقائض هؤلاء الفحول دون غيرهم في عصرهم، لأن النقائض التي نشأت بين الشعراء والقبائل في العصر الأموي أكبر من حيث الحجم من شعر الفحول كما أن النقائض في العصر الأموي عدا نقائض هؤلاء الفحول لم تكن وقفًا على الهجاء فقط مثلما هو الحال عندهم وإنّما كانت امتدادًا طبيعيًا لنقائض العصر الجاهلي، إذ تناولت ملامح شتى وأفكار متعددة تبعد كثيراً عن الهجاء المتبادل بين المتناقضين.

وعلى ذلك يُعَدُّ التحديد الصارم لملامح النقائض تحديدًا يبعد قليلاً عن الدّقة العلمية لأنه لم يشمل كل نقائض العصر الأموي كما أنّه أغفل نقائض العصر الجاهلي وهي البذور الأولى لهذا الفن إغفالاً كليًّا.

والأحرى بالتنظير للمصطلح والملامح في هذه الحالة أن ينبثق عن نقائض العصر الجاهلي وينظر إلى نقائض العصرين الإسلامي والأموي على أنهما مرحلة لا نقول متطورة للعصر الجاهلي وإنّما مرحلة تالية له. لأننا نعتقد أن النقائض لم تتطور عند فحول شعراء العصر الأموي على الإطلاق، وإنّما تحولت إلى هجاء مقذع، فإن كان التطور قد حدث فقد تم في الهجاء الأموي لا النقائض الأموية، لأن السِّباب الذي تم بين الفحول الثلاثة لم يعرفه المتناقضون في الجاهلية والأحرى أن يرتبط شعر هؤلاء الفحول بتطور فن الهجاء مستقلاً لأن هذا اللون من الهجاء له جذور في الشعر الجاهلي وإن كانت أخف بكثير من هذا السِّباب المباشر أضف إلى ذلك أمرًا آخر وهو أن هذا الهجاء المقذع لم يكن وليد عداوة أو خصومة حقيقية بقدر ما كان وسيلة من وسائل التسلية وقطع الفراغ ولأن

«العرب قبل عصر بني أمية لم يعرفوا هجاء منظمًا، يستمر يوميًا استمرارًا متصلاً، على نحو ما يستمر في عصرنا إخراج الصحف اليومية، إنما عرفوا هجاء متقطعًا، يظهر من حين إلى حين، تبعًا لنشوب حروب وأيام بينهم.

فلما جاء العصر الأموي واستقرت القبائل في مدينتي البصرة والكوفة وعادت العصبيات جَذَعَةً رأينا هذه القبائل تجتمع وتحتشد في المِرْبَد وفي الكُنَاسة حول الشعراء، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء، وكأنهم وجدوا في ذلك لَهْوًا لهم وتَسْلية.

حينئذ يتحول فن الهجاء من فن وقتي متقطِّع إلى فن دائم مستمر، فالقبائل مصفوفة في البلدتين، والشعراء متراصُّون في المِرْبَد والكُنَاسة، والناس يتحلَّقون حولهم لاستماع ما يأتون به، بعضهم من قبائلهم، وبعضهم من قبائل أخرى، جاءوا للفُرْجَة والتسلية وقَطْع الفراغ الهائل الذي لم يكن يعرفه العربي في الجاهلية إلا قليلاً، إذ كان مشغولاً بالبحث عما يُقيم به أوده. أما اليوم فقد كَفتَه الفتوح والغزوات ودواوين الحكومة والدولة مئونة ذلك، فذهب يبحث عن شئ يلهو به، ويقطع أوقات فراغه، وقام له شعراء البلدتين بما ابتغى، إذ حوَّلا المِرْبَد والكُنَاسة إلى ما يُشْبِه مَسْرَحين كبيرين، يظهر عليهما يوميًّا شعراء مختلفون يلعبون لعْبَة الهجاء اللطيفة التي كانت تروع العرب في جاهليتهم قديمًا، ولا تزال تروعهم حديثًا»[1].

لذلك نقول بأن ملامح النقائض التي رسخَتْ في أذهان القراء والباحثين على أنها قوالب ثابتة للنقائض تحتاج إلى إعادة نظر، لأن النقائض في العصر الجاهلي كانت أشمل وأعم من نقائض فحول العصر الأموي الذين ركّزوا - كما ذكرنا - على الهجاء المصطنع الذي نعده ملمحًا من ملامح النقائض المتأخرة زمنيًّا،

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي، الدكتور شوقي ضيف، ص١٦٣، ١٦٤.

ويُحكم عليه في إطار عصره فقط، لكن لا نستطيع أن نسلم بأنه الملمح الأشمل والأعم للنقائض ككل. لذلك نؤكد على أن فن النقائض ككل في حاجة ماسة إلى دراسة ملامحه وتطوره من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي وأن تكون النقائض الجاهلية هى الأساس الأول لهذه الدراسة.

وبعد....

فقد كانت تسيطر عليّ غايةٌ منذ البدء، وهي تحليل ورصد النقائض الجاهلية وإظهار ملامحها الموضوعية والفنية، دون أحكام مُسبَّقة، وأن تعطينا النقائض ما تريد هي أن تعطيه، فلا نفرض عليها شيئًا ولا نتعسف معها أو ضدها، وأدعو الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذا، فهو من وراء القصد.

﴿ وآخر دعواهم ان الحمدلله رب العالمين﴾.

المصادر والمراجع

- الأدب الأموى، الدكتور صلاح رزق، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٥م.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).
- اتجاهات الشعر في العصر الأموي، الدكتور صلاح الدين الهادي، دار الثقافة العربية (د.ت).
- الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحُسين بن دُريد، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة (د.ت).
- أمالي المُرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، للشريف المُرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- أمراء الشعر في العصر الجاهلي، الدكتور صلاح الدين الهادي، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٩م.
- الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي، تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف، وزارة الإعلام الكويتية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م.
- أيام العرب، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عادل جاسم البياتي، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة العربية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- بكر وتغلب ابنى وائل، مؤلف مجهول، كتاب بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤٧١ أدب، (د.ت).
- بلاد العرب، للحسن بن عبدالله الأصفهاني، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر (د.ت).
- تاريخ النقائض، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة ١٩٥٤م.
- التطور والتجديد في الشعر الأموي، الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م.
- جمهرة أشعار العرب، للقُرشي، تحقيق خليل شرف الدين، الطبعة الثانية، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٩١م.
- جمهرة النسب، لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، برواية السكرى، تحقيق الدكتور ناجي حسن، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة العربية ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.
- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر، بيروت (د.ت).
- ديوان عامر بن الطفيل، تحقيق الدكتور أنور أبو سويلم، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.
- شرح ديوان امرئ القيس ويليه أخبار المراقسة وأشعارهم، وأخبار النوابغ وآثارهم في الجاهلية وصدر الإسلام، تحقيق حسن السندي، الطبعة الأولى، دار إحياء العلوم، بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- شعراء النصرانية، جمع الأب لويس شيخو، مكتبة الآداب، القاهرة (د.ت).
- الشعر الإسلامي والأموي، الدكتور عبدالقادر القط، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩م.
- شعر بني عامر بن صعصعة من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي، جمع وتحقيق ودراسة، الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، الطبعة الأولى، نادي المدينة المنورة الأدبي، السعودية ١٤١٥هـ/١٩٩٦م.
- الشعر الجاهلي، الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثالثة عشرة، دار المعارف القاهرة ١٩٩٠م.
- الشعر الجاهلي، قضاياه الفنية والموضوعية، الدكتور إبراهيم عبدالرحمن، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة ٢٠٠٠م.
- شعرنا القديم والنقد الجديد، الدكتور وهب رومية، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٢٠٧)، الكويت، مارس ١٩٩٦م.
- شعر النقائض في العصر الأموي، الدكتور عبدالفتاح أحمد يوسف، رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية الآداب جامعة الزقازيق ١٩٩٩م.
- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلاّم الجُمحى، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة (د.ت).
- ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين، الدكتور السيد خضر، رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية الآداب، جامعة طنطا ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- العقد الفريد، لابن عبدربه، تحقيق وشرح الدكتور مُفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق وشرح الدكتور مفيد محمد قميحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- الفروسية في الشعر الجاهلي، الدكتور نوري حمودي القيسي، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة العربية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- في تاريخ الأدب الجاهلي، الدكتور علي الجندي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨م.
- لسان العرب، لابن منظور، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م.
- مجمع الأمثال، للميداني، عناية نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- المُحبر لابن حبيب، محمد بن حبيب الهاشمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت).
- معجم البلدان، لياقوت الحموي، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م.
- معجم ما استعجم، للبكري، تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- المفضليات، للمفضل الضَّبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة (د.ت).
- من النقد المعياري إلى التحليل اللساني، الشعرية البنيوية نموذجًا، الدكتور خالد سليكي، مجلة عالم الفكر، العددان (١،٢)، الكويت ١٩٩٤م.
- نزار قباني شاعرًا سياسيًا، الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، الطبعة الثالثة، دار الفكر الحديث، القاهرة ٢٠٠٢م.
- نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى، طبعة ليدن، ١٩٠٥م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، للنوري، طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (د.ت).

الفهرس

رقم الإيداع ٣٤٩٨ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي I.S.B.N. 477 - 241 - 469 - 4